دلائل

الإسلام

أ.د/ أحمد بن سعد حمدان الغامدي
الأستاذ بالدراسات العليا
قسم العقيدة - جامعة أم القرى

قال تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُ ﴾[آل عمران:١٩]

وقال تعالى:

﴿ وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٨٥ ﴾[آل عمران:٨٥]

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسوله الأمين وبعد:

فإنَّ الحياة لا تستقيم ولا يسعد أهلها فيها بدون معرفة: «مصدرها والغاية منها» ثم تحقيق تلك المعرفة في واقع الحياة.

ومهما تحقَّق للإنسان من إمكانات مادية واجتماعية وغيرها من وسائل الرفاهية فإنَّ ذلك لا يُغني عن تلك المعرفة وتحقيقها في واقع الحياة.

والإنسان في كثير من بلدان العالم تحيط به عشرات العقائد والمذاهب، ويكاد يشعر باليأس من معرفة الحقيقة بين ذلك الركام الهائل الذي يحيط به من كل مكان، إضافة إلى الحواجز والمغريات التي تكاد تستنزف وقت الإنسان وجهده وتشغله عن أهم قضية في وجوده.

والحقيقة حاضرة موجودة سهلة متيسرة، لكن أعداءها والجاهلين بها يحاولون تشويهها وصدَّ الناس عنها في وقت ضعف فيه أصحابها، وتأمَّر عليهم فيه أعداؤهم.

ولهذا فلابد من بذل الجهود لإيصال الحقيقة إلى الناس جميعًا وعدم اليأس من ذلك، فإنَّه ليس بين الناس واتباع الحقيقة إلا معرفتها لمن أرادها وتاقت نفسه للوصول إليها.

فإنَّ في النفس فراغًا لا يملؤه إلا إدراك حقيقة الوجود، بل فيها تعطش شديد لمعرفة

تلك الحقيقة لا يهدأ إلا بالوصول إليها.

وهذه الحقيقة قد تكفلت ببيانها سلسلة الأديان السماوية التي أنزلها الله ﷻ على البشرية عبر تاريخها الطويل ثم ختمت بدين الإسلام الذي كان نهاية حلقات تلك السلسلة الإلهية، ولولا أن تلك الأديان السابقة قد عدت عليها أيادي التحريف لكانت موافقة لما في القرآن الكريم.

إن البشرية اليوم رغم تقدمها المادي وتطورها الصناعي قد حرمت من معرفة هذا الدين والعيش في ظلاله بسبب ضعف المسلمين وجهل غالبيتهم بهذه النعمة العظيمة، وتقصيرهم في القيام بحقها في ذوات أنفسهم أولًا، ثم في إيصالها إلى الآخرين ثانيًا، ثم الحرب الشرسة التي يشنها أعداء هذا الدين عليه بالطعن فيه والتشويه لحقائقه، مما يتطلب جهدًا كبيرًا لمواجهة تلك الحرب.

وقد أعددت هذا البحث المختصر لبيان طرف من دلائل هذا الدين العظيم، راجيًا أن يساهم في تصحيح المفاهيم الخاطئة، ويكشف القناع عن أبصار الغافلين وقلوبهم، ويزيد الذين آمنوا يقينًا على يقينهم في هذا الدين العظيم الذي ارتضاه الله ﷻ لعباده، ونسخ به الأديان السابقة، وأخبر أنه لا يرضى أن يعبد بغيره فقال ﷻ: ﴿ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا ﴾ [المائدة:٣].. وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [آل عمران:٨٥].

وقد حمّل الله ﷻ الأمة الإسلامية مسئولية إبلاغ هذا الدين للناس فقال ﷻ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗا ﴾ [البقرة:١٤٣].

فإن هذا الدين يشتمل على عشرات ومئات الدلائل التي تقرر أنه منزل من رب العالمين، ولكنها مبثوثة متفرقة تحتاج إلى جمع وتقريب ليسهل على الباحث الوصول إليها في مكان واحد، فإن جمع كل الدلائل ربما يكون مستحيلًا أو متعذرًا لكثرتها وتنوعها، ولكن مالا يدرك كله لا يترك جلّه.

وقد حاولت في هذا البحث المختصر أن أجمع طرفًا من تلك الدلائل لعلها تكون أنموذجًا كافيًا لبيان حقيقة هذا الدين، و سميته: (دلائل الإسلام) راجيًا من الله ﷻ أن ينفع به.

وقد حرصت على الاختصار وتقريب المراد بأيسر الألفاظ وأوضحها ليسهل ترجمته إلى لغات أخرى.

والله الموفق...

سائلًا الله ﷻ أن يحقق هذا البحث مقاصده، وأن ينفع بها كاتبه وقارئه وسامعه، إنَّه سميعٌ مجيب، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

حرِّر في: ١٤٢٣/٨/٦هـ
وتمت مراجعته في:١٤٢٧/١/١٧هـ

الباحث

أ.د/ أحمد بن سعد حمدان
الأستاذ بجامعة أم القرى
قسم العقيدة- الدراسات العليا

لا سعادة للإنسان بدون معرفة حقيقة الحياة[1]

ولهذا فإنَّه لابد لكل إنسان عاقل أن يهتم بهذه المسألة ويعطيها ما تستحق من الوقت والجهد، فإنَّ حياة الإنسان محددة بزمن له بداية ونهاية لا يُؤخذ رأيه فيها؛ فإذا انتهت هذه الفرصة بدون أن يعرف حقيقة هذه الحياة فإنَّه سيندم بعد مغادرة هذه الحياة ولا ينفعه الندم آنذاك.

لا يوجد إنسان خالي الذهن عن التفكُّر في هذه الحياة.. كيف ظهرت إلى الوجود.. ومن أظهرها.. ولماذا أظهرها.. إلا أن درجات الحرص على معرفة حقيقة الحياة تتفاوت من شخص لآخر، وذلك بحسب تربيته ومستواه العلمي، وبيئته المحيطة به.

لا يسعد القلب ولا تطمئن النفس بدون معرفة هذه القضايا ولو ملكت المال، وحصلت على الجاه؛ لأنَّ القلب لا يملؤه شيء غير هذه المعرفة وثمرتها العملية.

كيف ظهر الإنسان إلى الوجود؟

نبدأ البحث بالسؤال عن هذا الإنسان: كيف ظهر إلى الحياة، إذ هو المقصود بالبحث، وما ينطبق عليه ينطبق على بقية الكون.

نقول: إن هذا الإنسان بين فروض ثلاثة:

الأول: أن يكون هو نفسه الذي جاء بنفسه.

الثاني: أن يكون جاء دون أن يأتي به أحد.

الثالث: أن يكون غيره جاء به.

---

(1) يُراجع للتوسع كتاب: الإيمان والحياة (ص: ٧٦-٨٥، ٩٥-١٠١).

قلت:

أمَّا الفرض الأول: فباطل؛ إذ كيف يكون الإنسان عدمًا -أي: غير موجود- ثمَّ يوُجِد نفسه؟!

ثمَّ هاهو الإنسان بعد أن وُجِد.. هل يستطيع أن يأتي بإنسان آخر؟ لا يستطيع!

إذًا: الفرض الأول باطل.

وأمَّا الفرض الثاني: وهو أن يكون الإنسان جاء دون أن يأتي به أحد.

فهذا قبل الإجابة عليه يحتاج إلى مقدمات لتكون الإجابة صحيحة:

١-الإنسان ذكر و أنثى فكيف جاء؟ وهل جاء الذكر أولًا ثمَّ الأنثى أم العكس؟ أم جاءا سويًا؟ وهل يستطيع أحدهما أن يزعم أنَّه جاء أولًا بنفسه، ثمَّ خلق لنفسه الشطر الثاني؟!

٢- لكل من الذكر والأنثى مواصفات تكمل الآخر وتتطابق مع مواصفات الآخر ولو اختلت بعض هذه المواصفات لانعدمت الحياة.

ومن ذلك مثلًا:

انقسام شطري الجنين بين الذكر والأنثى، فلا يمكن أن يلد أحدهما بدون الآخر، ولكي تتم عملية الإنجاب لابد من خليتي الذكر والأنثى[1].

---

(1) ولا يرد على هذا مسألة الاستنساخ؛ لأن الاستنساخ إنما يؤخذ خلية من الذكر أو من الأنثى أصلها خلية ملقحة فإن وجود الذكر أو الأنثى إنما هو في الأصل خليتان اتحدتا ثم انقسمتا بعد ذلك لينتج عنهما بلايين الخلايا في كل من الذكر والأنثى، وكل خلية في جسميهما خلية ملقحة من خليتين، لكنهم لو جاءوا إلى خلية الرجل فقط، أو خلية المرأة فقط قبل أن يتحدا لما أمكن إيجاد مولود جديد.

٣- ما يتركب منه الإنسان من أجهزة في غاية الدقَّة، ولكل منها وظيفة لا يقوم بها غيره، فجهاز هضمي، وجهاز عصبي، وجهاز دموي، وجهاز تنفسي، وجهاز لتصفية الدم، وهكذا...

فكيف توافرت كل هذه الأجهزة في الإنسان وهي تعمل تلقائيًا وبدون علمه ولا إرادته؟!

فالجهاز الدموي الذي يرتبط بالقلب؛ قطعة لحم مجوفة مرتبط بها شبكة أنابيب تتصل بكل الجسم، وكلها مفتوحة من الداخل وتمد جميع خلايا الجسم التي تُقدَّر بسبعين بليون خلية أو أكثر في كل جسم، وذلك بحركة مستمرة من القلب والدم لا تتوقف، يخرج الدم من القلب في أربعة اتجاهات:

- اتجاه إلى الجسم ثُمَّ من الجسم إلى القلب.

- واتجاه إلى الرئتين لأخذ الأكسجين ثمَّ من الرئتين إلى القلب لضخه إلى الجسم.

كيف صُنِع هذا القلب في الإنسان وهو في بطن أمه؟!

وكيف رُبِطت به هذه الشبكة من الأنابيب (العروق) لتتصل بكل أجزاء الجسم؟!

ثمَّ لماذا يتحرك القلب فيقبض ويبسط في حركة دائبة لا يتوقف إلا عند الموت؟!

ومن الذي يحرِّك هذا القلب بصورة منتظمة لا يعرف الكلل ولا التعب وهو يتحرك كل يوم بما يُقدَّر بمائة ألف حركة ؟

ثم هذا الدم الذي يتحرك داخل الجسم مملوء بالحياة لم يستطع الإنسان رغم تقدم علومه وكشوفاته أن يصنع خلية واحدة منه ولن يستطيع!

هذه لمحة سريعة عن تكوين القلب، ولا تقل الأجهزة الأخرى في الإنسان عن القلب في إحكامها ودورها ودقة خلقها.. فهل يجرؤ عاقل يحترم عقله بعد ذلك أن يزعم أنَّ هذا الإنسان جاء بدون خالق حكيم؟![1].

إنَّ العقل قد يُخدع؛ لكن لا يصل به الأمر إلى أن يُخدع في أعظم قضية في حياة الإنسان بل هي قضية الوجود كله، فلا يمكن أن يهدأ للعاقل بال ولا يقر له قرار دون الوصول إلى هذه الحقيقة.

أمَّا الذي يعيش بدون إحساس وتستحوذ عليه الشهوات الحيوانية فهذا ليس أهلًا لا يرتقي إلى درجة الإنسانية، فليبقَ في شهواته حتَّى يستيقظ في العالم الآخر الذي يصحو فيه كل الناس، ولكن حيث لا ينتفع باستيقاظه.

الفرض الثالث: وهو أن يكون هذا الإنسان من صنع إله حكيم عليم، خلقه وصوَّره، وأتقن خلقه وصورته، وزوده بهذه الأجهزة الدقيقة التي تدل على علمه وحكمته.

هذا الفرض هو: «الحقيقة» التي يشهد لها كل ذرَّة في هذا الوجود، ولا يستطيع الإنسان الذي يحترم نفسه أن يقبل غيرها، وشواهدها ظاهرة لكل من يريد أن يعرف الحقيقة.

قال تعالى: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الطور:٣٦][2].

---

(1) يُراجع كتاب: رحلة الإيمان في جسم الإنسان.

(2) يُراجع: العقائد الإسلامية (ص: ٣٩-٤٦)، وكتاب: الله يتجلى في عصر العلم (ص: ١١).

قال ابن كثير:(أي: أَوُجِدوا من غير موجد أم هم أوجدوا أنفسهم؟ أي: لا هذا ولا هذا، بل الله هو الذي خلقهم وأنشأهم بعد أن لم يكونوا شيئًا مذكورًا.

قال البخاري: حدثنا الحميدي، حدثنا سفيان قال: حدثوني عن الزهري عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه قال: «سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور، فلما بلغ هذه الآية: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَۣيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الطور:٣٧]، كاد قلبي أن يطير» وهذا الحديث مخرج في الصحيحين من طرق عن الزهري به، وجبير بن مطعم كان قد قدم على النبي ﷺ بعد وقعة بدر في فداء الأسارى، وكان إذ ذاك مشركًا، فكان سماعه هذه الآية من هذه السورة من جملة ما حمله على الدخول في الإسلام بعد ذلك)[1].

وسنحاول إيراد قطرات من بحار الشواهد التي تمسح غبار الغفلة عن القلوب الغافلة، وتطهر القلوب التي قد لحقها دنس الشبهات، وأمرضتها فتنة الشهوات.

(1) تفسير ابن كثير: (٧/ ٤٠٦).

الشواهد على الخالق الحكيم

في الحقيقة أنني أشعر أن افتراض وجود من يجهل هذه الحقيقة هو افتراض عجيب وغريب، لكن ضرورة البحث تقتضي أن نفترض ذلك لاحتمال وجود ضحايا لمثل هذا الافتراض.

والشواهد أكثر من أن تحصر؛ لكنا نكتفي هنا بإشارات إلى نماذج منها:

أولاً: الفطرة:

هل القلب البشري غافل عن قضية وجوده؟

أي: هل لم يخطر بباله تلك الأسئلة السابقة؟

الجواب: لا. لا يوجد قلب لم يفكر في نفسه وفي هذا الوجود وفيما بعد الموت، بل في كل قلب إحساس بأنَّ له ربًّا خلقه وخلق هذا الوجود، لكنَّه لا يستطيع معرفته بنفسه، فهو يبحث عن مَنفذ ليصل إلى معرفة هذا الخالق العظيم ليعظمه ويتقرب إليه، ويسأله حمايته وقضاء حاجاته.

إذًا: لا يخلو قلب من هذه الحقيقة، لكن التربية الأسرية والاجتماعية هي التي توجه هذه الحقيقة فتنميها أو تحاربها وتغطيها، والإنسان نفسه هو شاهد نفسه.

إذًا: الشاهد الأول على هذه الحقيقة: «الفطرة». أي: الأمر المغروز في كل قلب.

ولهذه الفطرة دلائل عدة منها:

أ) الاعتقاد الجازم بأنَّ كل فعل لابد له من فاعل، وهذه الحقيقة تظهر في وقت مبكر

من حياة الإنسان، بل وهو لا يزال في عهد الطفولة، فتجده يسأل أسئلة عن أحداث قائمة لا جواب لها إلا أن نقول له: الله. أي: الخالق أو الفاعل.

ومن تلك الأسئلة:

١- من خلقنا؟

٢- من خلق الشمس والقمر؟

٣- لماذا تختفي الشمس؟

٤- لماذا لا تسقط الشمس؟

٥- لماذا يبدأ القمر صغيرًا ثمَّ يكبر ثمَّ يصغر؟

هل يقتنع الطفل بأنَّها هكذا وُجدت بدون مُوجِد، وتحركت بدون محرك، وثبتت في الهواء بدون مثبت؟!

ب) ما حفظه لنا التاريخ من أوضاع المجتمعات البشرية عبر تاريخها الطويل، حيث لا يوجد مجتمع بدون دين - أي تذلل وخضوع لله عز وجل أو لبعض مظاهر الطبيعة - فقد وُجِدت مجتمعات بدون صناعة ولكنَّه لم توجد مجتمعات بدون دين.

وذلك أنَّ أول مجتمع ظهر على ظهر الأرض - وهو آدم وزوجه حواء وذريتهما - كان يدين لله عز وجل، ثمَّ مع مرور الزمن انحرفت الذرية إلى تقديس بعض مظاهر الطبيعة واعتقاد قدرتها على النفع والضر إما استقلالًا وإما لمكانتها من الخالق، ثمَّ بعث الله عز وجل رسولًا لتصحيح عقائدهم، ثم مع مرور الزمن يحدث انحراف آخر، فيبعث الله عز وجل رسولًا آخر يصحح الانحراف...وهكذا.

والشاهد: أنَّه بعد الدراسات التاريخية للمجتمعات البشرية لم يُعثر على مجتمع ليس له دين، فدلَّ ذلك على فطرية التدين في النفس البشرية.

جـ) ما يشعر به الشخص المسلم من طمأنينة وراحة نفسية بمعرفته لخالقه عزَّ وجلَّ، ومعرفته لدينه، فالطمأنينة التي يجدها المسلم لا يجدها غيره.

د) ما يشعر به غير المسلم من قلق نفسي وضياع يحاول الهروب منه بالمخدرات أو الخمور، أو السياحة أو الانشغال بأنواع الألعاب، ونحو ذلك مما ينسيه ما يعانيه في داخله مما لا يدري عن سببه، وقد لا تنفعه هذه الأعمال فيشتد عليه القلق حتى ينتهي الأمر بكثير منهم إلى الانتحار.

هـ) ما يشهد به من أسلم جديدًا بقوله: كنت أحس بأنَّ هناك شيئًا في حياتي مفقودًا، وعندما عرفت الإسلام وأسلمت اختفى هذا الإحساس وشعرت بأنَّني وجدت ما كنت أفقده، فارتاحت نفسي وهدأت مشاعري[1].

ثانيًا: تنوع الموجودات:

هذا الكون مملوء بأنواع الموجودات، ولكل منها خصائصه التي تخصه، ويحمل في داخله قوانين تحكم هذه الخصائص وتضبط تكرارها في الأحياء والنباتات بل والجمادات، فلا يستطيع كل نوع منها أن يخرج عن خصائصه.

ويتضح ذلك فيما يلي:

١) **النباتات من الأشجار والأعشاب:** يتكرَّر وجودها وتتكرَّر صفاتها وخصائصها.

فالقمح مثلًا: هو القمح منذ أن وُجِد إلى الآن، وكذلك الذرة والشعير وأنواع

(1) يُراجع لهذا الحديث: كتاب: الإسلام الدين الفطري (ص: ٢٤)، وكتاب: روح الدين الإسلامي (ص: ٧٩)، وكتاب: فطرية المعرفة.

الحبوب، والفواكه بأنواعها.. البرتقال هو البرتقال، والتفاح هو التفاح.. وهكذا..

فكل نبتة لها خصائصها التي لا تتغير -شكلها، وطعمها، ولونها، ورائحتها- تعبث بها أيدي البشر والجميع ينبت وينضج من خلال عناصر أربعة: التراب والماء والهواء وأشعة الشمس، ثمَّ لا تتشابه ولا تتوافق لا في شكلها، ولا في طعمها، ولا في رائحتها، بل تبقى محتفظة بخصائصها رغم وحدة العناصر التي تنبتها وتنضجها.

إذًا: كيف بقيت هذه النباتات محافظة على خصائصها طوال هذه المدة المتطاولة ولم يحدث لها تغير أو تبدل؟! أليس في هذا دليل على خالق حكيم؟!

٢) الأحيـــاء: الإنـــسان.. والحيـــوان.. والطـــير.. والحـــشرات.. والجـــراثيم.. والفيروسات.. كل نـوع محكـوم بنظـام يوجـب تكـرار الخلـق نفسه.. وبعضه يتوالـد عـن طريق الحمل وبعضه عن طريق البيض.. فسبحانه من خالقٍ حكيم!![1].

---

(1) عندما زعم: «داروين» أن الإنسان وجد من: «قرد» وأن القرد وجد من حيوان آخر..وهكذا.. وزعم أن هذا التدرج بدأ من جرثومة.. والجرثومة جاءت من خارج الأرض.. وقَبلَ هذا الكلام الساقط كثيرون من غير تدقيق؛ لا عن قناعة ولكن لمحاربة الكنيسة الظالمة التي استبدت وبطشت باسم الدين، وأراد الناس أن يتخلصوا من عقائد هذه الكنيسة الباطلة فاخترع لهم هذه المقولة الباطلة قبلوها لمحاربة الباطل بباطل وكان بإمكانهم أن يحاربوا الباطل بالحق، والحق على مقربة منهم في دين الله الذي هو الإسلام؛ لكن اليهود أعداء البشرية لا يريدون للبشرية الخير فصنعوا هذه النظرية الباطلة.

ولو سألنا داروين: الجرثومة التي جاءت من خارج الكون أكانت ذكراً أم أنثى؟

ثم عندما وصلت إلى الأرض هل لحقها زوجها بعد ذلك أم ولدت لها زوجاً آخر لتكتمل الحلقة التي تمكنها من الإنجاب؟!

لقد أدرك هذه الثغرة وزعم أن الجرثومة كانت تحمل خصائص مزدوجة!!

ثم إن الإنسان بعد أن تقدم في كشوفاته اكتشف أن الغلاف الجوي تحيط به رياح شديدة لا = = تسمح بدخول الأجسام الغريبة وهي التي تحمي الأرض من النيازك التي تتفتت بمجرد قربها من الأرض..

ثالثًا: الإحكام:

إن المتأمل في المخلوقات يرى فيها إتقانًا عجيبًا وتناسبًا بديعًا، فهذا الإنسان في غاية التكامل والجمال، فقامته المنتصبة، وتوزيع أعضائه وحواسه في غاية الإتقان، فرأسه أعلى شيء من جسده ويشتمل على حواس متنوعة من سمع، وبصر، وشم، وذوق، وفم للكلام والأكل والشرب، وأنف للنَّفس.. لو وضعت هذه الأعضاء في غير هذا المكان لفسدت حياته، فله رأس مزود بحاستي المراقبة -السمع والبصر- والشم والذوق والفم، لو أردت أن تغير مكان واحد منها لم تستطع..

ثمَّ له يدان لهما مفصلان خلفيان وهما معلقتان في جنبي الإنسان، وفي أطرافهما أصابع لها مفاصل تمكنه من الأخذ والقبض ونحو ذلك، ولو نقص أحد هذه الأصابع لاختل عمل اليد، بل لو فُقد إصبع الإبهام -مثلًا- لتأخرت الحاضرة المادية مئات السنين - كما قرره بعض الباحثين من خلال دراسة أجراها على أثر خلقة اليدين على التقدم الحضاري.. فسبحانه من خالقٍ حكيم!!

ثمَّ انظر في الليل والنهار كيف تتم هذه الظاهرة بما يحقق للإنسان وكل الأحياء على ظهر الأرض ما يحتاجون إليه، فهم يحتاجون إلى نور للعمل.. ثمَّ إلى ظلام للراحة.. وحركة الشمس والأرض والقمر جميعها تلبي حاجة الإنسان، كما قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا

فكيف تستطيع هذه الجرثومة أن تأتي وتخترق ما لا تخترقه النيازك النارية؟!

إنها نظرية خرافية لا تستحق الاحترام ولو لم يكن وراءها من أعداء البشرية من يروج لها لما راجت.

ثم تقدم العلم واكتشف أن كل حي أو نبات فإنه محكوم بعامل الوراثة الذي يحافظ على خصائصه التي خلق بها، فلا تنبت شجرة البرتقال إلا برتقالاً ولا نبتة القمح إلا قمحًا، ولا يلد البقر إلا بقرًا.. والإنسان إلا إنسانًا، فبطلت هذه النظرية وسقطت على أيديهم هم.

راجع كتاب: دائرة معارف وجدي (مادة: الله)، وكتاب: الإيمان والتقدم العلمي.

ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا ۝ وَجَعَلۡنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشٗا ۝﴾ [النبأ:١١].

وهذا القمر يبدأ صغيرًا ثمَّ يكبر فيكبر حتَّى يصبح بدرًا في منتصف الشهر، ثمَّ يعود فيصغر حتَّى يعود هلالًا.. وهكذا منذ وجوده إلى نهاية الحياة.. فهو يحسب للإنسان الزمن الذي يحتاجه في عباداته ومعاملاته.

وهذا البحر الذي يغطي ثلثي الأرض لا قوام للحياة بدونه، فهو الذي يمد الناس بالماء من خلال التبخر، فيتبخر الماء بطريقة عجيبة، حيث يصعد البخار عذبًا تاركًا الأملاح وراءه، فلولم يكن على هذا النحو وكان التبخر بكامل مكونات الماء لما استفاد الإنسان من هذه العملية.

ثم كم يموت فيه من أسماك وحيتان فلو لم يوجد فيه أملاح تحفظ روائح الأحياء الميتة لتعفنت البحار ولما استطاع الإنسان الحياة على ظهر الأرض.

فمن جعل هذا النظام الذي يحقق حاجة الإنسان والأحياء الأخرى؟! أليس هو الخالق الحكيم؟![1].

هذه نظرات للتذكير.. وإلا فإنَّ كل خلية وذرة في هذا الوجود فيها من العبر ما يستغرق بيانه زمنًا طويلًا.

رابعًا: الزوجية:

قال تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ۝﴾ [الذاريات:٤٩].

يقوم الوجود كله ابتداءً من الجماد وانتهاءً بالإنسان على الزوجية.. ذكر وأنثى.. أو سالب وموجب أو إلكترون ونواة. ولا يمكن للحياة أن توجد وتستمر بدون هذه الزوجية، فالذكر يحتاج إلى الأنثى، والأنثى تحتاج إلى الذكر؛ لكي تتم عملية التوالد

(1) راجع كتاب: الإنسان لا يقوم وحده (ص: ١٨٦)، وكتاب: روح الدين الإسلامي (ص: ٧١).

والاستمرار، فكيف عرف كل واحد منهما وظيفته وكيَّف نفسه ليحققها؟ وهل هناك أحد من البشر يزعم أنَّ له دورًا في وجودهما أو وجود أحدهما؟! سبحان الله الخالق الحكيم!

خامسًا: التوافق:

إنَّ التوافق بين الموجودات من أبرز الظواهر الكونية.

فالإنسان: ذكر وأنثى وبين كل منهما من الشكل الخارجي والصفات الجسمية والنفسية توافق دقيق، بحيث يتفق في تكوينه وخصائصه مع حاجة الآخر.. وهكذا في جميع الذكور والإناث في جميع الأحياء، ولا يتفق ذكر حيوان من نوع مع أنثى حيوان من نوع آخر.

وكذلك النباتات لكل منها ذكر وأنثى لا يستغني أحدهما عن الآخر... وهكذا.

ثمَّ الأحياء زوِّد كثير منها ببصر يتفق مع النور الموجود، وقد خُلِقت العين متفقة تمامًا مع قوة الأشعة الموجودة، وكذلك السمع خُلِق متفقًا مع قوة الأصوات الموجودة، ولو زادت قوة البصر أو السمع لما استطاع الإنسان أن يعيش، فإنَّ الكون مملوء بالصور والأصوات ويتبين ذلك من خلال الرائي (التلفزيون) والمذياع والهاتف، فإنَّك ترى في الرائي صورًا وتسمع أصواتًا.. فمن أين جاءت؟ من فوق رأسك ومن حولك.. فلو زادت قوة بصرك وسمعك لرأيتها بدون جهاز، ولما استطعت أن تعيش، لأن الوجود مملوء بهذه الصور وتلك الأصوات.

إذًا: من الذي ضبط سمعك وبصرك ليتفق مع احتياجاتك؟![1].

إنَّه ربَّك الذي خلقك.. فسبحانه من إلهٍ حكيم وربٍّ رحيم!!

هذه بعض نظرات في الموجودات تفتح للإنسان العاقل أبواب النظر والتأمل في هذا

---

(1) يُراجع كتاب: الطب في محراب الإيمان (١/ ١٩٣-٢١٢).

الوجود الذي تشهد كل ذرة وكل خلية حيَّة فيه أنَّ لها ربًّا خالقًا حكيمًا.

إنَّ الإلحاد مرض قاتل لا يطيقه القلب ولا يميل إليه إلا في غيبة الحق، وسوء التربية التي تفسد القلب وتدنسه، ومع ذلك لا يختفي من هذا القلب التفكر في هذا الوجود.. فيعيش حالة من القلق والاضطراب ينعكس على سلوكه وأخلاقه ما لم يكتشف الحقيقة.

إن هذه النوعية من الناس التي تستمرئ الإلحاد قليلة جدًا، ولو أُجريت إحصاءات لمعرفة النسبة التي يمثلها الإلحاد لكانت ضئيلة جدًا[١].

وبعد بيان هذه الحقيقة وهي: أنَّ هذا الكون من خلق الله عز وجل، وأنَّ هذا الإنسان أحد أفراد هذا الكون.. نتساءل: هل لهذا الكون غاية من وجوده؟ وهل لهذا الإنسان عمل يؤديه في هذا الوجود؟ وكيف يستطيع الإنسان معرفة العمل؟

هذا ما سنشير إليه بإيجاز فيما يأتي بمشيئة الله تعالى.

---

(1) في دراسة حديثة أجراها كاتبان أمريكيان هما: (جيمس باترسون) و(بيتر كيم) عن المجتمع الأمريكي قبل اثني عشر عامًا طرحا فيها عشرات الأسئلة عن كثير من القضايا، وكانت قضية الإيمان واحدة منها، فكانت نسبة الإجابة على سؤال الإيمان بالله كبيرة جداً، فقد قالا: إن نسبة (٩٨٪) من أولئك الأشخاص الذين سألناهم في هذه الدراسة قالوا: إنهم يؤمنون بالله). كتاب: (يوم أن اعترفت أمريكا بالحقيقة) (ص: ١٥٧)، مترجم إلى العربية عام (١٤١٤هـ).

وظائف المخلوقات

كل شيء في هذا الوجود له عمل يؤديه في وجوده، فلا يوجد شيء من المخلوقات لا عمل له.. فالشمس لها عمل، وهو بث الضوء والحرارة إلى الأرض، والقمر له عمل، يحسب للناس الحساب، والأرض لها عمل، تحمل على ظهرها هذا الإنسان العجيب.

والهواء له عمل، يمد الأحياء والنبات بما يحتاجون إليه من أكسجين، وينقل أصواتهم إلى بعضهم البعض، ويحمل السحاب ليمطر في بقاع بعيدة عن البحار.. وهكذا... الماء.. النباتات.. الأشجار.. وغيرها.. فكل جزء في هذه الموجودات له عمل، بل كل جزء في المخلوقات له عمل يكمل به أعمال الأجزاء الأخرى، فالإنسان والحيوان يفسدان الهواء والنبات يعيد ما فسد... وهكذا.

وكذلك هذا الإنسان كل جزء فيه له عمل.. بصره.. سمعه.. أنفه.. قلبه.. رئتاه.. يداه.. بل كل خلية في جسمه لها عمل ونظام تحقق به دورها في هذا الجسم.

إذًا: إذا كان لكل شيء عمل يؤديه في وجوده... بل لكل ذرة عمل تؤديه في وجودها... فهل للإنسان عمل يؤديه في وجوده أم لا عمل له؟ وإذا كان له عمل فما هو ذلك العمل؟!

لو أتينا إلى إنسان يركب سيارة فسألناه: لماذا صُنعت هذه السيارة؟ فقال: لا أدري. لكان هذا الإنسان مغفلًا أو فاقدًا لعقله.

ثمَّ لو اقتربنا أكثر فسألناه عن ملابسه التي يلبسها فقلنا: لماذا صُنعت هذه الملابس؟

فقال: لا أدري. لكان أعظم غفلة من الأول!

ثمَّ لو اقتربنا أكثر فسألناه: لماذا وُجدت عيناك؟ فقال: لا أدري؛ لكان مغفلًا عظيمًا!!

ثمَّ لو اقتربنا أكثر فقلنا: لماذا خُلقت أنت؟ فقال: لا أدري. لكان أعظم مغفلٍ على ظهر الأرض!!

فيالها من طامة كبرى ومصيبة عظمى: إنسان عاقل يعيش مع الناس، ويشاهد الكون العجيب الفسيح ثمَّ لا يدري لماذا يعيش؟!

أيُّ لذةٍ للحياة؟! وأيُّ نعمٍ يستمتع بها وهو يجهل أعظم شيء في حياته؟!

إن الحياة لا تحلو ولا تستقيم بجهل هذه الحقيقة.

المصدر لمعرفة الغاية من خلق الإنسان

إذا تحركت عند الإنسان الرغبة ليعرف لماذا يعيش فمن يسأل عن هذا الأمر؟ ومن هو الذي يملك أن يجيب؟!

إنَّ الإنسان إذا أراد أن يعرف القصد من صناعة أي جهاز فإنَّه يتصل بالمصنع الذي صنعه، فهو أعلم الناس بجهازه، ولله المثل الأعلى: فالإنسان من (صناعة الله)، والله عز وجل يبعث الرسل وينزل الكتب لتُعلِّم الإنسان لماذا خلقه الله عز وجل.

والله عز وجل قد بلَّغ هذا الأمر للناس من خلال اتصاله سبحانه بأشخاص هم خيار الناس سماهم الله عزوجل بعد ذلك أنبياء ورسلاً، فهم أو من ورث علمهم الذين نستطيع أن نعرف الحقيقة من قبلهم.

كيف يتم الاتصال بين الله عز وجل وبين هؤلاء الأنبياء لتعليمهم تلك الحقائق؟

هذا ما سيتضح في المبحث الآتي إن شاء الله تعالى، والذي يتبين منه: كيف ظهر الأنبياء إلى الوجود.

الاتصال بين الله عز وجل وخلقه

عندما يريد الله ﷻ أن يتصل بخلقه لإصلاحهم وبيان مراده منهم؛ فإنَّه سبحانه يختار «**واحدًا**» من الناس لينزل عليه «**الوحي**» من السماء عن طريق «**مَلَك**» من الملائكة.

ويسبق هذا الاتصال أنَّه ﷻ يُعِدُّ الشخص الذي سيختاره لتلقي الوحي فيحفظه ويحوطه منذ الصغر، بل وقبل ولادته فيكون من نكاح لا من سفاح، ثمَّ ينمو هذا الشخص بعيدًا عن الرذائل متحليًا بالفضائل، ويتم ذلك من خلال رعاية الله ﷿ لقلب هذا الإنسان.

ومثال ذلك -ولله المثل الأعلى- ما توصل إليه الإنسان اليوم من التحكم عن بُعد؛ فإنَّه يصنع جهازًا ويصنع آلة تتحكم في هذا الجهاز من مسافة بعيدة.

ولعلَّ هذا يقرب لنا كيف يرعى الله ﷿ «الإنسان» الذي يريد أن يكلفه بإصلاح الناس، فإنَّه سبحانه يوجه قلبه للخير ويصرفه عن الشر، فلا يأمر صاحبه إلا بالأعمال الحسنة، ولا يأمره بالأعمال السيئة، بل يكرهها وينفر منها.

بداية الاتصال بين الله عز وجل وخلقه:

عندما يكتمل نمو الإنسان المختار جسديًا وعقليًا تبدأ مقدمات الاتصال وذلك عن طريق «**النوم**»، وعن طريق اليقظة فيرى في منامه وفي يقظته ما يفهم منه أنَّ الله ﷿ سيختاره للرسالة، وتستمر هذه الحال فترة كافية ، بعد ذلك يظهر له «المَلَك» الموكل بالاتصال به فيخاطبه ويوحي إليه.

والمَلَك: خلق لا يرى بالحواس، ولكنه قادر على الاتصال بالإنس والتشكل في أي صورة شريفة، وهو ينزل من السماء ويصعد إليها بصورة عادية وبسرعة عظيمة لا يستطيع الإنسان أن يتصورها.

ولكن يمكن أن يُقرب لنا تصور هذه السرعة ما توصل إليه الإنسان في العصر الحاضر، فقد توصل الإنسان في صناعة أجهزة ترسل الصوت والصورة عبر الفضاء فتعبر القارات في لمح البصر بل وأسرع من ذلك، فتجد الإنسان يكلم الآخر بجهاز الهاتف وبينهما آلاف الأميال وكأنَّه يجلس أمامه ثم لا يسمعه الشخص الذي بجواره.

وهذا من صُنع الإنسان! فما بالك بصنع الخالق عز وجل، فالمَلَك خلق مهيَّأ لذلك العمل.

وأول ما يبدأ الاتصال فإنَّه يظهر في صورته الحقيقية أو في صورة أخرى يتحمل الإنسان رؤيته بها، فيخاطبه ويخبره أنَّه رسول الله، وأنَّ الذي يخاطبه مَلَك من ملائكة الله عز وجل، ويظهر له من الآيات والبراهين ما يدل على أنَّ الذي يخاطبه «ملك» أرسله الله عز وجل إليه ليبلغه أنَّ الله تعالى اختاره «رسولًا» له إلى قوم معينين أو إلى الناس أجمعين.. ثمَّ يوحى إليه «وحيًا» أي: كلامًا، يصبح فيما بعد «كتابًا» يشتمل على مضمون «الرسالة» التي يريد عز وجل أن يبلغها إلى الناس.

ويتم هذا خلال فترة حياة الرسول، حيث ينزل الوحي بالتدرج، وقد ينزل جملةً واحدة بحسب إرادة الله عز وجل.

صور الاتصال بين المَلك والرسول:

وأمَّا صور الاتصال بين المَلَك والرسول فليست كلها واحدة، بل تتم على أربع صور، وفي كل مرة يوحي إلى الرسول فيها أمورًا:

الصورة الأولى: أن يأتيه في النوم؛ ورؤيا الأنبياء وحي، إذ لا يستطيع الشيطان أن

يأتيهم في المنام.

الصورة الثانية: أن يأتي المَلَك في صورته التي خلقه الله عزوجل عليها وهي عظيمة جدًا.

الصورة الثالثة: أن يأتيه في صورة إنسان.

الصورة الرابعة: أن يأتيه في صورة إحساس داخلي ويصيب الرسول أثناءها نوم مدة وجيزة يفيق بعدها وهو في غاية قواه العقلية، ويخبر بما أُوحي إليه أثناء ذلك(1).

أدلة صور الوحي:

فيما يلي الأدلة الواردة في بيان تلك الصور من الوحي الذي نزل على نبينا محمد ﷺ.

من أدلة الصورة الأولى:

١- روى البخاري رحمه الله عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «أَوَّلُ ما بدئ به رسولُ الله ﷺ منَ الوَحْيِ: الرُّؤيا الصالحةُ في النَّومِ، فكانَ لا يَرى رُؤيا إلا جاءتْ مِثلَ فَلَقِ الصُّبْحِ»(2).

من أدلة الصورة الثانية:

١- قال البخاري: قال ابنُ شِهابٍ: وأخبرَني أبو سَلَمَةَ بنُ عبدِ الرَّحمنِ أنَّ جابرَ بنَ عبدِ اللهِ الأنصارِيَّ قال -وهُو يحدِّثُ عن فَتْرَةِ الْوَحْيِ عن الرسول صلى الله عليه وسلم- فقالَ في حَدِيثِه: «بَيْنا أنا أَمْشِي، إذْ سَمِعْتُ صَوْتًا منَ السماءِ، فرَفَعْتُ بَصَري فإذا المَلَك الذي جاءَني بحراء جالسٌ على كُرْسِيّ بَيْنَ السماءِ والأرض، فرعبت منه، فرَجَعْتُ فقلت: زَمِّلوني. فأنزَلَ الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥﴾ [المدثر:١-٥] فَحَمِيَ الوَحْيُ وتَتَابع»(3).

(1) يُراجع كتاب: صحيح البخاري - كتاب الوحي - وشرحه فتح الباري.

(2) رواه البخاري: [ح:٣].

(3) رواه البخاري : [ح:٣]، ومسلم :[ح:٢٥٥]

من أدلة الصورة الثالثة:

١- عن عُمَر بْن الْخَطَّابِ، قَالَ: «بَيْنَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ الله ذَاتَ يَوْمٍ، إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعَرِ، لاَ يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ، وَلاَ يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ، حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ....» إلخ الحديث[1].

٢- عن أبي عثمانَ قال: «أُنبِئْتُ أن جِبريلَ أتى النبيَّ ﷺ وعندَه أُمُّ سلَمة، فجعل يتحدَّث، فقال النبيُّ ﷺ لأمِّ سَلمةَ: من هٰذا؟ أو كما قال. قالت: هذا دِحْيَةُ. فلما قام قالت: والله ما حَسِبته إلا إياه، حتى سمعتُ خُطبةَ النبيِّ ﷺ يُخبر خَبرَ جِبريل، أو كما قال. قال أبي: قُلت لأبي عثمان: مِمن سمعتَ هذا؟ قال: من أُسامَةَ بن زيدٍ»[2].

من أدلة الصورة الرابعة:

١- عن عائشةَ رضي الله عنها: «أنَّ الحارثَ بن هِشامٍ سأَل النبيَّ ﷺ: كيفَ يأتيكَ الوَحي؟ قال: يأتيني المَلكُ أحيانًا في مثل صَلْصَلةِ الجرَس، فيَفصِمُ عني وقد وَعيت ما قال، وهوَ أشدُّه عليَّ. ويتَمثَّلُ لي الملكُ أحيانًا رجُلًا فيكلمني، فأعي ما يقول»[3].

وهذه الصور الأربع كلها كانت لنبينا محمد ﷺ.

---

(1) رواه مسلم:[ح:٥٩]..

(2) رواه البخاري:[ح:٤٨٦٠].

(3)خ::[ح٣١٤٥].

دلائل صدق النبوة

تتنوع الدلائل التي يُستدل بها على نبوة الأنبياء، فمنها ما هو من خارج ذواتهم، ومنها ما هو من داخل ذواتهم.

فأما ما هو من خارج ذواتهم فهي الآيات التي ينزلها الله ﷻ لتأييدهم وتأكيد نبوتهم وهو ما يسمى بـ(المعجزة)، إذ لا بد لكل نبي من دليل يصدق دعواه النبوة حتَّى تقوم الحجة على الناس، فقد يدَّعي النبوة أصدق الصادقين، وقد يدَّعيها أكذب الكاذبين، فلابد من دلائل تدل على صدق مدَّعي النبوة الصادقة.

وهذه الدلائل يجب أن تكون مما يعجز البشر عن الإتيان بمثلها لئلا يختلط على الناس الأنبياء الصادقون والمتنبئون الكاذبون.

وأما ما هو من داخل ذواتهم فهو الحال الذي يكون عليه النبي قبل البعثة من العصمة عن سفاسف الأمور ودنايا الأخلاق، ثم ما يكون عليه بعد البعثة من سمو الأخلاق، وعفة النفس، ووضوح المواقف، وكرم التعامل، والالتزام بما يدعو الناس إليه من مبادئ.

وفيما يلي بيان لتلك الأنواع من الدلائل:

أنواع دلائل صدق النبوة:

النوع الأول: هو أعظم الدلائل التي يظهرها الله ﷻ على يدي الأنبياء هي: «الآية» التي يتحدى بها الناس، وهي ما اصطلح على تسميتها باسم: (المعجزة)، وذلك لعجز الناس عن الإتيان بمثلها، وهي الآية على صدق نبواتهم.

النوع الثاني: ثمَّ قد يوجد في الرسالات السابقة البشارة بالنبوة اللاحقة كما في نبوة نبينا محمد عليه الصلاة والسلام.

النوع الثالث: حفظ النبي في أخلاقه وسلوكه قبل البعثة.

النوع الرابع:**استقامة** حياته بعد بعثه بالنبوة بحيث تكون حياته حياة فاضلة تدل على أنَّه صاحب عقيدة ورسالة، يلتزم بعقيدته ورسالته لا صاحب رئاسة وشهوات.

النوع الخامس: ثمَّ موضوع الرسالة وهي القضايا الدينية والدنيوية التي يشتمل عليها الدين الذي يأتي به النبي.

وهذه الدلائل المذكورة قد توافرت جميعها في نبينا محمد صلوات الله وسلامه عليه، ونعتقد أن جميع الأنبياء قد توافرت فيهم؛ لكن إثباتها بالنسبة لغير نبينا غير متيسرٍ لنا ماعدا النوع الأول الذي هو: (الآيات) أو: (المعجزات) وهي الآيات، وهو الآية العظمى الدالة على صدق النبوة، فقد ورد في القرآن الكريم جملة من تلك الآيات التي أظهرها الله عزَّ وجلَّ على أيدي الأنبياء.

وفيما يلي عرض لبعض تلك الآيات.

النوع الأول: الآيات المعجزة التي أظهرها الله عزَّ وجلَّ على أيدي الأنبياء:

أخبر نبينا محمد ﷺ أن الله عزَّ وجلَّ يظهر -كما أشرت سابقًا- على يدي كل نبي آية تبين صحة دعواه النبوة وهي: (المعجزة).

فقد روى أبو هريرة رضي الله عنه: عنِ النبي ﷺ أنه قال: «ما مِنَ الأنبياءِ نبيٌّ إلاّ أُعطِيَ منَ الآيات ما مثلهُ أُومِن – أو آمن – عليهِ البشر، وإنما كان الذي أُوتيتُهُ وَحْيًا أَوحاهُ الله إليَّ،

فأرجو أَني أكثَرُهم تابعًا يومَ القيامة»[1].

فذكر ﷺ أن الله ﷻ أعطى كل نبي آية تصدق نبوته وتكون سببًا لإيمان البشر في زمنه.

فقد قال ابن حجر ﵀ وهو يبين معنى هذا الحديث:

(كل نبي أعطي معجزة خاصة به لم يعطها بعينها غيره - أي من الأنبياء- تحدى بها قومه، وكانت معجزة كل نبي تقع مناسبة لحال قومه، كما كان السحر فاشيًا عند فرعون، فجاءه موسى بالعصا على صورة ما يصنع السحرة لكنها تلقفت ما صنعوا، ولم يقع ذلك بعينه لغيره.

وكذلك: إحياء عيسى الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص لكون الأطباء والحكماء كانوا في ذلك الزمان في غاية الظهور، فأتاهم من جنس عملهم بما لم تصل قدرتهم إليه.

ولهذا لما كان العرب الذين بعث فيهم النبي ﷺ في الغاية من البلاغة جاءهم بالقرآن الذي تحداهم أن يأتوا بسورة مثله فلم يقدروا على ذلك.... إلى أن قال:

ومعجزة القرآن مستمرة إلى يوم القيامة، وخرقه للعادة في أسلوبه وبلاغته، وإخباره بالمغيبات، فلا يمر عصر من الأعصار إلا ويظهر فيه شيء مما أخبر به أنه سيكون، يدل على صحة دعواه)[2].

وقد قال نحو ذلك ابن كثير ﵀[3].

---

(1) رواه البخاري: (ح:٧١١٢) ومسلم: (ح:٣٤٠).

(2) فتح الباري: (١٠/ ٣).

(3) في البداية والنهاية:(١/ ٧٨).

وقد ذكر الله ﷻ نماذج من تلك الآيات في القرآن الكريم نكتفي بذكر نموذجين هما: آية موسى وآية عيسى عليهما السلام، ثم نورد الآية التي جاء بها نبينا محمد ﷺ.

أولاً: آية موسى عليه السلام:

آية موسى عليه السلام كانت من جنس ما برع فيه المصريون، وذلك أنَّهم قد انتشر فيهم السحر وتنوَّع حتَّى اشتهر به ذلك المجتمع كما ذكره ابن كثير وابن حجر كما تقدم.

فأعطى الله ﷻ موسى عليه السلام «العصا»، فإذا ألقاها إذا هي حيةٌ عظيمة على نحو ما كان يفعله السحرة في عصره، لكن شتَّان بين ما يفعلونه وبين العصا، فإنَّ ما يفعلونه لا حقيقة له، وإنَّما هو تخييل، وما يفعله موسى عليه السلام حقيقة، فكان سببًا لاعتراف السحرة بأنَّ ما جاء به موسى عليه السلام ليس سحرًا، فآمنوا به رغم تهديد فرعون لهم بالقتل والصلب على جذوع النخل.

قال الله تعالى:

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن

نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُواْ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾ [الأعراف:١٠٣-١٢٦].

ثانيًا: آية عيسى عليه السلام:

آية عيسى عليه السلام كانت من جنس ما برع فيه قومه، حيث إنَّ قومه قد انتشر فيهم علم الطب، وترقَّوا في معرفته حتَّى لا يكاد يستعصي عليهم إلا أمراض يسيرة.

فلمَّا جاء عيسى عليه السلام كانت آيته أنَّه يحيى الموتى، ويبرئ الأكمه -وهو الذي ولد أعمى- ويبرئ الأبرص، وهي أمراض استعصت على الطب قديمًا وحديثًا، فعرف قومه أنَّ ما يفعله ليس من جنس الطب الذي يعرفون، وأنَّه فوق طاقة البشر، فهو إذن من رب البشر عز وجل.

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ

وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٌۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيۡكُمۡۚ وَجِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴿٥١﴾﴾ [آل عمران ٤٤-٥١].

ثالثًا: آية نبينا محمد عليه الصلاة والسلام:

بعث نبينا محمد ﷺ وكان لابد أن يأتي بآيةٍ كما جاء بها إخوانه الأنبياء من قبل تدل على أنَّه رسول من الله عزوجل، فجاء بآية عقلية هي: «القرآن الكريم» لأن رسالته دائمة خالدة إلى قيام الساعة، فناسب أن يأتي بآية عقلية تخاطب الناس إلى قيام الساعة.

قال تعالى:

﴿ وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَٰتٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحۡمَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ [العنكبوت:٥١].

قال الرازي رحمه الله: (وهذا لأن القرآن معجزة أتم من كل معجزة تقدمتها لوجوه:

أحدها: أن تلك المعجزات وجدت وما دامت، فإن قلب العصا ثعبانًا وإحياء الميت لم يبق لنا منه أثر... -وأضاف كلامًا مفاده:أنه لو أنكرها شخص ممن لم ير تلك المعجزات

لم يمكن إقناعه بوقوعها لأنها وقعت وانتهت.

ثم قال: وأما القرآن فهو باق لو أنكره واحد فنقول له: فأت بآية من مثله.

الثاني: هو أن قلب العصا ثعبانًا كان في مكان واحد ولم يره من لم يكن في ذلك المكان، وأما القرآن فقد وصل إلى المشرق والمغرب وسمعه كل أحد)[1].

وفيما يلي تعريف بهذا الكتاب العظيم.

التعريف بالقرآن العظيم وكيفية نزوله:

أولاً: القرآن الكريم:

القرآن هو كلام الله ﷻ أنزله على رسوله محمد ﷺ مفرقًا خلال ثلاث وعشرين سنة.

والقرآن الكريم يشتمل على مائة وأربع عشرة سورة كل سورة بها آيات عدة، وبعض السور بها مئات من الآيات، وبعضها بها ثلاث آيات.

والآية هي جملة مكونة من عدة كلمات، وهي تدل بمفردها على معنى مستقل، وتدل مع غيرها على موضوع واحد.

وقد اشتمل القرآن الكريم على جميع مسائل الدين، فهو الدين الذي أنزله الله ﷿، وهو الدليل على صدق نبوة محمد ﷺ.

ثانيًا: نزول الوحي:

هذا القرآن كان ينزل على النبي ﷺ «وحيًا» عن طريق «ملك» هو «جبريل ؈».

ولَمَّا بلغ ﷺ سن الأربعين وهو السن الذي يكتمل فيه عقل الإنسان وبدنه، كان يرى في النوم أنَّه رسول الله، ومكث معه ذلك ستة أشهر، وكان في هذه المدة يرى الشيء في

(1) تفسير الرازي: (٢٥: ٦٨).

النوم فيتحقق في اليقظة ويقع كما رآه.. وذلك لتأنيسه وإعداده.

وفيما يلي نورد طرفًا من الروايات التي تبين تلك البدايات:

١ ـ سنه عند البعثة:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ: (بعث على رأس أربعين سنة...)[1].

٢ ـ بداية الوحي:

عن عائشةَ أمِّ المُؤمنينَ رضي الله عنها: قالتْ: (أَوَّلُ ما بُدِئَ به رسولُ الله ﷺ منَ الوَحْيِ: الرُّؤيا الصالحةُ في النَّومِ، فكانَ لا يَرى رُؤيا إلا جاءتْ مِثلَ فَلَقِ الصُّبْحِ)[2].

٣ ـ خطاب الحجارة له ﷺ:

وقد كان ﷺ يسمع الحجارة تتكلم إذا مرَّ بها وتسلِّم عليه وتقول: السلام عليك يا رسول الله.

عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنِّي لَأَعْرِفُ حَجَرًا بِمَكَّةَ كَانَ يُسَلِّمُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُبْعَثَ إِنِّي لَأَعْرِفُهُ الْآنَ»[3].

٤ ـ ظهور الملك له للمرة الأولى:

ثمَّ بعد ذلك ظهر «المَلَك» جبريل عليه السلام للنبي ﷺ في غار في جبل اسمه «غار حراء»[4] فقال له: «اقرأ» فاعتذر بأنَّه لا يعرف القراءة، فغطه - أي ضمه بشدة- ثلاث مرات ثمَّ قال له بعدها: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ

(1) رواه البخاري: (ح: ٣٩٠٢) ومسلم: (ح: ٦٠٤٢).

(2) رواه البخاري: (ح: ٣).

(3) رواه مسلم: (ح:٥٨٩٢).

(4) مكان في رأس جبل خارج مكة -آنذاك- كان يأتي إليه قبل نزول الوحي ينقطع عن الناس فيه.

ٱلۡأَكۡرَمُ ۝ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝﴾ [العلق:١-٥].

فحفظها ونزل من الجبل مذعورًا خائفًا لهول ما رأى وسمع، فرجع إلى زوجته خديجة ﵂ فأخبرها الخبر، فطمأنته وهوّنت عليه وقالت له: لا تخف! وذكرته بما يتمتَّع به من الصفات الفاضلة، وأنَّ مثله لا يخذله الله ﷿ بل يكرمه، فهي ترى فيه صفات الكمال التي يحبها الله ﷿، ومن كان كذلك فإنَّ الله ﷿ لا يتركه للشياطين.

ثمَّ إنَّها أخذته وذهبت به إلى ابن عمٍّ لها كبير في السن يُقال له: (ورقة بن نوفل) وكان نصرانيًا، وعنده علم من الكتاب، فأخبرته الخبر، فسأله عمَّا رأى فأخبره فقال له: هذا الناموس الذي أنزل الله على موسى، يا ليتني أكون حيًا إذ يخرجك قومك.

فقال النبي ﷺ: (أو مخرجيّ هم؟) قال: نعم. لم يأتِ رجلٌ قط بمثل ما جئت به إلا عُودي، وإن يدركني يومك حيًا أنصرك نصرًا مؤزرًا، ثمَّ لم ينشب ورقة أن توفي)[(١)].

٥ - مجيء الملك له في صورة أخرى:

ثمَّ بعد مدة وجيزة كان ﷺ يمشي في الطريق فسمع صوتًا من السماء فرفع رأسه فإذا جبريل - وهو الملك الذي جاءه في الغار - جالس على كرسي بين السماء والأرض، فأصابه خوفٌ شديد سقط على إثره على الأرض، ثمَّ رجع إلى بيته وقال لهم: دثروني دثروني -أي: غطوني غطوني- وذلك لشدة الخوف الذي أصابه ببرد شديد[(٢)].

هذه صورة من صور الوحي، ثمَّ إنَّه بعد ذلك كان يأتيه في صورة رجل، أو يأتيه ولا يراه ولكنَّه يحدث له إغماء ويوحي إليه بآيات من القرآن، ثمَّ يفيق وقد حفظ ما ألقى عليه

(1) رواه البخاري (ح: ٦٩٨٢)، ومسلم (ح:١٦٠).

(2) رواه البخاري (ح: ٤٩٢٥)، ومسلم (ح: ١٦١).

فيقرأه على أصحابه.

هذه الآيات التي كانت تنزل عليه ﷺ تكوَّن منها مائة وأربع عشرة سورة اشتملت على أكثر من ستة آلاف آية، وذلك خلال ثلاث وعشرين سنة، وكان النبي ﷺ يحفظها عن ظهر قلب، ويقرأ بها في الصلوات قراءةً جهرية وأصحابه يصلون خلفه.

ثمَّ إنَّ الصحابة منهم من يحفظه بكامله، ومنهم من يحفظ بعضه.

ثمَّ استمرت العناية بالقرآن حفظًا ودراسةً وتعليمًا، ولايكاد يوجد مدينة ولاقرية إلا وفيها من يحفظه وبأعداد كبيرة من الرجال والنساء والأطفال في كل عصر إلى يومنا هذا.

هذا هو القرآن وهذه هي الطريقة التي نزل بها على نبينا محمدٍ ﷺ.

وفيما يلي بيان الأوجه الدالة على أن هذا القرآن من عند الله ﷿ من خلال استقراء القرآن نفسه.

أوجه الدلالة في القرآن الكريم على أنَّه من عند الله عز وجل

لقد اشتمل القرآن الكريم على عشرات الأوجه التي تؤكد أنه من عند الله ﷻ وفيما يلي عرض لجملة من تلك الدلائل:

الوجه الأول: الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم:

لقد كان من تدبير الله ﷻ وإعداده لنزول هذه الآية العظيمة ؛ أنَّه سبحانه مهَّد لذلك بأن رعى اللغة العربية التي ستنزل بها هذه الآية حتَّى بلغت عند بعثته ﷺ درجة الكمال.

فقد اعتنى العرب باللغة عنايةً فائقة حتَّى كانت تعقد لها الأسواق، ويلتقي فيها الشعراء والخطباء من كل مكان، وتُلقى القصائد الشعرية، والخطب النثرية على مسمع من الجموع وتحكم من قبل بلغائهم ثم تعلق القصائد الفائزة على أعظم مكان وهو «الكعبة» حيث عُلِّقت على بابها سبع قصائد بعد أن حازت على رضا الجميع.

قال ابن كثير:(وذكروا أن المعلقات السبع كانت معلقة بالكعبة، وذلك أن العرب كانوا إذا عمل أحدهم قصيدة عرضها على قريش فإن أجازوها علقوها على الكعبة تعظيمًا لشأنها، فاجتمع من ذلك هذه المعلقات السبع)[1].

وقال القنوجي: (اعلم: أن الشعر كان ديوانًا للعرب، فيه علومهم، وأخبارهم، وحِكَمهم؛ وكان رؤساء العرب منافسين فيه، وكانوا يقفون بسوق عكاظ لإنشاده،

---

(1) البداية والنهاية: (١/ ٢١٨).

وعرض كل واحد منهم ديباجته على فحول الشأن، وأهل البصر، لتمييز حَوْلِه، حتى انتهوا إلى المناغاة في تعليق أشعارهم بأركان البيت الحرام، موضع حجهم، وبيت إبراهيم، كما فعل امرؤ القيس بن حجر، والنابغة الذبياني، وزهير بن أبي سلمى، وعنترة بن شداد، وطرفة بن العبد، وعلقمة بن عبدة، والأعشى، وغيرهم من أصحاب المعلقات السبع) [١].

وقد نمت مفردات العربية وتنوَّعت كلماتها للمعنى الواحد حتَّى كانت عشرات الكلمات تُطلَق على معنى واحد مع تنوُّع الدلالة، وكذلك العكس، فإنَّ الكلمة الواحدة أحيانًا تُطلَق على أكثر من معنى، والسياق يدل على المراد.

ولهذا فإنَّ نزول الوحي بالعربية قد سبقه تهيئة من الله ﷻ منزِّل القرآن الكريم بهذه اللغة، وقد بلغت أوج كمالها عند نزوله، فكان أهلها مهيئين لمعرفة مصدر هذا القرآن: هل هو من كلام البشر المعروفة أساليبهم وطرائق تفكيرهم، وقضاياهم التي يفكرون بها، أم أنَّه يخالف ذلك كله في جمال أسلوبه وفصاحة كلماته، وبلاغة عباراته؟

قال الأزهري: (نزلَ القرآنُ الكريمُ والمخاطَبون به قومٌ عرب، أولو بيانٍ فاضلٍ، وفهمٍ بارع، أنزله جلّ ذكره بلسانهم، وصيغة كلامهم الذي نُشِّئوا عليه، وجُبِلوا على النطق به، فتدَرّبوا به يعرفون وجوه خطابه، ويفهمون فنون نظامه، ولا يحتاجون إلى تعلُّم مشكله وغريب ألفاظه حاجةَ المولدين الناشئين فيمن لا يعلم لسانَ العرب حتى يُعلَّمَه، ولا يفهم ضروبه وأمثاله، وطرقه وأساليبه، حتّى يُفَهَّمَها)[٢].

وجاء القرآن بأسلوب لم تعهده العرب، فقد عهدت العرب أنَّ الكلام قسمان: نثر

(1) أبجد العلوم: الباب السادس.

(2) تهذيب اللغة: المقدمة.

وشعر، وتحت كل قسم منهما أنواع من الكلام، ولكن القرآن الكريم جاء بأسلوب باهر جمع محاسن الأساليب.

فالكلمات هي كلمات العرب، والحروف هي الحروف، ولكن الإعجاز في اختيار المفردات المعبرة عن المعنى المراد، واختيار المفردات المصاحبة لها في السياق وهو ما يسمى: بالنظم والتأليف، ولهذا لو نزعت كلمة من مكانها ثمَّ حاول الإنسان أن يضع بدلها كلمة أخرى لما كانت في درجة الأولى وجمالها.

ولَمَّا سمعت العرب هذا القرآن لأول وهلة زعموا أنهم يستطيعون أن يقولوا مثله، فتحداهم القرآن أن يقولوا مثله، وأكَّد لهم أنَّ البشر لا يستطيعون أن يقولوا مثله، ولا مثل عشر سورٍ منه، بل ولا مثل سورةٍ واحدة منه.

قال تعالى عنهم: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [الأنفال:٣١].

قال الطبري:(يقول تعالى ذكره: وإذا تتلى على هؤلاء الذين كفروا آيات كتاب الله الواضحة لمن شرح الله صدره لَفَهِمَه، قالوا جهلًا منهم وعنادًا للحقّ وهم يعلمون أنهم كاذبون في قيلهم: ﴿ لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [الأنفال:٣١]: يعني أنهم يقولون ما هذا القرآن الذي يتلى عليهم إلاَّ أساطير الأوّلين. والأساطير: جمع أسطر، وهو جمع الجمع، لأن واحد الأسطر: سطر، ثم يجمع السطر: أسطر وسطور، ثم يجمع الأسطر: أساطير وأساطر. وقد كان بعض أهل العربية يقول: واحد الأساطير: أسطورة.

وإنما عَنى المشركون بقولهم: ﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [الأنفال:٣١]: إن

هذا القرآن الذي تتلوه علينا يا محمد إلاَّ ما سطر الأوّلون وكتبوه من أخبار الأمم. كأنهم أضافوه إلى أنه أُخذ عن بني آدم، وأنه لم يوحه الله إليه.)

٢- لما زعموا أنهم قادرون على أن يقولوا مثله تحداهم الله عز وجل فقال: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَـٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الطور:٣٤].

قال الطبري: (وقوله: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ﴾ [الطور:٣٣] يقول تعالى ذكره: أم يقول هؤلاء المشركون: تقوّل محمد هذا القرآن وتخلَّقه.

وقوله: ﴿ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الطور:٣٣] يقول جلّ ثناؤه: كَذَبوا فيما قالوا من ذلك، بل لا يؤمنون فيصدّقوا بالحقّ الذي جاءهم من عند ربهم.

وقوله: ﴿ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ ﴾ [الطور:٣٤] يقول جلّ ثناؤه: فليأت قائلو ذلك له من المشركين بقرآن مثله، فإنهم من أهل لسان محمد ﷺ، ولن يتعذّر عليهم أن يأتوا من ذلك بمثل الذي أتى به محمد ﷺ إن كانوا صادقين في أن محمدًا ﷺ تقوّله وتخلَّقه) [١].

وقال ابن عاشور: (ولما كانت مقالتهم هذه طعنًا في القرآن وهو المعجزة القائمة على صدق رسالة محمد ﷺ، وكانت دعواهم: أنه تقوّل على الله من تلقاء نفسه، قد تروج على الدهماء؛ تصدى القرآن لبيان إبطالها بأن تحداهم بأن يأتوا بمثل هذا القرآن بقوله: ﴿ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَـٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الطور:٣٤] أي: صادقين في أن محمدًا ﷺ تقوله من تلقاء نفسه، أي: فعجزهم عن أن يأتوا بمثله دليل على أنهم كاذبون.

ووجه الملازمة: أن محمدًا ﷺ أحد العرب وهو ينطق بلسانهم، فالمساواة بينه وبينهم في المقدرة على نظم الكلام ثابتة، فلو كان القرآن قد قاله محمد ﷺ لكان بعض خاصة

---

(1) تفسير الطبري: (٢٧/ ١٩).

العرب البلغاء قادرًا على تأليف مثله، فلما تحدّاهم الله بأن يأتوا بمثل القرآن وفيهم بلغاؤهم وشعراؤهم وكَلَمَتُهم وكلهم واحد في الكفر، كان عجزهم عن الإتيان بمثل القرآن دالًا على عجز البشر عن الإتيان بالقرآن، ولذلك قال تعالى في سورة هود: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ ﴾ [هود:١٤].

وكما قال تعالى: ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأنعام:٣٣].

والإتيان بالشيء: إحضاره من مكان آخر. واختير هذا الفعل دون نحو: فليقولوا مثلَه ونحوه، لقصد الإعذار لهم بأن يُقتنع منهم بجلب كلام مثله ولو من أحد غيرهم...

أي: فليأتوا بكلام مثله، أي في غرض من الأغراض التي يشتمل عليها القرآن لا خصوص الأخبار.

ويجوز أن يكون الحديث هنا أُطلق على الأخبار، أي: فليأتوا بأخبار مثل قصص القرآن فيكون استنزالًا لهم؛ فإن التكلم بالأخبار أسهل على المتكلم من ابتكار الأغراض التي يتكلم فيها، فإنهم كانوا يقولون: إن القرآن أساطير الأولين، -أي: أخبار عن الأمم الماضية- فقيل لهم: فليأتوا بأخبار مثل أخباره، لأن الإتيان بمثل ما في القرآن من المعارف والشرائع والدلائل لا قِبَل لعقولهم به، وقصاراهم أن يفهموا ذلك إذا سمعوه.

ومعنى المثلية في قوله: (مثله) المثلية في فصاحته وبلاغته، وهي خصوصيات يدركونها إذا سمعوها، ولا تحيط قرائحهم بإيداعها في كلامهم)[1].

---

(1) التحرير والتنوير (١/ ٤١٧٥).

٣- قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [يونس:٣٨].

قال الطبري: (يقول لهم جلّ ثناؤه: ما كان هذا القرآن ليختلقه أحد من عند غير الله، لأن ذلك لا يقدر عليه أحد من الخلق.

﴿ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ [يونس:٣٧] يقول تعالى ذكره: ولكنه من عند الله أنزله مصدّقًا لما بين يديه. أي: لما قبله من الكتب التي أنزلت على أنبياء الله كالتوراة والإنجيل وغيرهما من كتب الله التي أنزلها على أنبيائه.

﴿ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ [يونس:٣٧] يقول: وتبيان الكتاب الذي كتبه الله على أمة محمد ﷺ، وفرائضه التي فرضها عليهم في السابق من علمه.

﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ [يونس:٣٧] يقول: لا شكّ فيه أنه تصديق الذي بين يديه من الكتاب، وتفصيل الكتاب من عند ربّ العالمين لا افتراء من عند غيره ولا اختلاق...) إلى أن قال رحمه الله: (يقول تعالى ذكره: أم يقول هؤلاء المشركون: افترى محمد هذا القرآن من نفسه، فاختلقه وافتعله. قل يا محمد لهم: إن كان كما تقولون: إني اختلقته وافتريته، فإنكم مثلي من العرب، ولساني وكلامي مثل لسانكم، فجيئوا بسورة مثل هذا القرآن)[1].

وقد أطال الرازي رحمه الله هنا بكلام نفيس يحسن الوقوف عليه نجتزئ بعضه.

قال رحمه الله: (فيه مسائل:

---

(1) تفسير الطبري: (٢/ ١١٨).

المسألة الأولى: اعلم أنا حين شرعنا في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ [يونس:٢٠] ذكرنا أن القوم إنما ذكروا ذلك لاعتقادهم أن القرآن ليس بمعجز، وأن محمدًا إنما يأتي به من عند نفسه على سبيل الافتعال والاختلاق، ثم إنه تعالى ذكر الجوابات الكثيرة عن هذا الكلام، وامتدت تلك البيانات على الترتيب الذي شرحناه وفصلناه إلى هذا الموضع.

ثم إنه تعالى بين في هذا المقام أن إتيان محمد ﷺ بهذا القرآن ليس على سبيل الافتراء على الله تعالى، ولكنه وحي نازل عليه من عند الله، ثم إنه تعالى احتج على صحة هذا الكلام بقوله: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ ﴾ [يونس:٣٨] وذلك يدل على أنه معجز نازل عليه من عند الله تعالى، وأنه مبرأ عن الافتراء والافتعال، فهذا هو الترتيب الصحيح في نظم هذه الآيات.

المسألة الثانية: قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ ﴾ [يونس:٣٧] فيه وجهان:

الأول: أن قوله: ﴿ أَن يُفْتَرَىٰ ﴾ [يونس:٣٧] في تقدير المصدر، والمعنى: وما كان هذا القرآن افتراء من دون الله، كما تقول: ما كان هذا الكلام إلا كذبًا.

والثاني: أن يقال: إن كلمة (أن) جاءت ههنا بمعنى اللام، والتقدير: ما كان هذا القرآن ليفترى من دون الله، كقوله: ﴿ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ﴾ [التوبة:١٢٢].. ﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ ﴾ [آل عمران:١٧٩] أي: لم يكن ينبغي لهم أن يفعلوا ذلك، فكذلك ما ينبغي لهذا القرآن أن يفترى، أي: ليس وصفه وصف شيء يمكن أن يفترى به على الله، لأن المفترى هو الذي يأتي به البشر، والقرآن معجز لا يقدر عليه البشر، والافتراء: افتعال

من فريت الأديم: إذا قدرته للقطع، ثم استعمل في الكذب كما استعمل قولهم: اختلق فلان هذا الحديث في الكذب، فصار حاصل هذا الكلام: أن هذا القرآن لا يقدر عليه أحد إلا الله ﷻ، ثم إنه تعالى احتج على هذه الدعوى بأمور:

الحجة الأولى: قوله: ﴿ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِى بَيۡنَ يَدَيۡهِ ﴾ [يونس:٣٧] وتقرير هذه الحجة من وجوه:

أحدها: أن محمدًا عليه السلام كان رجلًا أميًا ما سافر إلى بلدة لأجل التعلم، وما كانت مكة بلدة العلماء، وما كان فيها شيء من كتب العلم، ثم إنه عليه السلام أتى بهذا القرآن، فكان هذا القرآن مشتملًا على أقاصيص الأولين، والقوم كانوا في غاية العداوة له، فلو لم تكن هذه الأقاصيص موافقة لما في التوراة والإنجيل لقدحوا فيه ولبالغوا في الطعن فيه، ولقالوا له: إنك جئت بهذه الأقاصيص لا كما ينبغي، فلما لم يقل أحد ذلك مع شدة حرصهم على الطعن فيه، وعلى تقبيح صورته، علمنا أنه أتى بتلك الأقاصيص مطابقة لما في التوراة والإنجيل، مع أنه ما طالعهما ولا تتلمذ لأحد فيهما، وذلك يدل على أنه عليه السلام إنما أخبر عن هذه الأشياء بوحي من قبل الله تعالى...

الحجة الثانية: أن كتب الله المنزلة دلت على مقدم محمد عليه السلام، على ما استقصينا في تقريره في سورة البقرة في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِىٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ ﴾ [البقرة:٤٠] وإذا كان الأمر كذلك كان مجيء محمد عليه السلام تصديقًا لما في تلك الكتب من البشارة بمجيئه ﷺ، فكان هذا عبارة عن تصديق الذي بين يديه.

الحجة الثالثة: أنه عليه السلام أخبر في القرآن عن الغيوب الكثيرة في المستقبل، ووقعت مطابقة لذلك الخبر.

ثم استطرد رحمه في بيان الأوجه الأخرى في الآية[1].

ثمَّ إنَّ الله ﷻ تحدَّاهم أن يأتوا بمثله أو بمثل عشر سور، أو بمثل سورةٍ واحدة، فعجزوا عن ذلك.

٤ – قال تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ [الإسراء:٨٨].

٥ – وقال تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ [هود:١٣].

٦– وقال تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [البقرة:٢٤].

ونكتفي بإيراد أقوال بعض المفسرين للآية الأخيرة لدلالتها على ما سواها:

قال الطبري:

(قال الله جل ثناؤه: وإن كنتم أيها المشركون من العرب والكفار من أهل الكتابين في شكّ –وهو الريب– مما نزّلنا على عبدنا محمد ﷺ من النور والبرهان، وآيات الفرقان أنه من عندي، وأني الذي أنزلته إليه، فلم تؤمنوا به، ولم تصدّقوه فيما يقول، فأتوا بحجة تدفع حجته؛ لأنكم تعلمون أن حجة كل ذي نبوّة على صدقه في دعواه النبوّة أن يأتي ببرهان يعجز عن أن يأتي بمثله جميع الخلق، ومن حجة محمد ﷺ على صدقه وبرهانه على نبوّته، وأن ما جاء به من عندي، عَجْزُ جميعكم وجميع من تستعينون به من أعوانكم وأنصاركم عن أن تأتوا بسورة من مثله.

(1) تفسير الرازي: (١٧/ ٨٠–٨٢).

وإذا عجزتم عن ذلك، وأنتم أهل البراعة في الفصاحة والبلاغة والذرابة، فقد علمتم أن غيركم عما عجزتم عنه من ذلك أعجز، كما كان برهان من سلف من رسلي وأنبيائي على صدقه وحجته على نبوّته من الآيات ما يعجز عن الإتيان بمثله جميع خلقي.

فيتقرّر حينئذ عندكم أن محمدًا لم يتقوّله ولم يختلقه، لأن ذلك لو كان منه اختلاقًا وتقوُّلًا لم يعجز جميع الخلق عن الإتيان بمثله، لأن محمدًا ﷺ لم يعد أن يكون بشرًا مثلكم، وفي مثل حالكم في الجسم وبسطة الخلق، وذرابة اللسان، فيمكن أن يظن به اقتدار على ما عجزتم عنه، أو يتوهم منكم عجز عما اقتدر عليه)[1].

وقال ابن عاشور في سبب عجزهم عن أن يأتوا بما يعارض القرآن:

(وجه ذلك: أن القرآن قد اشتطت ألفاظه ومعانيه على ما لو تدبره العقل السليم لجزم بكونه من عند الله تعالى، فإنه جاء على فصاحة وبلاغة ما عهدوا مثلهما من فحول بلغائهم، وهم فيهم متوافرون متكاثرون، حتى لقد سجد بعضهم لبلاغته واعترف بعضهم بأنه ليس بكلام بشر.

وقد اشتمل من المعاني على ما لم يطرقه شعراؤهم وخطباؤهم وحكماؤهم، بل وعلى ما لم يبلغ إلى بعضه علماء الأمم.

ولم يزل العلم في طول الزمان يظهر خبايا القرآن، ويبرهن على صدق كونه من عند الله، فهذه الصفات كافية لهم في إدراك ذلك وهم أهل العقول الراجحة والفطنة الواضحة التي دلت عليها أشعارهم وأخبارهم، وبداهتهم ومناظرتهم)[2].

وبهذا تبيَّن أنَّ هذا الكلام هو كلام الله ﷻ، وأنَّ جميع البشر لا يستطيعون أن يقولوا

(1) تفسير الطبري (١/ ١٢٨).

(2) التحرير والتنوير: (١/ ١٩٦).

مثله، فإذا عجز أرباب الفصاحة والبيان عند نزول القرآن فغيرهم من باب أولى.

الوجه الثاني: تأثير القرآن في النفس الإنسانية:

للقرآن الكريم تأثير عجيب في نفس قارئه وسامعه، وقد كان السبب المباشر لإسلام من أسلم من العرب، فإنَّ الإنسان يشعر بإحساس خاص وهو يستمع إلى قراءة القرآن، وخاصةً الذين يتذوقون الكلام ويدركون جمال عبارته وقوة أسلوبه، وفصاحة كلماته، وبلاغة عباراته.

قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الزمر:٢٣]

قال ابن عاشور وهو يبين معاني هذه الآية بعد أن ذكر عدة صفات للقرآن:

(**الصفة الخامسة**: أنه تقشعر منه جلود الذين يخشَون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم، وهذا الوصف مرتب على الوصف قبله، وهو كون القرآن مثاني، أي: مثنَّى الأغراض، وهو مشتمل على ثلاث جهات:

أولاها: وصف القرآن بالجلالة والروعة في قلوب سامعيه، وذلك لما في آياته الكثيرة من الموعظة التي تَوْجَل منها القلوب، وهو وصف كمال؛ لأنه من آثار قوة تأثير كلامه في النفوس، ولم يزل شأن أهل الخطابة والحكمة الحرصَ على تحصيل المقصود من كلامهم؛ لأن الكلام إنما يواجه به السامعون لحصول فوائد مرْجوة من العمل به، وما تبارى الخطباء والبلغاء في ميادين القول إلا للتسابق إلى غايات الإقناع...

وقد اقتضى قوله: ﴿ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ﴾ [الزمر:٢٣] أن القرآن

يشتمل على معان تقشعر منها الجلود، وهي المعاني الموسومة بالجَزالة التي تثير في النفوس روعة وجلالة ورهبة تبعث على امتثال السامعين له، وعملهم بما يتلقونه من قوارع القرآن وزواجره، وكنّي عن ذلك بحالةٍ تقارِنُ انفعال الخشية والرهبة في النفس؛ لأن الإنسان إذا ارتاع وخشي اقشعرّ جِلده من أثر الانفعال الرهبني، فمعنى: ﴿ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ ﴾ [الزمر:٢٣] تقشعر من سماعه وفهمه، فإن السماع والفهم يومئذٍ متقارنان؛ لأن السامعين أهل اللسان. يقال: اقشعر الجلد: إذا تقبض تقبضًا شديدًا كالذي يحصل عند شدة برد الجسد ورعدته. يقال: اقشعر جلده: إذا سمع أو رأى ما يثير انزعاجه ورَوعه، فاقشعرار الجلود كناية عن وجل القلوب الذي تلزمه قشعريرة في الجلد غالبًا)[1].

ولشدة تأثيره في نفوس قريش فقد كانوا يتواصون بأن لا يسمعوا لقراءته.

قال تعالى عن كفار قريش:

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [فصلت:٢٧]، ويظهر هذا التأثير عمليًا لمن يريد أن يدرك ذلك التأثير بنفسه، فما عليه إلاَّ أن يستمع لقراءته من قارئ، أو من شريط مسجل عليه قرآن ليرى العجب الذي يؤكد له أنَّ هذا الكلام هو كلام الله عز وجل.

قال الخطابي رحمه الله وهويتحدث عن تأثير القرآن في نفس سامعيه:

(فإنَّك لا تسمع كلامًا غير القرآن منظومًا ولا منثورًا إذا قرع السمع خلص له إلى القلب من اللذة والحلاوة في حال، ومن الروعة والمهابة في أخرى، ما يخلص منه إليه.

---

(1) التحرير والتنوير: (١/ ٣٦٨٧).

تستبشر به النفوس، وتنشرح له الصدور، حتَّى إذا أخذت حظها منه عادت مرتاعة قد عراها الوجيب والقلق، وتغشاها الخوف والفرق.. تقشعر منه الجلود، وتنزعج له القلوب.. يحول بين النفس وبين مضمراتها وعقائدها الراسخة.

فكم من عدوٍ للرسول ﷺ من رجال العرب وفتَّاكها أقبلوا يريدون اغتياله وقتله، فسمعوا آيات القرآن فلم يلبثوا حين وقعت في مسامعهم أن يتحولوا عن رأيهم، وأن يركنوا إلى مسالمته، ويدخلوا في دينه، وصارت عداوتهم موالاةً وكفرهم إيمانًا)[1].

وأشار القاضي عياض إلى ذلك الإعجاز فقال: (الروعة التي تلحق قلوب سامعيه عند سماعه، والهيبةَ التي تعتريهم عند تلاوته لعلوّ مرتبته على كل كلام من شأنه أن يهابه سامعه، قال تعالى: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الحشر:٢١][2].

فهذا التأثير في النفوس الذي تميز به القرآن عن كلام البشر يؤكد أنه من عند الله عز وجل وحده.

الوجه الثالث: حديث القرآن عن الغيب:

اشتمل القرآن الكريم على ذكر ثلاثة أنواع من الغيب:

أ) غيب قد وقع في الزمن الماضي.

ب) غيب كان يقع في الزمن ا الحاضر في المجتمع المدني الذي يعيش فيه النبي ﷺ وكان أهله يحاولون إخفاءه، ولكن الله عز وجل يظهره.

ج) وغيب لم يقع وأخبر عن مجيئه في الزمن المستقبل، فكان كما أخبر القرآن.

---

(1) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن (ص: ٧٠).

(2) الشفا: (١/ ٢٧٣).

وفيما يلي نماذج من ذلك:

أ- إخبار القرآن عن الغيب الماضي:

تحدث القرآن الكريم عن الماضي حديثًا مستفيضًا، فتحدث عن بداية الكون، وخلق الإنسان، وعن قصص الأنبياء وما حدث لهم مع أممهم، وماذا حل بكل أمة مكذبة من العذاب، ولم يستطع أحد أن يكذب قصة من قصصه أو يرد شيئًا منها، رغم أنَّه كان في مجتمع النبي ﷺ أهل كتاب من بني إسرائيل.

والمطلع على التوراة والإنجيل يرى أنَّ كثيرًا من قصصهما يشير إليه القرآن ؛ بعضه بتفصيله الذي فيهما مع تصحيح ما يشتملان عليه من الخطأ، وبعضه يجمله مع جمال في اللفظ وحسن في العرض.

ثمَّ إنَّه يعظم الأنبياء ويمدحهم، ويثني عليهم على خلاف التوراة التي توزع أوصاف الذم عليهم بصورة مستبشعة مما يؤكد أنَّها محرفة ومغيرة.

وللمقارنة بين قصص القرآن والتوراة لمعرفة الفرق بين عرض القرآن وعرض التوراة يحسن أن تراجع قصة يوسف ﷺ، فهي في القرآن باسم «سورة يوسف»» وفي التوراة في سفر التكوين «الفصل السابع والثلاثون» إلى نهاية «الفصل السابع والأربعين»[١].

---

(1) وقد جمع بينهما مالك بن نبي في كتابه: (الظاهرة القرآنية) (ص: ٢٥٢).

ومن تلك القصص:

١ ـ قصة أم مريم عليها السلام:

تحدث القرآن الكريم عن أم مريم وحملها بمريم عليها السلام ونذرها لله عز وجل، وما حدث لها عند ولادتها، ثمَّ رعاية زكريا لها، وكيف كانت تأتيها الفاكهة في مكان خلوتها، وأنَّ ذلك من الله عز وجل، وعند ذلك دعا زكريا ربَّه -الذي أكرم مريم بإحضار الطعام لها بدون جهد من البشر- أن يرزقه الولد.

قال تعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً ۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾ ﴾ [آل عمران].

فهذا التفصيل الدقيق لقصة وقعت قبل مئات السنين من رجل أمي لم يقرأ ولم يكتب

دليل على أن هذا ا لقرآن من عند الخالق عز وجل الذي يعلم ما كان وما سيكون سبحانه.

٢- قصة مريم عليها السلام:

ثم ذكر قصة مريم عليها السلام فذكر: اعتزالها أهلها ومجيئ الملك إليهاونفخه في فرجها، فحملت بعيسى عليه السلام، ثمَّ جاءها المخاض إلى جذع النخلة بجانب نهر من الماء، وأمرها بهز النخلة لتساقط عليها رطبًا جنيًا، ثمَّ حملت طفلها وجاءت به قومها وهي في غاية الهم والخوف خشية أن لا يصدقها أحد من قومها، وذكر كيف واجهها قومها عندما جاءت به إليهم، و كيف أن الله عز وجل أنطق عيسى عليه السلام وهو في المهد فشهد لأمِّه بالبراءة، وأنَّه عبد الله عز وجل ورسوله.

قال تعالى: ﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا ﴿١٧﴾ قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا ﴿١٩﴾ قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞۖ وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ وَرَحۡمَةٗ مِّنَّاۚ وَكَانَ أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا ﴿٢١﴾ ۞ فَحَمَلَتۡهُ فَٱنتَبَذَتۡ بِهِۦ مَكَانٗا قَصِيّٗا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ قَالَتۡ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا ﴿٢٦﴾ ﴾ [مريم:٢٦].

هذه الصورة الإيمانية التي يقررها القرآن الكريم لأم عيسى عليه السلام بتفصيل دقيق يدل على أن هذا القرآن من عند الله عز وجل.

٣ـ قصة عيسى عليه السلام:

ذكر ﷻ ما أنعم به على عيسى عليه السلام ابتداءً بخلقه ثم بتأييده بروح القدس، وإنزال الكتاب عليه، وتعليمه التوراة والإنجيل، وما أعطاه من خوارق العادات من إحياء الموتى، وإبراء المرضى، وحفظه من عدوان بني إسرائيل الذين أرادوا قتله فرفعه سبحانه إليه.

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾﴾ [المائدة:١١١].

يصحح القرآن في هذه الآيات لعقيدتين متضادتين لأهل الكتاب:

عقيدة تؤلهه عليه السلام وعقيدة تعتقد فيه السوء.

فهل يمكن أن يكون هذا تصورًا لبشر لم يقرأ ولم يكتب يصحح لأهل الكتاب أنفسهم؟!

٤ـ قصة موسى عليه السلام:

ذكر الله ﷻ قصة موسى عليه السلام وما لاقاه من فرعون، وما لاقاه من قومه كذلك بعد فرعون بعبارة واضحة وأسلوب بليغ.

قال تعالى: ﴿ طسٓمٓ ۝١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ نَتۡلُواْ عَلَيۡكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرۡعَوۡنَ بِٱلۡحَقِّ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ۝٣ إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ۝٤ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ۝٥ ﴾ [القصص:٥].

وقد تحدث القرآن عن موسى عليه السلام وعن فرعون في مواطن كثيرة، وأما ما لاقاه من قومه فقد ذكره عز وجل في مئات الآيات.

وذكر كذلك قصص الأنبياء مع أممهم وما حدث بينهم وبين أممهم بصورة واضحة بينة.

وهكذا.. عشرات القصص مما لا يُعرَف إلا من خلال الكتب السماوية السابقة فقط، وقد يعرف بعضها من خلال الكتب التاريخية، والتي لا تعرفها العرب آنذاك كما أخبر بذلك سبحانه وتعالى.

قال تعالى بعد إيراد قصة مريم عليها السلام: ﴿ ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۚ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يُلۡقُونَ أَقۡلَٰمَهُمۡ أَيُّهُمۡ يَكۡفُلُ مَرۡيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ ۝٤٤ ﴾ [آل عمران:٤٤].

وقال تعالى بعد إيراد جملة من القصص: ﴿ تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ مِن قَبۡلِ هَٰذَاۖ فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ ۝٤٩ ﴾ [هود:٤٩].

قال الطبري رحمه الله:

(ويعني بالغيب: أنها من خفيّ أخبار القوم التي لم تطلع أنت يا محمد عليها ولا قومك، ولم يعلمها إلا قليل من أحبار أهل الكتابين ورهبانهم، ثم أخبر تعالى ذكره نبيه

محمدًا ﷺ أنه أوحى ذلك إليه حجة على نبوّته، وتحقيقًا لصدقه، وقطعًا منه به عذر منكري رسالته من كفار أهل الكتابين الذين يعلمون أن محمدًا لم يصل إلى علم هذه الأنباء مع خفائها، ولم يدرك معرفتها مع خمولها عند أهلها إلا بإعلام الله ذلك إياه، إذ كان معلومًا عندهم أن محمدًا ﷺ أمي لا يكتب فيقرأ الكتب فيصل إلى علم ذلك من قِبَلِ الكتب، ولا صاحب أهل الكتب فيأخذ علمه من قِبَلهم)[1].

وقال ابن عاشور:

(فهذه الأنباء مغيبة بالنسبة إلى العرب كلهم لعدم علمهم بأكثر من مجملاتها، وهي أنه قد كان في الزمن الغابر نبي يقال له: نوح عليه السلام أصاب قومَه طوفان، وما عدا ذلك فهو غيب كما أشار إليه قوله: ﴿ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَـٰذَا ﴾ [هود:٤٩]، فإنهم لم ينكروا ذلك ولم يدّعوا علمه.

على أن فيها ما هو غيب بالنسبة إلى جميع الأمم مثل قصة ابن نوح الرابع وعصيانه أباه وإصابته بالغرق، ومثل كلام الرّب مع نوح عليه السلام عند هبوطه من السفينة، ومثل سخرية قومه به وهو يصنع الفلك، وما دار بين نوح عليه السلام وقومه من المحاورة، فإن ذلك كله مما لم يذكر في كتب أهل الكتاب)[2].

فالله عز وجل يقرر أن هذا القصص التي أوردها في القرآن لم يكن يعرفها النبي ﷺ ولا أحد من أهل مكة، ولو كانت معروفة لديهم لسارعوا إلى إنكار هذا الخبر، ولكنهم لم يفعلوا فدل على أنها صحيحة، وأن هذا القصص من تعليم الله عز وجل لنبيه ﷺ.

---

(1) تفسير الطبري: (٣/ ١٨٢).

(2) التحرير والتنوير: (١/ ٢١١٧).

ب) إخبار القرآن عن الغيب الحاضر في عهد النبي ﷺ:

كانت تقع أمور من المنافقين في المدينة فيما بينهم، وكانت تقع بعض الأعمال الخاطئة من بعض المؤمنين مما لم يشهده النبي ﷺ فينزل القرآن يخبر بها.

ومن ذلك ما يلي:

١-في بعض غزوات النبي ﷺ وقع خلاف بين المهاجرين والأنصار، فتكلم زعيم المنافقين عبد الله بن أُبيٍّ ابن سلول في جماعة من قومه، فنقل غلام صغير ما قاله ذلك المنافق إلى النبي ﷺ، فجاء ذلك المنافق وحلف أنه ما قال، ثمَّ نزل القرآن مصدقًا للغلام، ذاكرًا نص القول الذي قاله المنافق[1].

قال تعالى: ﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْ ۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ۝٧ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝٨ ﴾ [المنافقون:٧-٨].

فذكر سبحانه نص قوله، ولو لم يكن صحيحًا لجاء قومه وكذبوا الخبر، لكنَّهم لم يفعلوا؛ لأنَّ صاحبهم قال نفس اللفظ الذي جاء به القرآن، وهذا يؤكد أنَّ هذا القرآن كلام الله عز وجل.

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ في غزوة - يرون أنها غزوة بني المصطلق - فكسع رجل من المهاجرين رجلًا من الأنصار، فقال الأنصاري: يا للأنصار! وقال المهاجري: يا للمهاجرين!

---

(1) روى القصة البخاري (ح: ٤٩٠٣).

فسمع ذلك النبيّ ﷺ فقال: «مَا بَالُ دَعْوَى الجَاهِلِيَّةِ» فقيل: رجل من المهاجرين كسع رجلًا من الأنصار، فقال النبيّ ﷺ: «دَعُوهَا فَإِنَّهَا منتنة».

قال جابر: - وكان المهاجرون حين قدموا المدينة أقل من الأنصار، ثم إن المهاجرين كثروا - فبلغ ذلك عبد الله بن أبي فقال: فعلوها، والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل.

فسمع ذلك عمر رضي الله عنه فأتى النبيّ ﷺ فقال: يا رسول الله! دعني أضرب عنق هذا المنافق! فقال النبيّ ﷺ: «يا عمر! دعه، لا يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه»[1].

ورواه البخاري ومسلم بدون ذكر القصة عن زَيْد بن أَرْقَمَ رضي الله عنه قال:

«كنتُ مع عَمي، فسمعت عبدَ الله بن أُبَيّ ابنَ سَلول يقول: ﴿لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟﴾ [المنافقون:٧]. وقال أيضًا: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ [المنافقون:٨].

فذكرْتُ ذلك لعمي، فذكر عمي لرسولِ الله ﷺ، فأرسل رسولُ الله ﷺ إلى عبد الله بن أبيّ وأصحابه فحَلفوا ما قالوا، فصدَّقهم رسولُ الله ﷺ وكذَّبَني، فأصابني همٌّ لم يُصبْني مثله، فجَلَسْتُ في بيْتي، فأنزلَ الله عز وجل: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَكَـٰذِبُونَ ۝١ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ۝٣ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ

(1) رواه أحمد: (ح:١٤٩٢٤).

﴿٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٦﴾ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [المنافقون:١-٨]، فأرسلَ إليَّ رسولُ الله ﷺ فقرأها عَلَيَّ، ثم قال: إنَّ الله قد صدقك»[1].

٢-وفي بعض الغزوات كان المنافقون يستهزئون بالنبي ﷺ ويسخرون منه، وهم يريدون إضعاف حماس أتباعه الصادقين، فلمَّا بلغ النبي ﷺ جاءوا يحلفون أنَّهم ما قالوا، فأنزل الله ﷻ آيات بينات تؤكد أنَّهم قد قالوا[2].

قال تعالى: ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [التوبة:٦٢]

قال الطبري: (يقول تعالى ذكره للمؤمنين به وبرسوله ﷺ: يحلف لكم أيها المؤمنون هؤلاء المنافقون بالله ليرضوكم فيما بلغكم عنهم من أذاهم رسول الله ﷺ، وذكرهم إياه، بالطعن عليه والعيب له، ومطابقتهم سرًّا أهل الكفر عليكم بالله، والأيمان الفاجرة أنهم ما فعلوا ذلك، وإنهم لعلى دينكم ومعكم على من خالفكم، يبتغون بذلك رضاكم.

يقول الله جلّ ثناؤه: ﴿ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ ﴾ [التوبة:٦٢] بالتوبة والإنابة مما

(1) رواه البخاري: (ح:٤٧٨٠)، ومسلم: (ح:٦٥٣٥) بنحوه.

(2) روى القصة الطبري في التفسير: (١٤/ ٣٣٣).

قالوا ونطقوا.

(إنْ كانُوا مُؤْمِنينَ) يقول: إن كانوا مصدّقين بتوحيد الله، مقرّين بوعده ووعيده.

وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. وذكر من قال ذلك:

حدثنا بشر، قال: ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد، عن قتادة، قوله: ﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ ﴾[التوبة:٦٢]، ذكر لنا أن رجلًا من المنافقين قال: والله إن هؤلاء لخيارنَا وأشرافنا، وإن كان ما يقول محمد حقًا، لهم شرّ من الحمير. قال: فسمعها رجل من المسلمين، فقال: والله إن ما يقول محمد حقّ، ولأنت شرّ من الحمار، فسعى بها الرجل إلى نبيّ الله ﷺ.

فأرسل إلى الرجل فدعاه، فقال له: «ما حَمَلَكَ على الذي قُلْتَ؟» فجعل يلتعن ويحلف بالله ما قال ذلك، قال: وجعل الرجل المسلم يقول: اللهم صَدِّق الصادق وكذّب الكاذب، فأنزل الله في ذلك: ﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ ﴾[التوبة:٦٢][1].

٣- في غزوة تبوك تكلم بعض المنافقين فيما بينهم بكلام سخروا فيه بالنبي ﷺ وبأصحابه، فأنزل الله ﷻ آيات يكشف فيها حديثهم، قال ﷻ : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾[التوبة:٦٥].

روى الطبري بسنده عن زيد بن أسلم:

«أن رجلًا من المنافقين قال لعوف بن مالك في غزوة تبوك: ما لقرّائنا هؤلاء أرغبنا بطونًا، وأكذبنا ألسنةً، وأجبننا عند اللقاء! فقال له عوف: كذبت، ولكنك منافق، لأخبرنّ

(١) تفسير الطبري: (٦/ ٤٠٧).

رسول الله ﷺ، فذهب عوف إلى رسول الله ﷺ ليخبره، فوجد القرآن قد سبقه، فقال زيد: قال عبد الله بن عمر: فنظرت إليه متعلقًا، بحقب ناقة رسول الله ﷺ تنكبه الحجارة، يقول: ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ [التوبة:٦٥] فيقول له النبيّ ﷺ: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَـٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ۝٦٥﴾ [التوبة:٦٥] ما يزيده)[1].

فالنبي ﷺ أخبرهم بما تحدثوا به بينهم ولم يسمع قولهم فلم يستطيعوا أن يكذّبوا الخبر فأقروا به، لكنهم زعموا أنهم إنما قالوا ذلك من باب اللعب.

٤- قام المنافقون ببناء مسجد للصلاة فيه، وكان قصدهم التجمع فيه لحرب رسول الله ﷺ والتآمر عليه، وطلبوا من النبي ﷺ أن يفتتحه بالصلاة فيه، فوعدهم النبي ﷺ بعد أن يعود من سفره -وكان على جناح سفر- أن يصلي فيه، فأنزل الله ﷻ كشف أسرارهم، ونهى النبي ﷺ عن الصلاة فيه، فأمر النبي ﷺ بعض أصحابه فهدموه.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ۝١٠٧ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ [التوبة:١٠٨]

روى الطبري عن جماعة من المفسرين أنهم قالوا في تفسير هذه الآية:

(أقبل رسول الله ﷺ -يعني: من تبوك- حتى نزل بذي أوان -بلد بينه وبين المدينة ساعة من نهار- وكان أصحاب مسجد الضرار قد أتوه وهو يتجهز إلى تبوك، فقالوا: يا رسول الله! إنا قد بنينا مسجدًا لذي العلة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الشاتية، وإنا نحبّ أن تأتينا فتصلي لنا فيه.

فقال: «إِنِّي على جَناحِ سَفَر وَحالِ شُغْلٍ -أو كما قال رسول الله ﷺ- وَلَوْ قَدْ قَدِمْنا

(1) تفسير الطبري: (١٠/ ١١٨).

أَتَيْناكُمْ إِنْ شاءَ اللهُ فَصَلَّيْنَا لَكُمْ فِيهِ».

فلما نزل بذي أوان – مكان قريب من المدينة –أتاه خبر المسجد –أي: من الله ﷻ– فدعا رسول الله ﷺ مالك بن الدخشم أخا بني سالم بن عوف، ومعن بن عديّ أو أخاه عاصم بن عديّ أخا بني العجلان، فقال: «انْطَلِقا إلى هَذَا المَسْجِدِ الظَّالِمِ أَهْلُهُ فاهْدِمَاهُ وَحَرّقاه» فخرجا سريعين حتى أتيا بني سالم بن عوف، وهم رهط مالك بن الدخشم، فقال مالك لمعن: أنظرني حتى أخرج إليك بنار من أهلي فدخل على أهله فأخذ سعفًا من النخل، فأشعل فيه نارًا، ثم خرجا يشتدّان حتى دخلا المسجد وفيه أهله، فحرّقاه وهدماه، وتفرّقوا عنه.

ونزل فيهم من القرآن ما نزل: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا ﴾ [التوبة:١٠٧] إلى آخر القصة، وكان الذين بنوه اثني عشر رجلًا[1].

٥- عمد بعض المنافقين فسرق من بيت أحد المسلمين درعًا وطعامًا ثمَّ رمى الدرع في بيت رجل يهودي، فلمَّا اتهم المنافق جاء هو وإخوته وشهدوا أنَّ الذي سرق هو اليهودي، حتَّى كاد رسول الله ﷺ يقتنع بذلك، فأنزل الله ﷻ عدة آيات تبرئ اليهودي وتؤكد أنَّ السارق هو المنافق، وتعاتب النبي ﷺ في قناعته ودفاعه عن السارق وظنه بإنسان بريء.

قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا

---

(1) تفسير الطبري: (١١/ ١٧).

﴿ ﴾ [النساء:١٠٨] إلى آخر الآيات[1].

روى الطبري عن ابن زيد في قوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ ﴾ [النساء:١٠٥]... الآية. قال: كان رجل سرق درعًا من حديد في زمان النبيّ ﷺ وطرحه على يهوديّ، فقال اليهوديّ: والله ما سرقتها يا أبا القاسم، ولكن طرحت عليّ! وكان للرجل الذي سرق جيران يبرّئونه ويطرحونه على اليهوديّ، ويقولون: يا رسول الله! إن هذا اليهوديّ الخبيث يكفر بالله وبما جئت به. قال: حتى مال عليه النبيّ ﷺ ببعض القول، فعاتبه الله عز وجل في ذلك، فقال: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا ﴿١٠٥﴾ وَٱسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ ﴾ [النساء:١٠٦] بما قلت لهذا اليهوديّ، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿١٠٦﴾ ﴾ [النساء:١٠٦][2].

٦- ما ورد في قصة حاطب رضي الله عنه، وإخبار النبي ﷺ بأمر الرسالة التي أرسلها إلى كفار قريش:

عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: بَعَثَنِي رَسُولُ الله ﷺ أَنَا وَالزُّبَيْرَ وَالْمِقْدَادَ بْنَ الْأَسْوَدِ قَالَ: انْطَلِقُوا حَتَّى تَأْتُوا رَوْضَةَ خَاخٍ فَإِنَّ بِهَا ظَعِينَةً وَمَعَهَا كِتَابٌ فَخُذُوهُ مِنْهَا. فَانْطَلَقْنَا تَعَادَى بِنَا خَيْلُنَا حَتَّى انْتَهَيْنَا إِلَى الرَّوْضَةِ فَإِذَا نَحْنُ بِالظَّعِينَةِ. فَقُلْنَا :أَخْرِجِي الْكِتَابَ. فَقَالَتْ :مَا مَعِي مِنْ كِتَابٍ. فَقُلْنَا :لَتُخْرِجِنَّ الْكِتَابَ أَوْ لَنُلْقِيَنَّ الثِّيَابَ فَأَخْرَجَتْهُ مِنْ عِقَاصِهَا فَأَتَيْنَا بِهِ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَإِذَا فِيهِ: مِنْ حَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ إِلَى أُنَاسٍ مِنْ الْمُشْرِكِينَ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ يُخْبِرُهُمْ بِبَعْضِ أَمْرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ.

(1) رواها الترمذي (ح: ٣٠٣٦)، وصححه الشيخ الألباني.

(2) تفسير الطبري: (٥/ ١٦٩).

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: يَا حَاطِبُ مَا هَذَا؟! قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! لَا تَعْجَلْ عَلَيَّ إِنِّي كُنْتُ امْرَأً مُلْصَقًا فِي قُرَيْشٍ وَلَمْ أَكُنْ مِنْ أَنْفُسِهَا وَكَانَ مَنْ مَعَكَ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ لَهُمْ قَرَابَاتٌ بِمَكَّةَ يَحْمُونَ بِهَا أَهْلِيهِمْ وَأَمْوَالَهُمْ فَأَحْبَبْتُ إِذْ فَاتَنِي ذَلِكَ مِنْ النَّسَبِ فِيهِمْ أَنْ أَتَّخِذَ عِنْدَهُمْ يَدًا يَحْمُونَ بِهَا قَرَابَتِي وَمَا فَعَلْتُ كُفْرًا وَلَا ارْتِدَادًا وَلَا رِضًا بِالْكُفْرِ بَعْدَ الْإِسْلَامِ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: لَقَدْ صَدَقَكُمْ. قَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللهِ دَعْنِي أَضْرِبْ عُنُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ. قَالَ: إِنَّهُ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللهَ أَنْ يَكُونَ قَدْ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ) [١].

فأنزل الله عزوجل صدر سورة الممتحنة.

قال تعالى يخاطب حاطباً : "يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُمْ مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِاللهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَاداً فِي سَبِيلِي وَابْتِغَآءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَاْ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ السَّبِيلِ*إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوَاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوَءِ وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ*لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ"[سورة الممتحنة ١-٣]

وهناك أحداث أخرى كثيرة وقعت سرًا وكشفها القرآن ولم يستطع أحد أن ينفي ما أخبر به القرآن، فدل هذا على أن هذا القرآن من عند الله ﷻ.

جـ) إخبار القرآن عن الغيب المستقبل:

---

(١) رواه البخاري: (ح:٢٧٨٥) ومسلم : (ح:٤٥٥٠).

أخبر القرآن الكريم عن أمورٍ عدة أنها ستقع فوقعت كما أخبر، منها:

١- في سورة المزمل وهي ثاني أوثالث سورة نزلت بمكة، ولم يسلم آنذاك إلا القليل من قريش، والمسلمون في حال ضعف لايأمن الشخص على نفسه، بل كانوا يكتمون إسلامهم عن الناس، وقد فرض الله ﷻ عليهم قيام الليل عامًا كاملًا ثم نسخه بهذه الآيات: قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَىِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿٢٠﴾ ﴾ [المزمل:١٩-٢٠].

فذكر سبحانه أنه خفف عنهم ونسخ حكم وجوب قيام الليل؛ لأنه سيكون لهم أحوال في المستقبل يشق عليهم معها قيام الليل، ومنها: السفر للتجارة والجهاد في سبيل الله؛ هذا وهم في غاية الخوف ولم يشرع الجهاد بعد.

روى الطبري عن قتادة، قال: ثم أنبأ بخصال المؤمنين، فقال: ﴿ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ﴾ [المزمل:٢٠].

قال: افترض الله القيام في أوّل هذه السورة، فقام نبيّ الله ﷺ وأصحابه حولًا حتى انتفخت أقدامهم، وأمسك الله خاتمتها اثني عشر شهرًا في السماء، ثم أنزل التخفيف في

آخرها؛ فصار قيام الليل تطوّعا بعد فريضة)[1].

وقال ابن كثير: (وهذه الآية بل السورة كلها مكية ولم يكن القتال شرع بعد، فهي من أكبر دلائل النبوة؛ لأنه من باب الإخبار بالمغيبات المستقبلة)[2].

وقد تحقق ما أشار الله ﷻ إليه، فقد كثر المسلمون وهاجروا إلى المدينة وقامت لهم دولة، وقويت شوكتهم وشرع لهم الجهاد فجاهدوا كما أخبر ﷻ.

وهذه من علم الغيب الذي لا يعلمه البشر، فدل أن هذا القرآن ليس من كلام البشر، وإنما هو من كلام خالق البشر.

٢- أخبر القرآن عن انتصار الروم على الفرس في مدة لا تتجاوز التسع سنين.

وذلك أنَّ الفرس وهم ليسوا أهل كتاب غلبوا الروم وهم أهل كتاب، فقال كفار قريش للمسلمين: إنَّنا سنغلبكم كما غلبت الفرس الروم، حيث إنَّ الفرس لا كتاب لهم مثلنا، والروم لهم كتاب مثلكم، فأنزل الله ﷻ قرآنًا يبين أنَّ الروم سوف تنتصر على الفرس في مدة لا تتجاوز تسع سنين ويحصل مع ذلك نصر للمسلمين.

قال تعالى: ﴿ الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ ﴾ [الروم:١-٥].

فوقع كما أخبر ﷻ.

ويذكر المؤرخون أنَّ الروم كانت قد هُزِمت هزيمة منكرة أمام الفرس ولا يُرجى لها

---

(1) تفسير الطبري: (٢٩/ ١٣٢).

(2) تفسير ابن كثير: (٨/ ٢٦٨).

أن تقوم إلا بعد عشرات السنين، ولكن الأمر لم يدم إلا سنوات عدة، لا تتجاوز السبع سنين، حتَّى عاودت الروم الحرب على الفرس في عدة حروب سنة (٦٢٣م-٦٢٧م) وتحقق لهم الانتصار في هذه الحروب.

وقد كان في عام (٦٢٦م) تقريبًا تحقق نصر للمسلمين على قريش فتوافق النصران اللذان أخبر بهما القرآن[1].

قال الطبري ﷺ: (فتأويل الكلام: غلبت فارس الروم فِي أدْنَى الأرْضِ من أرض الشام إلى أرض فارس.

﴿ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ ﴾ [الروم:٣] يقول: والروم من بعد غلبة فارس إياهم سَيَغْلِبُونَ فارس.

﴿ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ ﴾ [الروم:٤]. أي: قبل غلبتهم فارس: ﴿ وَمِنۢ ﴾ [الروم:٤] أي: بَعْد غلبتهم إياها، يقضي في خلقه ما يشاء، ويحكم ما يريد، ويظهر من شاء منهم على من أحبّ إظهاره عليه.

﴿ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝ ﴾ [الروم:٤] يقول: ويوم يغلِب الروم فارس: ﴿ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝ بِنَصۡرِ ٱللَّهِ ﴾ [الروم:٥] إياهم على المشركين، ونُصْرة الروم على فارس يَنْصُرُ اللهُ تعالى ذكره مَنْ يَشاءُ من خلقه على من يشاء، وهو نُصرة المؤمنين على المشركين ببدر.

﴿ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ﴾ [الروم:٥] يقول: والله الشديد في انتقامه من أعدائه، لا يمنعه من ذلك مانع، ولا يحول بينه وبينه حائل.

(1) وقد ذكر هذا: القاسمي في تفسيره، وكذلك الزحيلي، وأفاض د- محمد هيتو في دراسة الحدث في كتابه: المعجزة القرآنية (ص: ١٠٦-١١٥).

﴿ ٱلرَّحِيمُ ۝ ﴾ [الروم:٥] بمن تاب من خلقه، وراجع طاعته أن يعذّبه. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل)[1].

وقال ابن عاشور ﵀: (وهذا الغلَب الذي ذكر في هذه الآية هو انهزام الروم في الحرب التي جرت بينهم وبين الفرس سنة (٦١٥) مسيحية. وذلك أن خسرو بن هرمز ملكَ الفرس غزا الروم في بلاد الشام وفلسطين وهي من البلاد الواقعة تحت حكم هرقل قيصر الروم، فنازل أنطاكية ثم دمشق وكانت الهزيمة العظيمة على الروم في أطراف بلاد الشام المحاذية لبلاد العرب بين بُصرى وأذرعات. وذلك هو المراد في هذه الآية: ﴿ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ ﴾ أي: أدنى بلاد الروم إلى بلاد العرب.

فالتعريف في ﴿ ٱلۡأَرۡضِ ﴾ للعهد، أي: أرض الروم المتحدث عنهم، أو اللام عوض عن المضاف إليه، أي: في أدنى أرضهم، أو أدنى أرض الله، وحذف متعلق ﴿ أَدۡنَى ﴾ لظهور أن تقديره: من أرضكم. أي: أقرب بلاد الروم من أرض العرب، فإن بلاد الشام تابعة يومئذ للروم وهي أقرب مملكة للروم من بلاد العرب. وكانت هذه الهزيمة هزيمة كبرى للروم.

وقوله: ﴿ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝ فِي بِضۡعِ سِنِينَ ﴾ [الروم:٣-٤] إخبار بوعد معطوف على الإخبار الذي قبله، وضمائر الجمع عائدة إلى الروم.

و﴿ غَلَبِهِمۡ ﴾ مصدر مضاف إلى مفعوله. وحذف مفعول ﴿ سَيَغۡلِبُونَ ۝ ﴾ للعلم بأن تقديره: سيغلبون الذين غلبوهم، أي: الفرس، إذ لا يتوهم أن المراد سيغلبون قومًا آخرين؛ لأن غلبهم على قوم آخرين وإن كان يرفع من شأنهم ويدفع عنهم معرة غلب

---

(1) تفسير الطبري: (٢١/ ١١).

الفرس إياهم، لكن القصة تبين المراد، ولأن تمام المنة على المسلمين بأن يغلب الروم الفرسَ الذين ابتهج المشركون بغلبهم وشمتوا لأجله بالمسلمين كما تقدم.

وفائدة ذكر ﴿ مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ ﴾ [الروم:٣] التنبيه على عظم تلك الهزيمة عليهم، وأنها بحيث لا يُظن نصر لهم بعدَها، فابتهج بذلك المشركون.

فالوعد بأنهم سيغلبون بعد ذلك الانهزام في أمد غير طويل تحدٍ تحدَّى به القرآن المشركين، ودليل على أن الله قدر لهم الغلب على الفرس تقديرًا خارقًا للعادة معجزة لنبيه ﷺ وكرامة للمسلمين.

ولفظ ﴿ بِضۡعِ ﴾ بكسر الموحدة كناية عن عدد قليل لا يتجاوز العشرة...

وحكمة إبهام عدد السنين: أن مقتضى حال كلام العظيم الحكيم أن يقتصر على المقصود إجمالًا، وأن لا يتنازل إلى التفصيل؛ لأن ذلك التفصيل يتنزل منزلة الحشو عند أهل العقول الراجحة، وليكون للمسلمين رجاء في مدة أقرب مما ظهر؛ ففي ذلك تفريج عليهم.

وهذه الآية من معجزات القرآن)[1].

٣ - أخبر القرآن المسلمين أنَّهم سيدخلون مكة بعد أن خرجوا منها فارين بدينهم، وقد منعتهم قريش من دخولها، وذكر القرآن أنَّهم سيدخلون مكة وهم آمنون، لا يخافون لأداء نسك العمرة. أي: زيارة بيت الله عز وجل.

ونزل هذا الكلام في العام الذي منعتهم قريش من الدخول، ثمَّ تحقق لهم في العام الثاني رغم أنَّ قريشًا كانت معادية لمحمد ﷺ وأصحابه، وكان هناك صلح يقضي

(1) التحرير والتنوير: (١/ ٣٢٢٠-٣٢٢١).

بالدخول، لكن من الذي يضمن عدم خيانة قريش ونقضها للعهد؟!

لكن الله ﷻ بشَّر بالدخول على الحالة المذكورة قبل ذلك بعام تقريبًا.

قال ﷻ : ﴿ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ﴾ [الفتح:٢٧].

ووقع كما أخبر، فدخلوا مكة للعمرة ومكثوا بها ثلاثة أيام ثمَّ خرجوا ولم يحدث لهم ما يؤذيهم، مع أن الساكنين بمكة آنذاك هم أعداء النبي ﷺ.

قال ابن كثير: (كان رسول الله ﷺ قد رأى في المنام أنه دخل مكة وطاف بالبيت فأخبر أصحابه بذلك وهو بالمدينة.

فلما ساروا عام الحديبية لم يشك جماعة منهم أن هذه الرؤيا تدل على أن الدخول سيكون هذا العام، فلما وقع ما وقع من قضية الصلح ورجعوا عامهم ذلك على أن يعودوا من قابل، وقع في نفس بعض الصحابة ﷺ من ذلك شيء، حتى سأل عمر بن الخطاب ﷺ في ذلك، فقال له فيما قال: أفلم تكن تخبرنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟

قال: «بلى. أفأخبرتك أنك تأتيه عامك هذا؟» قال لا. قال النبي ﷺ : «فإنك آتيه ومطوِّف به» وبهذا أجاب الصديق ﷺ أيضًا حذو القذة بالقذة، ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [الفتح:٢٧] هذا لتحقيق الخبر وتوكيده، وليس هذا من الاستثناء في شيء.

وقوله: ﴿ ءَامِنِينَ ﴾ أي: في حال دخولكم. وقوله: ﴿مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾ حال مقدرة لأنهم في حال دخولهم لم يكونوا محلقين ومقصرين، وإنما كان هذا في ثاني الحال؛ كان منهم من حلق رأسه ومنهم من قصره.

وثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «رحم الله المحلقين» قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟ قال ﷺ: «رحم الله المحلقين» قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟ قال ﷺ: «رحم الله المحلقين» قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟ قال ﷺ: «والمقصرين» في الثالثة أو الرابعة.

وقوله ﷻ: ﴿ لَا تَخَافُونَ ﴾ [الفتح:٢٧] حال مؤكدة في المعنى، فأثبت لهم الأمن حال الدخول، ونفى عنهم الخوف حال استقرارهم في البلد لا يخافون من أحد، وهذا كان في عمرة القضاء في ذي القعدة سنة سبع، فإن النبي ﷺ لما رجع من الحديبية في ذي القعدة رجع إلى المدينة)[1].

٤- كان المسلمون المستضعفون يُسامون سوء العذاب من كفار قريش، ولم يكن لهم قوة ولا منعة، فأنزل الله ﷷ آيات عدة تتحدث عن حوادث مستقبلة تبشر المؤمنين بالنصر على أعدائهم منها:

قول الله تعالى: ﴿ سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [القمر:٤٥].

أي أنَّ أعداء محمد ﷺ سيجتمعون لحرب المسلمين وأنَّهم سيُغلَبون ويفرون.

وتحقَّق ذلك يوم غزوة بدر، فقد تجمَّع خصوم محمد ﷺ وعددهم ألف مقاتل، ليقاتلوا محمدًا ﷺ وأصحابه وعددهم ثلاثمائة وبضعة عشر رجلًا، مع أن المسلمين لم يخرجوا للقتال، وأما المشركون فقد خرجوا للقتال وقد أعدوا كامل عدتهم، وكان النصر للمسلمين وهُزِم الكفار وفروا منهزمين.

روى الطبري عن عمر أنه قال: (لما نزلت ﴿ سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ ﴾ [القمر:٤٥] جعلت أقول:

---

(1) تفسير ابن كثير: (٧/ ٣٣١).

أيّ جمع يهزم؟ فلما كان يوم بدر رأيت النبيّ ﷺ يثب في الدرع ويقول: ﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ ﴾[القمر:٤٥].

قال الطبري وهو يربط الآية بالتي قبلها وهي قوله تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ ﴾ [القمر:٤٤] (يقول تعالى ذكره: أيقول هؤلاء الكفار من قريش: نحن جميع منتصر ممن قصدنا بسوء ومكروه، وأراد حربنا وتفريق جمعنا، فقال الله جلّ ثناؤه: ﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ ﴾[القمر:٤٥] يعني: جمع كفار قريش.

﴿ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [القمر:٤٥] يقول: ويولون أدبارهم المؤمنين بالله عند انهزامهم. وقيل: الدبر فوحَّد، والمراد به: الجمع، كما يقال ضربنا منهم الرأس: أي ضربنا منهم الرءوس، إذ كان الواحد يؤدي عن معنى جمعه، ثم إن الله تعالى ذكره صدّق وعده المؤمنين به فهزم المشركين به من قريش يوم بدر وولوهم الدُّبر)[1].

٥- كان المسلمون في مكة يعيشون حياة الخوف ويلقون أصنافًا من الأذى من قريش، حتَّى إنَّ أحدهم لم يكن يستطيع أن يعلن إسلامه ولا يستطيع أن يتصل بعضهم ببعض إلا سرًّا.

وفي هذه الظروف نزلت آيات قرآنية تعِدهم بثلاث بِشارات هي:

الأولى: أنَّ الله ﷻ سيجعلهم خلفاء متصرفين في الأرض.

الثانية: أن ينصر دينهم ويجعله ثابتًا مقررًا عاليًا على غيره.

الثالثة: أن يصبحوا آمنين ويرتفع عنهم الخوف من عدوِّهم.

هذه البِشارات الثلاث وهم في أشد حالات الخوف.

---

(1) تفسير الطبري: (٢٧/ ٦٥).

قال تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾ [النور:٥٥].

وقد تحقق هذا الوعد فنصرهم الله ﷿ وظهر الإسلام، ودخل الناس في دين الله أفواجًا، وقامت لهم دولة هزمت أعظم الدول في عصرها.

قال ابن كثير: (هذا وعد من الله تعالى لرسوله صلوات الله وسلامه عليه بأنه سيجعل أمته خلفاء الأرض -أي: أئمة الناس والولاة عليهم- وبهم تصلح البلاد، وتخضع لهم العباد. وليبدلنهم من بعد خوفهم من الناس أمنًا وحكمًا فيهم، وقد فعله تبارك وتعالى، وله الحمد والمنة، فإنه ﷺ لم يمت حتى فتح الله عليه مكة وخيبر والبحرين وسائر جزيرة العرب وأرض اليمن بكمالها، وأخذ الجزية من مجوس هجر، ومن بعض أطراف الشام، وهاداه هرقل ملك الروم وصاحب مصر والإسكندرية وهو المقوقس، وملوك عمان والنجاشي ملك الحبشة الذي تملك بعد أصحمة ؒ وأكرمه.

ثم لما مات رسول الله ﷺ واختار الله له ما عنده من الكرامة، قام بالأمر بعده خليفته أبو بكر الصديق، فلمّ شعث ما وهى بعد موته ﷺ، وأَطَّدَ جزيرة العرب ومهدها، وبعث الجيوش الإسلامية إلى بلاد فارس بصحبة خالد بن الوليد ؓ، ففتحوا طرفًا منها، وقتلوا خلقًا من أهلها، وجيشًا آخر في صحبة أبي عبيدة ؓ ومن اتبعه من الأمراء إلى أرض الشام، وثالثًا في صحبة عمرو بن العاص ؓ إلى بلاد مصر، ففتح الله للجيش الشامي في أيامه بصرى ودمشق ومخاليفهما من بلاد حوران وما والاها، وتوفاه الله ﷿ واختار له ما عنده من الكرامة.

ومنَّ على أهل الإسلام بأن ألهم الصديق أن يستخلف عمر الفاروق، فقام بالأمر بعده قيامًا تامًا، لم يدر الفلك بعد الأنبياء على مثله في قوة سيرته وكمال عدله، وتمّ في أيامه فتح البلاد الشامية بكمالها، وديار مصر إلى آخرها، وأكثر إقليم فارس، وكسر كسرى وأهانه غاية الهوان وتقهقر إلى أقصى مملكته، وقصر قيصر، وانتزع يده عن بلاد الشام، وانحدر إلى القسطنطينية، وأنفق أموالهما في سبيل الله، كما أخبر بذلك ووعد به رسول الله، عليه من ربه أتم سلام وأزكى صلاة.

ثم لما كانت الدولة العثمانية امتدت الممالك الإسلامية إلى أقصى مشارق الأرض ومغاربها، ففتحت بلاد المغرب إلى أقصى ما هنالك الأندلس وقبرص، وبلاد القيروان، وبلاد سبتة مما يلي البحر المحيط.

ومن ناحية المشرق إلى أقصى بلاد الصين، وقتل كسرى وباد ملكه بالكلية، وفتحت مدائن العراق وخراسان والأهواز، وقتل المسلمون من الترك مقتلة عظيمة جدًا، وخذل الله ملكهم الأعظم خاقان، وجبي الخراج من المشارق والمغارب إلى حضرة أمير المؤمنين عثمان بن عفان ﷺ، وذلك ببركة تلاوته ودراسته، وجمعه الأمة على حفظ القرآن، ولهذا ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها، ويبلغ ملك أمتي ما زوي لي منها».

فها نحن نتقلب فيما وعدنا الله ورسوله، وصدق الله ورسوله، فنسأل الله الإيمان به وبرسوله، والقيام بشكره على الوجه الذي يرضيه عنا..)[1].

٦- عندما أعلن النبي ﷺ نبوته ودعا الناس إلى دين الله ﷻ قاومه أكثر قومه وحاربوه،

---

(1) تفسير ابن كثير: (٦/ ٧٠).

وآذوه، وكان من أشدِّهم إيذاءً للنبي ﷺ : عمه أخو أبيه أبو لهب وزوجته وآخرون غيرهما، فنزلت سورة قرآنية تخبر عن هذا الشخص أنَّه لن يُسلِم هو وزوجته وأنَّهما من أصحاب النار، ولم تخبر عن كثير من أمثاله ممَّن أسلم بعد ذلك.

قال تعالى: ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝٥ ﴾ [المسد:٥].

ألم يكن متوقعًا في ظن البشر أن يسلما ويندما ويتوبا كما أسلم غيرهما وتاب إلى الله ﷻ مع أنه عاش بعد نزول هذه السورة قرابة ثمان سنوات ؟!

لكن الله ﷻ الذي يعلم الغيب، هو الذي أخبر، وخبره حق، فقد ماتا على الكفر وأسلم كثير من أمثالهما، فدلَّ هذا على أنَّ هذا القرآن من عند الله ﷻ.

قال ابن الجوزي: (وفي هذا دلالة على صحة نبوة نبينا عليه الصلاة والسلام، لأنه أخبر بهذا المعنى أنه وزوجته يموتان على الكفر، فكان كذلك. إذ لو قالا بألسنتهما: قد أسلمنا، لوجد الكفار متعلقًا في الرد على رسول الله ﷺ، غير أن الله علم أنهما لا يسلمان باطنًا ولا ظاهرًا، فأخبره بذلك)[1].

وقال البيضاوي: (ومات أبو لهب بالعدسة بعد وقعة بدر بأيام معدودة، وترك ثلاثًا حتى أنتن، ثم استأجروا بعض السودان حتى دفنوه، فهو إخبار عن الغيب طابقه وقوعه)[2].

٧- أخبر الله ﷻ أنَّ القرآن سيبقى محفوظًا من الزيادة والنقصان والضياع مع أنَّ

---

(1) تفسير زاد المسير: (٩/ ٢٦٠).

(2) تفسير البيضاوي: (٥/ ٥٤٤).

الكتب التي سبقته قد تعرضت للضياع والتحريف والزيادة والنقص.

قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ۝ ﴾ [الحجر:٩].

قال الطبري: (يقول تعالى ذكره: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ ﴾ [الحجر:٩] وهو القرآن، ﴿ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ۝ ﴾ [الحجر:٩] قال: وإنا للقرآن لحافظون من أن يزاد فيه باطل مَّا ليس منه، أو ينقص منه ما هو منه من أحكامه وحدوده وفرائضه. والهاء في قوله: «لَهُ» من ذكر الذكر)[1].

وقال الرازي: (واعلم أنه لم يتفق لشيء من الكتب مثل هذا الحفظ، فإنه لا كتاب إلا وقد دخله التصحيف والتحريف والتغيير، إما في الكثير منه أو في القليل، وبقاء هذا الكتاب مصونًا عن جميع جهات التحريف مع أن دواعي الملحدة واليهود والنصارى متوافرة على إبطاله وإفساده من أعظم المعجزات، وأيضًا أخبر الله تعالى عن بقائه محفوظًا عن التغيير والتحريف، وانقضى الآن قريبًا من ستمائة سنة فكان هذا إخبارًا عن الغيب، فكان ذلك أيضًا معجزًا قاهرًا)[2].

قلت: وها نحن في القرن الخامس عشر نقرأ القرآن غضًا طريًا كما أنزل ولم يستطع أحد أن يزيد فيه أو أن ينقص منه رغم اتساع رقعة العالم وتفنن الأعداء في المكر ووسائل التزوير.

وهذا يؤكد أن هذا الكتاب من عند الله عز وجل.

٨- عندما أنزل الله عز وجل القرآن جعله هو الدليل على صدق نبوة محمد ﷺ، وطلب

(1) تفسير الطبري: (٦/ ١٤).

(2) تفسير الرازي: (١٩/ ١٢٤).

من الناس إن كانوا مكذبين أن يقولوا قولًا مثل القرآن أو مثل عشر سور منه، أو مثل سورة واحدة منه لإبطال الدليل، ثمَّ إنَّه أضاف إلى هذا التحدي خبرًا مؤكدًا أنَّهم لن يفعلوا فتحقق ما أخبر به عز وجل.

قال تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [البقرة:٢٤].

ولم يجرؤ أحد من الكفار أن يعلن أنَّه سيعارض القرآن رغم حرصهم الشديد على حرب الإسلام وإبطاله، فدل على أنَّ هذا الخبر ليس من البشر وإنَّما هو من خالق البشر سبحانه.

قال الطبري رحمه الله: (يعني تعالى بقوله: ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا ﴾ [البقرة:٢٤]: إن لم تأتوا بسورة من مثله، وقد تظاهرتم أنتم وشركاؤكم عليه وأعوانكم. فتبين لكم بامتحانكم واختباركم عجزكم وعجز جميع خلقي عنه، وعلمتم أنه من عندي، ثم أقمتم على التكذيب به.

وقوله: ﴿ وَلَن تَفْعَلُوا ﴾ [البقرة:٢٤] أي: لن تأتوا بسورة من مثله أبدًا[1].

وقال القرطبي رحمه الله: (وفي قوله: ﴿ وَلَن تَفْعَلُوا ﴾ [البقرة:٢٤] إثارة لهممهم، وتحريك لنفوسهم؛ ليكون عجزهم بعد ذلك أبدع، وهذا من الغيوب التي أخبر بها القرآن قبل وقوعها)[2].

---

(1) تفسير الطبري: (١/ ١٣١).

(2) تفسير القرطبي: (١/ ٢٣٣).

وقال الـرازي رحمه الله: (ولما كانـت نبـوة محمـد ﷺ مبنيـة عـلى كـون القـرآن معجـزًا أقـام الدلالة على كونه معجزًا.

واعلم أن كونه معجزًا يمكن بيانه من طريقين:

الأول: أن يقال: إن هذا القرآن لا يخلو حاله من أحد وجوه ثلاثة:

إما أن يكون مساويًا لسائر كلام الفصحاء.

أو زائدًا على سائر كلام الفصحاء بقدر لا ينقض العادة.

أو زائدًا عليه بقدر ينقض.

والقسمان الأولان باطلان، فتعين الثالث.

وإنما قلنا إنهما باطلان، لأنه لو كان كذلك لكـان مـن الواجـب أن يـأتوا بمثـل سـورة منه إما مجتمعين أو منفردين، فإن وقع التنازع وحصل الخـوف مـن عـدم القبـول فالـشهود والحكام يزيلون الشبهة، وذلك نهاية في الاحتجاج، لأنهم كانوا في معرفة اللغـة والاطـلاع على قوانين الفصاحة في الغاية، وكانوا في محبة إبطال أمـره في الغايـة، حتـى بـذلوا النفـوس والأموال، وارتكبوا ضروب المهالك والمحن، وكانوا في الحمية والأنفة على حدٍ لا يقبلـون الحق فكيف الباطل!

وكل ذلك يوجب الإتيان بما يقدح في قوله، والمعارضة أقوى القوادح.

فلما لم يأتوا بها علمنا عجزهم عنها، فثبـت أن القـرآن لا يماثـل قـولهم، وأن التفـاوت بينه وبين كلامهم ليس تفاوتًا معتـادًا، فهـو إذن تفـاوت نـاقض للعـادة، فوجـب أن يكـون معجزًا....) إلى أن قال:

(الطريق الثاني: أن نقول: القرآن لا يخلو إما أن يقال: إنـه كـان بالغًـا في الفـصاحة إلى حد الإعجاز.

أو لم يكن كذلك.

فإن كان الأول ثبت أنه معجز، وإن كان الثاني كانت المعارضة على هذا التقدير ممكنة.

فعدم إتيانهم بالمعارضة مع كون المعارضة ممكنة ومع توفر دواعيهم على الإتيان بها أمر خارق للعادة، فكان ذلك معجزًا.

فثبت أن القرآن معجز على جميع الوجوه، وهذا الطريق عندنا أقرب إلى الصواب)[1].

وقال ابن كثير رحمه الله: (قال تعالى: ﴿ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ ﴾ [البقرة:٢٤] و«لن» لنفي التأبيد في المستقبل. أي: ولن تفعلوا ذلك أبدًا.

وهذه أيضًا معجزة أخرى، وهو أنه أخبر خبرًا جازمًا قاطعًا مقدمًا غير خائف ولا مشفق أن هذا القرآن لا يعارض بمثله أبد الآبدين ودهر الداهرين، وكذلك وقع الأمر، لم يعارض من لدنه إلى زماننا هذا ولا يمكن، وأنى يتأتى ذلك لأحد والقرآن كلام الله خالق كل شيء، وكيف يشبه كلام الخالق كلام المخلوقين.

ومن تدبر القرآن وجد فيه من وجوه الإعجاز فنونًا ظاهرة وخفية من حيث اللفظ ومن جهة المعنى، قال الله تعالى: ﴿ الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ١ ﴾ [هود:١] فأحكمت ألفاظه، وفصلت معانيه أو بالعكس على الخلاف.

فكل من لفظه ومعناه فصيح لا يجارى ولا يدانى.

فقد أخبر عن مغيبات ماضية كانت ووقعت طبق ما أخبر سواء بسواء، وأمر بكل

(١) تفسير الرازي: (٣/ ٣٤٧).

خير، ونهى عن كل شر، كما قال تعالى: ﴿ وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗاۚ ﴾ [الأنعام:١١٥]. أي: صدقًا في الأخبار، وعدلًا في الأحكام، فكله حق وصدق، وعدل وهدى، ليس فيه مجازفة ولا كذب ولا افتراء كما يوجد في أشعار العرب وغيرهم من الأكاذيب والمجازفات التي لا يحسن شعرهم إلا بها، كما قيل في الشعر: إن أعذبه أكذبه...)[1].

٩- عندما أعلن النبي ﷺ الإسلام، وأعلن أنَّ دين قريش باطل، وسفَّه أحلامهم، وأبطل عقائدهم، لا شكَّ أنَّ هذا من أكبر الدوافع للانتقام، خاصة من مثل قريش التي تشعر بالعزة والأنفة والحمية.

ثمَّ كذلك أصحاب الديانات الأخرى، كاليهود الذين كانوا في المدينة، أو النصارى الذين كانوا في نجران[2]، فقد أبطل عقائدهم، وسفَّه آراءهم في الخالق سبحانه، وأخبر عن تحريفهم كتبهم، وأعلن انتهاء دينهم بنزول الإسلام، وهذا لا شك من أكبر الدوافع للانتقام.

في هذه الظروف أنزل الله عز وجل هذه الآية:

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [المائدة:٦٧].

وقد تحقق وعد الله عز وجل رغم محالاوت كثيرة وقعت من أعدائه من قريش ومن غيرهم ومن أهل الكتاب في المدينة، ورغم الحروب التي خاضها النبي ﷺ مع خصومه، ثم كان موته ﷺ موتًا طبيعيًا.

(1) تفسير ابن كثير: (١/ ١٠٧).

(2) نجران مدينة تقع جنوب مكة تبعد عنها بأكثر من أربعمائة ميل.

فمن يستطع أن يجزم بمثل هذا لو لم يكن القرآن من عند الله عز وجل ؟!

قال الشوكاني رحمه الله: (وقد بلَّغ رسول الله ﷺ لأمته ما نُزِّل إليهم، وقال لهم في غير موطن: هل بلغت؟ فيشهدون له بالبيان، فجزاه الله عن أمته خيرًا.

ثم إن الله سبحانه وعده بالعصمة من الناس دفعًا لما يظنّ أنه حاملٌ على كَتْمِ البيان، وهو خوف لحوق الضرر من الناس، وقد كان ذلك بحمد الله، فإنه بين لعباد الله ما نزل إليهم على وجه التمام... إلى أن قال: وقتل صناديد الشرك، وفرّق جموعهم، وبدّد شملهم، وكانت كلمة الله هي العليا، فأسلم كل من نازعه ممن لم يسبق فيه السيف العذل، حتى قال يوم الفتح لصناديد قريش وأكابرهم: ما تظنون أني فاعل بكم؟ فقالوا: أخ كريم وابن أخ كريم، فقال: اذهبوا فأنتم الطلقاء. وهكذا من سبقت له العناية من علماء هذه الأمة يعصمه الله من الناس)[1].

وقال أبو حيان رحمه الله: (وتضمنت هذه الجملة الإخبار بمُغيَّبٍ ووجد على ما أخبر به، فلم يصل إليه أحد بقتل ولا أسر مع قصد الأعداء له مغالبة واغتيالًا. وفيه دليل على صحة نبوّته، إذ لا يمكن أن يكون إخباره بذلك إلا من عند الله تعالى، وكذا جميع ما أخبر به)[2].

١٠- في الخطاب الموجه إلى اليهود الذين كذبوا النبي ﷺ، فقد تحداهم أن يطلبوا الموت إن كانوا على الحق، وأخبرهم أنهم لن يطلبوه.

قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ

(1) فتح القدير: (٢/ ٨٧).

(2) تفسير البحر المحيط: (٣/ ٥٤٠).

ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوۡهُ أَبَدَۢا بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾[البقرة:٩٥].

قال أبو حيان ﷺ: «﴿ وَلَن يَتَمَنَّوۡهُ أَبَدَۢا بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ ﴾ [البقرة:٩٥]: هذا من المعجزات، لأنه إخبار بالغيب، ونظيره من الإخبار بالمغيب قوله: ﴿ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ ﴾[البقرة:٢٤] [1]».

وقال الشوكاني ﷺ: «وقوله: ﴿ قُلۡ إِن كَانَتۡ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ ﴾[البقرة:٩٤] هو ردّ عليهم لما ادّعوا أنهم يدخلون الجنة ولا يشاركهم في دخولها غيرهم، وإلزام لهم بما يتبين به أنهم كاذبون في تلك الدعوى، وأنها صادرة منهم لا عن برهان... إلى أن قال: والمراد بالتمني هنا: هو التلفظ بما يدل عليه، لا مجرد خطوره بالقلب، وميل النفس إليه، فإن ذلك لا يراد في مقام المحاجة، ومواطن الخصومة، ومواقف التحدي، وفي تركهم للتمني، أو صرفهم عنه معجزة لرسول الله ﷺ، فإنهم قد كانوا يسلكون من التعجرف والتجرؤ على الله وعلى أنبيائه بالدعاوى الباطلة في غير موطن ما قد حكاه عنهم التنزيل، فلم يتركوا عادتهم هنا إلا لما قد تقرّر عندهم من أنهم إذا فعلوا ذلك التمني نزل بهم الموت، إما لأمر قد علموه، أو للصرفة من الله ﷻ)[2].

وقال ابن عاشور ﷺ : (وهذا بالنسبة إلى اليهود المخاطبين زمن النزول ظاهر؛ إذ لم ينقل عن أحد منهم أنه تمنى الموت كما أخبرت الآية.

وهي أيضًا من أعظم الدلائل عند أولئك اليهود على صدق الرسول ﷺ، فإنهم قد

---

(1) تفسير البحر المحيط: (١/ ٤٧٩)

(2) فتح القدير: (١/ ١٨٠).

أيقن كل واحد منهم أنه لا يتمنى الموت، وأيقن أن بقية قومه لا يتمنونه، لأنه لو تمناه أحد لأعلن بذلك، لعلمهم بحرص كل واحد منهم على إبطال حكم هذه الآية، ويفيد بذلك إعجازًا عامًا على تعاقب الأجيال كما أفاد عجز العرب عن المعارضة علم جميع الباحثين بأن القرآن معجز وأنه من عند الله)[1].

الوجه الرابع: سلامته من التناقض:

قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ [النساء:٨٢].

قال الشوكاني رحمه الله: (﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ [النساء:٨٢] أي: تفاوتًا وتناقضًا)[2].

وقال الرازي رحمه الله في المسألة الثانية من المسائل التي تدل عليها الآية:

(اعلم أن ظاهر الآية يدل على أنه تعالى احتج بالقرآن على صحة نبوة محمد ﷺ، إذ لو لم تحمل الآية على ذلك لم يبق لها تعلق بما قبلها ألبتة، والعلماء قالوا:

دلالة القرآن على صدق محمد ﷺ من ثلاثة أوجه:

أولها: فصاحته.

وثانيها: اشتماله على الإخبار عن الغيوب.

والثالث: سلامته عن الاختلاف، وهذا هو المذكور في هذه الآية.

---

(1) التحرير والتنوير: (١/ ٣٥٤).

(2) فتح القدير: (١/ ٧٤١).

ثم القائلون بهذا القول ذكروا في تفسير سلامته عن الاختلاف ثلاثة أوجه:

الأول: قال أبو بكر الأصم: معناه أن هؤلاء المنافقين كانوا يتواطئون في السر على أنواع كثيرة من المكر والكيد، والله تعالى كان يُطْلع الرسول عليه الصلاة والسلام على تلك الأحوال حالًا فحالًا، ويخبره عنها على سبيل التفصيل، وما كانوا يجدون في كل ذلك إلا الصدق، فقيل لهم: إن ذلك لو لم يحصل بإخبار الله تعالى وإلا لما اطرد الصدق فيه، ولظهر في قول محمد أنواع الاختلاف والتفاوت، فلما لم يظهر ذلك علمنا أن ذلك ليس إلا بإعلام الله تعالى.

الثاني: وهو الذي ذهب إليه أكثر المتكلمين: أن المراد منه أن القرآن كتاب كبير، وهو مشتمل على أنواع كثيرة من العلوم، فلو كان ذلك من عند غير الله لوقع فيه أنواع من الكلمات المتناقضة؛ لأن الكتاب الكبير الطويل لا ينفك عن ذلك، ولما لم يوجد فيه ذلك علمنا أنه ليس من عند غير الله...

الوجه الثالث: في تفسير قولنا: القرآن سليم عن الاختلاف: ما ذكره أبو مسلم الأصفهاني، وهو أن المراد منه الاختلاف في رتبة الفصاحة، حتى لا يكون في جملته ما يعد في الكلام الركيك، بل بقيت الفصاحة فيه من أوله إلى آخره على نهج واحد، ومن المعلوم أن الإنسان وإن كان في غاية البلاغة ونهاية الفصاحة، فإذا كتب كتابًا طويلًا مشتملًا على المعاني الكبيرة، فلا بد وأن يظهر التفاوت في كلامه بحيث يكون بعضه قويًا متينًا وبعضه سخيفًا نازلًا، ولما لم يكن القرآن كذلك علمنا أنه المعجز من عند الله تعالى)[1].

وقال ابن عاشور ﵀: (تحدّى الله تعالى هؤلاء بمعاني القرآن كما تحدّاهم بألفاظه لبلاغته، إذ كان المنافقون قد شكّوا في أنّ القرآن من عند الله، فلذلك يظهرون الطاعة بما

(1) تفسير الرازي: (١٠/ ١٧٢-١٧٣).

يأمرهم به، فإذا خرجوا من مجلس النبي ﷺ خالفوا ما أمرهم به لعدم ثقتهم، ويشكّكون ويشكّون إذا بدا لهم شيء من التعارض، فأمرهم الله تعالى بتدبر القرآن، كما قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ﴾[آل عمران:٧] الآية.

والتدبّر مشتقّ من الدُّبر. أي: الظَّهر، اشتقّوا من الدُّبر فعلًا، فقالوا: تدبّر إذا نظر في دبر الأمر، أي: في غائبه أو في عاقبته، فهو من الأفعال التي اشتقّت من الأسماء الجامدة.

والتدبّر يتعدّى إلى المتأمَّل فيه بنفسه.

يقال: تدبّر الأمَر. فمعنى ﴿ يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ ﴾ [النساء:٨٢] يتأمّلون دلالته، وذلك يحتمل معنيين:

أحدهما: أن يتأمّلوا دلالة تفاصيل آياته على مقاصده التي أرشد إليها المسلمين، أي: تدبّر تفاصيله.

وثانيهما: أن يتأمّلوا دلالة جملة القرآن ببلاغته على أنّه من عند الله، وأنّ الذي جاء به صادق.

وسياق هذه الآيات يرجّح حمل التدبُّر هنا على المعنى الأول. أي: لو تأمّلوا وتدبّروا هدي القرآن لحصل لهم خير عظيم.

وقوله: ﴿ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ ﴾[النساء:٨٢]... إلخ يجوز أن يكون عطفًا على الجملة الاستفهامية، فيكونوا أمروا بالتدبّر في تفاصيله، وأعلموا بما يدلّ على أنّه من عند الله، وذلك انتفاء الاختلاف منه، فيكون الأمر بالتدبّر عامًّا، وهذا جزئيّ من جزئيات التدبّر ذُكر هنا انتهازًا لفرصة المناسبة لغَمْرهم بالاستدلال على صدق الرسول، فيكون زائدًا على الإنكار المسوق له الكلام، تعرّض له لأنّه من المهمّ بالنسبة إليهم إذ كانوا في شكّ من أمرهم....

والاختلاف يظهر أنّه أريد به: اختلاف بعضه مع بعض، أي: اضطرابه. ويحتمل أنّه:اختلافه مع أحوالهم، أي: لوجدوا فيه اختلافًا بين ما يذكره من أحوالهم وبين الواقع، فليكتفوا بذلك في العلم بأنّه من عند الله، إذ كان يصف ما في قلوبهم وصفَ المطّلع على الغيوب، وهذا استدلال وجيز وعجيب قُصد منه قطعُ معذرتهم في استمرار كفرهم)[1].

فالقرآن الذي أُنزل في أكثر من عشرين سنة وهو يخبر بالمغيبات الحاضرة والسابقة والآتية، ويشرع الشرائع لم يختلف بعضه عن بعض، فلم يختلف خبره، ولم تتناقض أحكامه، ولم تضعف بلاغته...إلى غير ذلك من أوصافه التي تدل دلالة بينة على أنه من عند الله عزّ وجلّ، وإلا لوقع فيه الاختلاف الذي هو من عوارض أفعال البشر وأقوالهم.

الوجه الخامس: عتاب القرآن للنبي ﷺ على بعض أعماله:

اشتمل القرآن الكريم على عتاب النبي ﷺ في عدة مواطن وتخطئته في بعض الأعمال، والذي يدَّعي الزعامة لنفسه عادةً يحاول أن يعظِّم نفسه ويظهرها في مظهر العظماء حتَّى يخضع الناس له، فلو كان النبي محمد ﷺ من هؤلاء لفعل مثل فعلهم، لكنَّه لم يكن صاحب زعامة إنَّما كان عبدًا رسولًا يبلغ ما يأمره به ربه عزّ وجلّ، والقرآن ليس من قبله ولا يستطيع تغيير شيء من آياته ولا يضيف إليه ما ليس منه.

قال تعالى: ﴿ وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ۝٤٤ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ۝٤٥ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ ۝٤٦ فَمَا مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ عَنۡهُ حَٰجِزِينَ ۝٤٧ ﴾ [الحاقة:٤٤-٤٧].

وفيما يلي نماذج من ذلك العتاب:

أولاً: قصته ﷺ مع الأعمى:

(١) التحرير والتنوير: (١/ ٩٩٤).

كان النبي ﷺ جالسًا مع زعماء قريش يدعوهم إلى الإسلام، فجاء في ذات الوقت رجلٌ أعمى من المسلمين يطلب من النبي ﷺ أن يعلمه شيئًا من الدين، والأعمى ربَّما لا يدري أنَّ النبي ﷺ مشغول بمحاولة إقناع الزعماء بالإسلام، لينصر الله بهم الدين، فكره النبي ﷺ ذلك منه وعبس في وجهه، مع أنَّ الأعمى لا يرى تعبيسه ﷺ، والنبي لم يزجره ولم يغلظ له في القول، وإنَّما انصرف عنه إلى الزعماء، ومع ذلك أنزل الله عز وجل آيات يعاتب فيها النبي ﷺ في موقفه من هذا المسلم الأعمى، ولو كان طمعًا في إسلام الزعماء؛ لأنَّ المسلم الذي جاء يتعلم دينه أولى بالاشتغال به عن غيره في ميزان الله عز وجل[1].

قال تعالى: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخۡشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠ ﴾ [عبس:١-١٠].

فقرأ النبي ﷺ آيات العتاب على أصحابه، وهي تعاتبه وتخطؤه هو، وما كان لرجلٍ عظيم جاء يدعو الناس ليتبعوه ليقول قولًا يخطؤه وينقد فعله؛ لأنَّ ذلك يقلِّل من مكانته بين أتباعه، فدل ذلك على أن هذا خطاب موجه من خالق عظيم عز وجل، يوجه عبده ويصحح موقفه، ويقرر قيمة اجتماعية لأتباع هذا الدين لاتفرق بين قوي وضعيف، وهو سبحانه يشرع لرسوله ولعباده، ولا يستطيع محمد ﷺ -وهو عبده ورسوله- مخالفة أمره أو إخفاء خطابه عز وجل.

روى الطبري عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ۝٢ ﴾ [عبس:١-٢].

(1) روى القصة الترمذي (ح: ٣٣٣١)، وصححها الشيخ الألباني.

قال: بينا رسول الله ﷺ يناجي عُتبة بن ربيعة، وأبا جهل بن هشام، والعباس بن عبد المطلب، وكان يتصدّى لهم كثيرًا، ويَحرِص عليهم أن يؤمنوا، فأقبل إليه رجل أعمى يقال له: عبد الله ابن أم مكتوم، يمشي وهو يناجيهم، فجعل عبد الله يستقرىء النبيّ ﷺ آية من القرآن، وقال: يا رسول الله! عَلِّمني مما علَّمك الله، فأعرض عنه رسول الله ﷺ، وعبس في وجهه وتولّى، وكرِه كلامه، وأقبل على الآخرين، فلما قضى رسول الله ﷺ وأخذ ينقلب إلى أهله، أمسك الله بعض بصره، ثم خَفَق برأسه، ثم أنزل الله: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ ﴾، فلما نزل فيه أكرمه رسول الله ﷺ وكلَّمه، وقال له: «ما حاجَتُك، هَلْ تُرِيدُ مِنْ شَيْءٍ؟» وإذا ذهب من عنده قال له: «هل لك حاجة في شيء؟» [1].

قال ابن كثير بعد أن ذكر سبب نزول الآية: (ومن ههنا أمر الله تعالى رسوله ﷺ ألا يخص بالإنذار أحدًا، بل يساوي فيه بين الشريف والضعيف، والفقير والغني، والسادة والعبيد، والرجال والنساء، والصغار والكبار، ثم الله تعالى يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، وله الحكمة البالغة، والحجة الدامغة)[2].

ثانيًا: قصته ﷺ مع متبناه زيد:

كان من عادة العرب قبل الإسلام «التبني». أي: أن ينسب الشخص ولد غيره إلى نفسه، فيكون أبًا له بالتبني، فلمّا جاء الإسلام حرَّم هذا العمل، وأمر بأن يُنسَب الشخص إلى أبيه الحقيقي.

وكان النبي محمد عليه الصلاة والسلام قبل نزول الوحي إليه قد تبنَّى شخصًا اسمه

---

(1) تفسير الطبري: (٣٠/ ٥٣).

(2) تفسير ابن كثير: (٨/ ٣٢٠).

«زيد» وكان يُدعى «زيد بن محمد»، فأعاد اسمه إلى أبيه (زيد بن حارثة).

وفي المدينة زوَّج النبي ﷺ ابنة عمَّته «زينب» إلى هذا الشخص «زيد» ولم يستطع زيد الاستمرار معها في الزواج لعدم قناعتها به، واعتقادها أنَّها أشرف منه نسبًا، وكان زيد يستشير النبي ﷺ في طلاقها، وكان قد جاءه الوحي من الله ﷻ بأنَّ زيدًا سيطلقها، وأنت تتزوجها، وكلمَّا جاء زيد يستأذن في الطلاق يصبّره النبي ﷺ ويخفي ما علِمَه من الوحي حرجًا من زيد، وممَّا اعتادت العرب عليه من كراهة تزوج الرجل لزوجة متبناه، فأنزل الله ﷻ آياتٍ عتابًا في ذلك[1].

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ ﴾[الأحزاب:٣٧].

فهذا العتاب الشديد ما كان ليقوله أحدٌ لنفسه أمام أتباعه لو لم يكن صادرًا من الله ﷻ. قالت عائشة زوج النبي ﷺ: (لو كان كاتمًا شيئًا ممَّا أُنْزِل عليه لكتم هذه الآية) وقرأت الآية السابقة[2].

قال أبو حيان رحمه الله: (وقال علي بن الحسين: كان قد أوحى الله إليه أن زيدًا سيطلقها، وأنه يتزوجها بتزويج الله إياها، فلما شكا زيد خلقها، وأنها لا تطيعه، وأعلمه بأنه يريد طلاقها، قال له: ﴿ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ ﴾ [الأحزاب:٣٧]، على طريق الأدب

(1) ذكر ذلك البخاري (ح: ٤٧٨٧)، ومسلم (ح: ١٧٧).
(2) رواه مسلم (ح: ١٧٧).

والوصية، وهو يعلم أنه سيطلقها. وهذا هو الذي أخفى في نفسه، ولم يرد أنه يأمره بالطلاق، ولما علم من أنه سيطلقها، وخشي رسول الله أن يلحقه قول من الناس في أن يتزوج زينب بعد زيد، وهو مولاه، وقد أمره بطلاقها، فعاتبه الله على هذا القدر في شيء قد أباحه الله بأن قال: ﴿ أَمۡسِكۡ ﴾ [الأحزاب:٣٧]، مع علمه أنه يطلق، فأعلمه أن الله أحق بالخشية. أي: في كل حال)[1].

وهذا المروي عن علي بن الحسين، هو الذي عليه أهل التحقيق من المفسرين[2].

والأثر الذي أورده أبو حيان ذكره البغوي قبله.

ثالثًا: تحريم النبي ﷺ العسل على نفسه إرضاءً لزوجاته:

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝ قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡۚ وَٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ۝ ﴾ [التحريم:٢].

عن عُبَيدِ بن عُميرٍ قال: «سمعتُ عائشةَ رضي الله عنها أنَّ النبيَّ ﷺ كان يَمكُثُ عند زينبَ ابنةِ جحشٍ وَيَشرَبُ عندَها عسلًا، فتواصَيتُ أنا وَحَفصة أنَّ أيتنا دخلَ عليها النبيُّ ﷺ فلْتَقل: إني لأجِدُ منك رِيحَ مَغافير، أكلتَ مغافير؟! فدخل على إحداهما فقالت له ذلك. فقال: لا بأس، شربتُ عَسَلًا عند زينب ابنةِ جَحش، ولن أعود له. فنزَلت: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝ قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡۚ وَٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ۝ وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ حَدِيثٗا فَلَمَّا نَبَّأَتۡ بِهِۦ وَأَظۡهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ عَرَّفَ بَعۡضَهُۥ وَأَعۡرَضَ عَنۢ بَعۡضٖۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتۡ مَنۡ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ۝ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ

(1) البحر المحيط: (٩/ ١٥٥).

(2) رواه البخاري: (ح:٥١٤٦) ومسلم:(ح: ٣٦٣٣).

ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾ ﴾ [التحريم:١-٤] لعائشة وحفصةَ: ﴿ وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ حَدِيثٗا ﴾ [التحريم:٣] لقولِهِ: بل شربتُ عسلًا».

قال الطبري:

(يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ : يا أيها النبيّ المحرّم على نفسه ما أحلّ الله له، يبتغي بذلك مرضاة أزواجه، لم تحرّم على نفسك الحلال الذي أحله الله لك، تلتمس بتحريمك ذلك مرضاة أزواجك)؟!

قال الشوكاني:

﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١﴾ ﴾ [التحريم:١] أي: بليغ المغفرة والرحمة لما فرط منك من تحريم ما أحلّ الله لك، قيل: وكان ذلك ذنبًا من الصغائر، فلذا عاتبه الله عليه، وقيل: إنها معاتبة على ترك الأولى).

وقال كذلك:

(فالتحليل والتحريم هو إلى الله سبحانه لا إلى غيره، ومعاتبته لنبيه ﷺ في هذه السورة أبلغ دليل على ذلك) [1].

قال الثعالبي:

(ودَعَا الله تعالى نبيَّه باسْم النبوَّةِ الذي هو دالٌّ على شَرَفِ مَنْزِلَتِه وَفَضِيلَتِه التي خَصَّهُ بِهَا، وقرَّره تعالى كالمُعَاتِبِ له على تحريمِهِ عَلى نفسِه مَا أحلَّ الله له، ثم غَفَرَ لَه تَعَالَى مَا عَاتَبه

---

(1)فتح القدير: (٥:٣٣٢)

فيه ورَحِمَه)[1].

هذا العتاب يستحيل أن يصدر من غير الخالق ولا يمكن أن يوجد أي مبرر أن يعاتب الإنسان نفسه بمثل هذا العتاب في أمر وقع سرًا بينه وبين أزواجه.

وهذا يؤكد أن هذا العتاب إنما هو من رب عظيم يعاتب عبده.

ثم هذا العتاب لا ينقص من مكانته صلوات الله وسلامه عليه عند ربه، بل يدل على محبة الله عز وجل له، فهو يختار له الأفضل الذي يقدره له ربه عز وجل.

فهنيئًا لمن يتولى ربه عز وجل رعايته وتربيته بنفسه صلوات الله وسلامه عليه.

رابعًا: حادثة الأسرى:

قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾﴾ [الأنفال:٦٩].

نزلت هذه الآيات بعد غزوة بدر التي وقعت في السنة الثانية من الهجرة، وهي أول غزوة وقعت بين المسلمين وأعدائهم من مشركي قريش، وقد انتصر فيها المسلمون، وأسروا قرابة السبعين من المشركين، ثم إن النبي ﷺ استشار أصحابه في الأسرى فانقسموا إلى قسمين:

قسم: يرى أن يقتلوا جميعًا لأنهم قد آذوا الله ورسوله، وآذوا المؤمنين، وأخرجوهم من ديارهم ومثل هؤلاء لاينبغي أن يعفى عنهم، وقد ذهب إلى هذا الرأي عمر بن الخطاب رضي الله عنه وجماعة من الصحابة.

---

(1) تفسير الثعالبي: (٤/ ٣١٥).

وقسم آخر: يرى أن يؤخذ منهم فدية ويطلق سراحهم، وذلك لكونهم من أهلهم وعشيرتهم ولشدة فقر المسلمين وحاجتهم - خاصة المهاجرين الذين خرجوا من ديارهم وأموالهم - وقد ذهب إلى هذا الرأي أبو بكر الصديق ﷺ وجماعة من الصحابة، فمال النبي ﷺ الى هذا الرأي إذ الأمر في التقدير البشري هو الرأي الذي يناسب الحال، وقد ينتهي ذلك إلى إسلامهم ودخولهم في الإسلام.

ولما كان الله ﷻ أراد قدرًا أن يتم هذا الرأي فإنه أخّر العتاب، ولو أراد سبحانه أن لا يؤخذ به لأنزل نهيًا قبل تحققه، ولاشك أن في تأخيره سبحانه العتاب والنهي عن مثل هذا الفعل مرة أخرى حكمًا كثيرة منها:

١) أن هناك أمورًا خفية في نفوس بعض الصحابة تحتاج إلى علاج وعتاب، ولا يتحقق ذلك إلا بعد ظهوره في مثل هذا الاجتهاد: ﴿ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْأَخِرَةَ ﴾ [الأنفال:٦٧].

٢) أن النبي محمدًا ﷺ عبد رسول ليس له من الأمر شيء، والذي يشرع هو الله ﷻ.

٣) أن القران من عند الله ﷻ وليس للرسول إلا إبلاغه.

٤)أن الله ﷻ قد أراد ما وقع قدرًا، وإن كان لا يحبه شرعًا لما يترتب عليه من حكم؛ والله أعلم.

روى مسلم بسنده عن عمر بن الخطاب ﷺ في سبب نزول هذه الآية فقال في حديث طويل: «فَلَمَّا أَسَرُوا الأُسَارَىٰ قَالَ رَسُولُ اللهِ لأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ: مَا تَرَوْنَ فِي هَـٰؤُلاَءِ الأُسَارَىٰ؟

فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا نَبِيَّ اللهِ! هُمْ بَنُو الْعَمِّ وَالْعَشِيرَةِ، أَرَىٰ أَنْ تَأْخُذَ مِنْهُمْ فِدْيَةً، فَتَكُونُ لَنَا

قُوَّةً عَلَى الْكُفَّارِ، فَعَسَىٰ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُمْ لِلإِسْلاَمِ.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: مَا تَرَىٰ؟ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ! قُلْتُ: لاَ. وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ! مَا أَرَى الَّذِي رَأَىٰ أَبُو بَكْرٍ، وَلٰكِنِّي أَرَىٰ أَنْ تُمَكِّنَّا فَنَضْرِبَ أَعْنَاقَهُمْ، فَتُمَكِّنَ عَلِيًّا مِنْ عَقِيلٍ فَيَضْرِبَ عُنُقَهُ، وَتُمَكِّنِّي مِنْ فُلاَنٍ (نَسِيبًا لِعُمَرَ) فَأَضْرِبَ عُنُقَهُ. فَإِنَّ هٰؤُلاَءِ أَئِمَّةُ الْكُفْرِ وَصَنَادِيدُهَا.

فَهَوِيَ رَسُولُ اللهِ مَا قَالَ أَبُو بَكْرٍ، وَلَمْ يَهْوَ مَا قُلْتُ.

فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ جِئْتُ، فَإِذَا رَسُولُ اللهِ وَأَبُو بَكْرٍ قَاعِدَيْنِ يَبْكِيَانِ. قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! أَخْبِرْنِي مِنْ أَيِّ شَيْءٍ تَبْكِي أَنْتَ وَصَاحِبُكَ، فَإِنْ وَجَدْتُ بُكَاءً بَكَيْتُ، وَإِنْ لَمْ أَجِدْ بُكَاءً تَبَاكَيْتُ لِبُكَائِكُمَا.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: أَبْكِي لِلَّذِي عَرَضَ عَلَيَّ أَصْحَابُكَ مِنْ أَخْذِهِمُ الْفِدَاءَ. لَقَدْ عُرِضَ عَلَيَّ عَذَابُهُمْ أَدْنَىٰ مِنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ -شَجَرَةٍ قَرِيبَةٍ مِنْ نَبِيِّ اللهِ- وَأَنْزَلَ اللهُ عز وجل: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾ ﴾ [الأنفال:٦٩]» (1).

فنزلت هذه الآية بعد انتهاء المعركة واستشارة النبي ﷺ لأصحابه في الأسرى، فأشار بعضهم بعدم أخذها منهم وقتلهم جميعًا، وأشار البعض الآخر بأخذها وعدم قتلهم، فهوي النبي ﷺ هذا الرأي الأخير.

قال القرطبي رحمه الله: (هذه الآية نزلت يوم بدر، عتابًا من الله عز وجل لأصحاب نبيّه ﷺ.

والمعنى: ما كان ينبغي لكم أن تفعلوا هذا الفعل الذي أوجب أن يكون للنبيّ ﷺ

(1) صحيح مسلم: (ح ١٧٦٣).

أسرى قبل الإثخان)[1].

فالعتاب من الله ﷻ يربي عبده ومصطفاه ليرقى بأحاسيسه وتفكيره إلى قمة الكمال البشري إلى جانب تعليم الناس أنه عبد مأمور، وأنه يتلقى التوجيه والتعليم من ربه ﷻ.

وهذا يؤكد أن هذا القرآن من عند الله عزوجل.

خامسًا: صلاته ﷺ على المنافقين:

عندما قدم النبي ﷺ إلى المدينة أسلم كثير من أهلها وبقيت هناك طائفة لم تسلم، ولما رأت أن الإسلام ينمو وأن المسلمين يزيدون دخلت في الإسلام نفاقًا مع استمرارها في إيذاء النبي ﷺ والمؤمنين، وكان عبد الله بن أبي ابن سلول زعيم هذه الطائفة.

وفي العام التاسع توفي زعيم المنافقين هذا وكان ابنه (عبد الله) مسلمًا، فجاء إلى النبي ﷺ يطلب منه أن يصلي على أبيه ويدعو له، فجاء النبي ﷺ فصلَّى عليه تطييبًا لخاطر ابنه المؤمن وتأليفًا لقومه، فأنزل الله ﷻ آيات تنهاه عن الصلاة على أحد من المنافقين مرة أخرى.

قال تعالى: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ [التوبة:٨٤].

قال ابن كثير: (أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يبرأ من المنافقين، وأن لا يصلي على أحد منهم إذا مات، وألا يقوم على قبره ليستغفر له أو يدعو له، لأنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا عليه، وهذا حكم عام في كل من عرف نفاقه، وإن كان سبب نزول الآية في عبد الله

---

(1) تفسير القرطبي: (٨/ ٤٥).

بن أبي بن سلول رأس المنافقين كما قال البخاري. ثم ساق الحديث الآتي)[1].

وهذه قصته كما في الصحيحين :

عنِ ابن عمرَ رضي الله عنهما أنه قال: «لَمَّا تُوفي عبدُ الله بن أُبيّ جاء ابنهُ عبدُ الله بن عبدِ الله إلى رسولِ الله ﷺ فأعطاهُ قميصَه، وأمرَهُ أن يُكفِّنَه فيه، ثمَّ قامَ يصلِّي عليه، فأخذ عمرُ بن الخطاب بثوبِهِ فقال: تُصلِّي عليه وهو منافق، وقد نَهاك الله أن تَستغفِرَ لهم؟ قال: إنما خيَّرني الله – أو أخبرَني – فقال: ﴿ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴾ [التوبة:٨٠] فقال: سأزيدُهُ على سبعين.

قال: فصلى عليه رسولُ الله ﷺ وصلَّينا معه، ثم أنزلَ الله عليه: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ [التوبة:٨٤] [2].

هذه جملة من الأعمال عاتب الله عز وجل نبيه فيها وأعلنها النبي ﷺ، وبقيت تُتلى إلى قيام الساعة، ممَّا يؤكد أنَّ هذا القرآن من كلام الله عز وجل وليس من كلام محمد ﷺ.

ونؤكد مرة أخرى أن هذه التوجيهات والمعاتبات لا تنقص من قدره عليه الصلاة والسلام، بل تؤكد بشريته وعبوديته لخالقه وكماله البشري الذي يدل عليه قلة الخطأ لا عدمه، إذ عدم الخطأ لا يكون إلا للخالق عز وجل.

الوجه السادس: موضوعات القرآن:

تنقسم الموضوعات التي تحدث عنها القرآن الكريم إلى قسمين رئيسين، ثمَّ تأتي بقية الموضوعات الأخرى تابعة لأحد هذين القسمين.

---

(1) تفسير ابن كثير: (٤/ ١٦٩).

(2) صحيح البخاري (ح: ٤٥٥٤) ومسلم: (ح: ٦٩٧٦).

القسم الأول: العقائد (الجانب العلمي):

أي: الجانب العلمي الذي يجب على كل إنسان أن يَعلَمَه ويصدق به، وهو قاعدة للقسم الثاني، إذ بقدر وضوح هذا القسم بقدر ما تكون استقامة حياة الإنسان.

فالدين: علم وعمل، واستقامة العمل باستقامة العلم.

وتضمَّن هذا القسم القضايا الآتية:

أولاً: التعريف بالخالق سبحانه:

إنَّ أول ما يحتاجه الإنسان من المعارف هو «معرفة الله عز وجل »، وأصل هذه المعرفة فطرية في كل قلب لكنها معرفة إجمالية وليست معرفة تفصيليه، إذ المعرفة التفصيليه لا تأتي إلا عن طريق الأنبياء.

والقرآن الكريم قد تكفل ببيان هذه المعرفة حتى استبانت للعقل أتم بيان.

فذكر سبحانه أنَّه هو الخالق لهذا الوجود ولا يشاركه أحد في الخلق.

وهو وحده الرزَّاق لجميع المخلوقات الحية ابتداءً بالإنسان وانتهاء بأصغر جرثومة في الوجود.

كما أنَّه هو الذي يمسك السموات والأرض ويحفظهما من الاضطراب والسقوط.

وهو سبحانه يعلم كل شيء في هذا الوجود، ويعلم الأشياء التي ستقع متى تقع وكيف تقع، ولا يقع شيء في هذا الوجود إلا بإذنه سبحانه وأمره، ويعلم ما يسره الإنسان في نفسه ولا يظهره، وهو يرى كل شيء ويسمع كل صوت، فلا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

وهو عز وجل قوي قادر لا يعجزه شيء.

وهو سبحانه رحيم بخلقه لا يعاجلهم بالعقوبة إذا أذنبوا، بل يمهلهم، فإن تابوا

ورجعوا إليه تاب عليهم وغفر لهم ذنوبهم مهما كانت تلك الذنوب بدون واسطة بينه وبين خلقه، فهو التوَّاب الرحيم سبحانه.

ثم إنه سبحانه بعد أن عرّفنا بأسمائه وصفاته وأفعاله، وضع قاعده عظيمة لبيان عدم مماثلته سبحانه لخلقه، رغم مشاركة غيره من خلقه في بعض أسمائه وصفاته، فقال سبحانه ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى:١١]، وسمى بعض خلقه بأنه سميع بصير كما قال: ﴿ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ [الإنسان:٢]، ونحو ذلك من الأسماء، ولكن القاعدة تميز سمع الله عز وجل وبصره عن سمع المخلوق وبصره، فسمعه سبحانه ليس كسمع المخلوق، وبصره سبحانه ليس كبصر المخلوق.. وهكذا بقية أسمائه عز وجل وصفاته.

ثانيًا: التعريف بالمخلوقات الغيبية:

ذكر القرآن الكريم أنَّ هناك مخلوقات غيبية لا نراها وهي موجودة، منها:

* **الملائكة**: وهم خلق من خلق الله عز وجل لا يستطيع الإنسان حصر عددهم، وذكر سبحانه أنَّه خلقهم من «نور»، وهم خلق أخيار، ولكل صنف منهم عمل: فمنهم من هو موكل بحفظ الإنسان وكتابة أعماله، ومنهم من هو موكل بقبض أرواح الموتى، ومنهم من ينصر الله عز وجل بهم عباده المؤمنين، ومنهم رسل بين الله عز وجل وبين الأنبياء.

* **الشياطين** : وهم خلق شرير خلقهم عز وجل من «مارج من نار».

ولهم قدرة على إلقاء الأفكار والخواطر في الأنفس، وهؤلاء من ذرية الشيطان الأكبر الذي أمره الله عز وجل بالسجود لآدم فامتنع، فطرده الله عز وجل من رحمته، ثمَّ إنَّه طلب البقاء إلى قيام الساعة فأعطاه الله عز وجل ما طلب، ثمَّ تعهد بعد ذلك بأن يضل ذرية آدم، وقد حذَّر الله عز وجل من هذا الخلق الشرير في القرآن الكريم في مواطن كثيرة وبأساليب متنوعة.

* **الجن**: وهم خلق غيبي خلقوا من «نار» مكلفون كبني آدم، وفيهم الأخيار وفيهم

الأشرار، وقد ورد ذكرهم في آيات كثيرة من القرآن الكريم، بل ورد فيهم سورة بكاملها اسمها: «سورة الجن».

فهذه مخلوقات غيبية ذكرها ﷻ في القرآن الكريم وأمرنا بالإيمان بها.

ثالثًا: بيان القصد من خلق الإنسان:

تحدث القرآن الكريم عن «القصد من خلق الإنسان» وهو «عبادة الله ﷿».

قال تعالى﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ ﴾

(الذاريات ٥٦)

أي: ليطيعوه سبحانه فيما يأمر به أو ينهى عنه مع حبه سبحانه والخوف منه والتذلل إليه والرجاء فيما عنده. ثم حذَّر من الشرك به

ثم حذَّر من الشرك به، أي: طاعة غيره ﷿، أو التذلل لغيره والخضوع له، فإنَّ الإنسان خلق كرمه الله سبحانه، ووكل إليه عمارة الأرض وسخر له ما فيها، فهو سيد في هذه الأرض وخليفة فيها، وكل شيء في هذه الأرض خلق من أجل الإنسان، وهو أشرف الموجودات على ظهر الأرض، فلا ينبغي أن يذل لغير الخالق سبحانه.

رابعًا: بيان الثواب والعقاب:

ثمَّ ذكر سبحانه ما أعده بعد الموت من النعيم في الجنة لمن أطاعه وما أعده من العذاب في النار لمن عصاه، وهذا يجعل المسلم مراقبًا على نفسه ضابطًا لأعماله وأقواله.

خامسًا: قصص الأنبياء:

وذكر سبحانه قصص الأنبياء السابقين، وما أنزله إليهم من كتب، وما حدث بينهم وبين الأمم الماضية، وأمر المسلمين بتعظيم الأنبياء، والاستفادة من مواقفهم الثابتة في دعوتهم لأممهم.

سادسًا: القدر:

وذكر ﷻ أن الحوادث الواقعة كلها بقدر الله سبحانه، فلا يقع شيء بدون علمه ومشيئته، ولكن لا يعني ذلك إلغاء الأسباب، بل الإنسان مأمور باتخاذ الأسباب واعتقاد أنَّها تحت قدر الله ﷻ.

وهذه كلها أمور يجب على المسلم أن يعلمها ويقرَّ بها.

القسم الثاني: الشرائع (الجانب العملي):

قد أحاط القرآن الكريم بجميع جوانب الحياة وقرَّر أحكامها، وبين ما يجب أن يفعله المسلم وما يجب أن يتركه، بيّن كل ذلك بأساليب متنوعة وطرائق متعددة.

ولم يفصِّل في تلك الأحكام إلا في القضايا الثابتة منها، وأما القضايا الخاضعة للتغير فقد وضع لها قواعد عامة، **ويتضح ذلك بما يلي:**

أولًا: الجانب الأخلاقي:

عُني القرآن الكريم بالجانب الأخلاقي عناية فائقة، وأورد صفات أخلاقية مادحًا لها ولأصحابها، حاثًّا المؤمنين أن يتصفوا بها، كما ذكر أخلاقًا مذمومة وحذر منها، وفيما يلي ذكر نماذج من ذلك:

أ) الأخلاق التي حث عليها القرآن:

١- الصدق:

حث عليه ومدح أهله، وأكد ذلك النبي ﷺ، وبيَّن أنَّ الصدق يقود صاحبه إلى الجنَّة.

٢- العفو عن الناس:

أمر الله ﷻ نبيه أن يعفو عن الناس، وذكر ﷻ أنَّ العافين عن الناس من أهل الجنَّة.

٣- الإحسان:

والإحسان درجة أعلى من العفو، وهو أن يحسن إلى الناس جميعًا المسلم وغير المسلم، ويحسن إلى من أساء إليه وذلك زيادة على العفو السابق.

٤ - العدل:

أمر سبحانه بالعدل في الفعل والعدل في القول

٥- الإيثار:

مدح الله ﷻ أهله وأثنى عليهم، وهو أن يترك المسلم الشيء الذي يحبه ويحتاجه لأخيه المحتاج.

٦- الكلام الحسن:

وهو أن يخاطب الناس المسلم وغير المسلم بأحسن الألفاظ وأجملها.

٧- الصبر:

وهو أن يتحمل ما يقع عليه من المصائب التي لا يستطيع ردها ولكنه لا يستسلم ويدع الأسباب، بل يتخذ أسباب رفع المصيبة، وهو على يقين أنَّ الأمر بيد الله ﷻ.

٨- التعاون:

مطلوب من المسلم أن يتعاون مع إخوانه في الخير النافع، ولا يتعاون معهم في الشيء الضار الذي يضره أو يضر غيره.

٩- الأمانة:

أمر الله ﷻ بالوفاء بالأمانة في الأقوال والأفعال والأموال وغيرها.

١٠ - الوفاء بالعهد:

فأي مسلم عقد مع إنسان آخر عقدًا أو عهدًا وجب عليه أن يفي بعقده.

ب) الأخلاق التي نهى عنها القرآن:

١-الكذب:

نهى القرآن عن الكذب، وحذَّر منه، وذمَّ أهله، وتوعدهم بالعقاب في الآخرة.

٢-الخيانة:

حذَّر من الخيانة وذكر عدم محبة الله عزَّ وجلَّ للخائنين.

٣-الظلم:

نهى عن الظلم وهدَّد أصحابه، وجمع بين الكفر والظلم.

٤-الاستهزاء:

هو احتقار الناس والسخرية بهم، نهى عنه القرآن وتوعد أهله.

٥-التجسس:

وهو سماع كلام الناس والبحث عن أعمالهم بخفية، وهذا خلقٌ ذميم حذَّر منه القرآن.

٦- الغيبة:

وهو الكلام في الناس بما يكرهون في غيبتهم، وقد نهى عنه القرآن.

٧-الحسد:

وهو تمني زوال النعمة عن الغير، فقد ذمه القرآن وأمر بالتعوذ بالله من أصحابه، وحذر منه ﷺ.

٨-الكِبر:

ذمَّه سبحانه وتوعد أهله بدخول النار.

٩-الزنا:

ذكر أن الزنا خلق ذميم وأن المسلم لا يزنى، وشرع عقوبة لمن يشهد عليه أربعة أشخاص بأنهم شاهدوه يمارس الزنا.

١٠- الخمر:

هي أم الخبائث، فإنَّ الإنسان العاقل يشربها فيفقد أشرف ما فيه وهو العقل، وقد حرَّمها الله ﷻ ونهى عنها.

١١- الميسر:

هو اللعب بعوض من أحد المشتركين يأخذه الغالب من المغلوب.

وهذا أكل للمال بالباطل، وتعويد على البطالة، وسبب للعداوة والبغضاء، ولهذا نهى عنه القرآن.

هذه هي أهم الأخلاق السيئة التي نهى عنها القرآن الكريم.

ثانيًا: الجانب الاجتماعي:

أكَّد الإسلام على الحقوق العامة **وخصَّ منها ما يلي:**

١- حقوق الوالدين:

أمر الأبناء ببر آبائهم واحترامهم، ورعايتهم بالإنفاق عليهم، وتوفير احتياجاتهم عند كبر سنهم، وعدم الإساءة إليهم، وجعل الله ﷻ حق الوالدين مقرونًا بحقه سبحانه، وتوعد النبي ﷺ من يسيء إلى والديه أو إلى أحدهما، وجعل حق الأم أعظم من حق الأب كما بينته السنَّة.

٢- حقوق الأولاد:

كذلك أوصى الآباء بأبنائهم بأن يعدلوا بينهم في المعاملة.

٣- حقوق الأقرباء:

وهم كل من له صلة نسبية بالشخص: كالأخ، والأخت، والعم، والعمة، والخال، والخالة.. وأبنائهم، فأمر بالتواصل معهم، ومدح المواصلين، وذم القاطعين.

٤- حقوق الأزواج:

يتم الزواج في الإسلام بعقد يلتزم به الطرفان، وفي هذا العقد الوصاية بالمعاشرة الحسنة من الطرفين، واحترام كل منهما للآخر، ثمَّ كلَّف الرجل بمسئوليات إضافية وهي تقديم مهر الزواج للزوجة، وتوفير السكن المناسب، والنفقة المناسبة، وتوفير جميع احتياجاتها.

وأمر الله عزَّ وجلَّ المرأة بطاعة الزوج، وأكَّدت السنَّة وجوب الحفاظ على بيت الزوج ورعاية أطفاله، ولم يكلفها بشيء من الإنفاق أو المشاركة المالية مع زوجها إلا إذا تبرعت هي بشيء من ذلك.

٥- حقوق الجيران:

الجار: هو الشخص الذي يسكن بجوارك، أو يعمل معك في مكان واحد، أو يسافر معك، فهذه المجاورة كثيرًا ما تتزاحم بسببها المصالح والرغبات بين الجيران، ولهذا فقد خصَّ الجار بمزيد من الرعاية والعناية.

٦- حقوق المسلمين:

إنَّ جميع المسلمين لهم حقوق على بعضهم، منها: المحبة، والإحساس بالأخوة الدينية، ونصرة بعضهم بعضاً إذا عرض لأحدهم ظلم، وقد فصَّلت السنَّة تلك الحقوق.

٧- حقوق غير المسلمين:

الوفاء لهم بعهدهم، وعدم ظلمهم، والحفاظ على حقوقهم، والإحسان إليهم.

ثالثًا: الجانب الاقتصادي:

هناك عدة قواعد يقوم عليها التعامل بين الناس في كتاب الله عزَّ وجلَّ وسنة رسوله ﷺ منها:

أ) الأصل في المعامله الإباحة.

ب) وجوب الوفاء بالعقود سواء كانت اقتصادية أو سياسية أو اجتماعية أو غيرها.

ج) الصدق في المعاملة.

د) عدم الغش.

هـ) تحريم الغرر والخداع.

ثم هناك أنواع من المعاملات والأعمال حرمها الإسلام منها:

١) الربا: ويشمل نوعين:

الأول: بيع الأثمان -أي: الذهب والفضة- بزيادة نقدًا أو نسيئة إذ جَعْلُ الأثمان تجارة يُعرِّض التجارة العالمية للكوارث، وهو ما نراه اليوم في الأسواق العالمية، فحرَّم القرآن بيع المال بالمال نسيئة، أو الزيادة في الدين لزيادة الأجل.

قال ابن تيمية رحمه الله وهو يبين الحكمة في منع بيع الدرهم والدينار التي هي الميزان التجاري:

(فإن المقصود من الأثمان أن تكون معيارًا للأموال، يتوصل بها إلى معرفة مقادير الأموال، ولا يقصد الانتفاع بعينها. فمتى بيع بعضها ببعض إلى أجل، قصد بها التجارة التي تناقض مقصود الثمنية، واشتراط الحلول والتقابض فيها هو تكميل لمقصودها من التوصل بها إلى تحصيل المطالب؛ فإن ذلك إنما يحصل بقبضها؛ لا بثبوتها في الذمة؛ مع أنها ثمن من طرفين، فنهى الشارع أن يباع ثمن بثمن إلى أجل، فإذا صارت الفلوس أثمانًا صار فيها المعنى، فلا يباع ثمن بثمن إلى أجل)[1].

وبسط ابن القيم الكلام عن حكمة التشريع في تحريم الربا، وهو لم ير الكوارث التي

---

(1) الفتاوى: (٢٩/ ٤٦٨).

أصابت المجتمعات الربوية اليوم بما يكشف طرفًا من حكمة الله ﷻ في تحريم الربا، فقال رحمه الله:

(فإن الدراهم والدنانير أثمان المبيعات، والثمن هو المعيار الذي به يُعْرَف تقويم الأموال، فيجب أن يكون محدودًا مضبوطًا لا يرتفع ولا ينخفض؛ إذ لو كان الثمن يرتفع وينخفض كالسِّلَع لم يكن لنا ثمن نعتبر به المبيعات، بل الجميع سِلَعٌ، وحاجة الناس إلى ثمن يعتبرون به المبيعات حاجة ضرورية عامة، وذلك لا يمكن إلا بسعر تعرف به القيمة، وذلك لا يكون إلا بثمن تُقَوَّم به الأشياء، ويستمر على حالة واحدة، ولا يقومُ هو بغيره؛ إذ يصير سلعة يرتفع وينخفض، فتفسد معاملات الناس، ويقع الخلف، ويشتد الضرر، كما رأيت من فساد معاملاتهم والضرر اللاحق بهم حين اتخذت الفلوس سلعة تعد للربح فعم الضرر وحصل الظلم.

ولو جعلت ثمنًا واحدًا لا يزداد ولا ينقص بل تُقَوَّم به الأشياء ولا تُقَوَّم هي بغيرها لصلح أمْرُ الناس، فلو أبيح ربا الفضل في الدراهم والدنانير - مثل أن يعطي صحاحًا ويأخذ مكسرة، أو خفافًا ويأخذ ثقالًا أكثر منها - لصارت مُتَّجَرًا، أو جر ذلك إلى ربا النسيئة فيها ولا بد؛ فالأثمان لا تقصد لأعيانها، بل يقصد التوصل بها إلى السلع، فإذا صارت في أنفسها سلعًا تقصد لأعيانها فسد أمر الناس، وهذا معنى معقول يختص بالنقود لا يتعدى إلى سائر الموزونات)[1].

الثاني: بيع الأقوات من الطعام الأساسي بمثله من جنسه حالًا أو نسيئة، وذلك منعًا للتلاعب بأهم شيء في حياة الناس، وهو ما تقوم به الحياة كالحبوب والتمور ونحوهما.

٢) **الميسر**: وهو القمار، وهو دفع مال من طرفين يأخذه أحدهما إذا عمل عملًا ما

---

(1) إعلام الموقعين: (١/ ٤٢٦).

سواء كان لعبًا أو غيره، فيربح أحدهما ويخسر الآخر بدون جهد أو تجارة.

وهناك أنواع أخرى من الميسر أوردتها السنَّة.

٣) السرقة.

٤) التطفيف في إعطاء الحق. أي: عدم إعطاء الحق كاملًا.

٥) أخذ أموال الناس بغير حق.

٦) الرشوة.

رابعًا: الجانب السياسي:

المراد بهذا الجانب العلاقة بين الحاكم والمحكوم، والقرآن الكريم قد ذكر قواعد لهذا الأمر:

١) **أن يكون الحاكم مسلمًا**: فلا يجوز أن يحكم المجتمع المسلم غير المسلم؛ إذ من أُولى مهمات الحاكم المسلم حراسة الدين وتنفيذ أحكامه، وغير المسلم ليس معنيًا بذلك.

٢) **العدل من الحاكم**: وهو إعطاء كل ذي حق حقه، وعدم ظلم الناس بمنعهم حقوقهم، أو تكليفهم ما لا يطيقون.

٣) **الشورى**: وهو أن يشاور الحاكم أهل الحل والعقد في المجتمع في الأمور التي تخص المجتمع وليس فيها نص من القرآن أو السنَّة.

٤) **وجوب طاعة أفراد المجتمع للإمام**: فيما ليس فيه مخالفة لشيء من نصوص القرآن والسنَّة.

٥) **الإمامة عقد بين الأمة والإمام**: ويجب الوفاء بحقوق هذا العقد من الطرفين.

أمَّا الكيفية التي يتم بها تنصيب الإمام فلم يعرض لها القرآن ولا النبي ﷺ، وترك

أمرها للناس.

وللعلماء تفصيلات في هذه القضية استنبطوها من سنة النبيﷺ، وسنة الخلفاء الراشدين لا يحتمل هذا البحث إيرادها.

هذه بعض التشريعات التي أوردها القرآن الكريم، جاء بها رجل أمي لا يقرأ ولا يكتب، وفي مجتمع أمي لا يقرأ ولا يكتب، ممَّا يؤكد أنَّ هذا الكتاب من عند الله عز وجل.

الوجه السابع: حديث القرآن عن الحقائق النفسية والكونية:

المقصد الذي نزل من أجله القرآن الكريم ليس الحديث عن المظاهر الكونية أو كيفية خلق المخلوقات، وإنَّما نزل لأمر أعظم من ذلك وهو «**بيان المقصد من خلق الإنسان، والأعمال التي تحقق هذا المقصد، والأعمال التي تخالف هذا المقصد، وما يترتب على ذلك من ثواب وعقاب** » وأمَّا الأشياء الأخرى فليست مقصودة بالحديث عنها في القرآن، ولكن القرآن وهو يتحدث عن هذا المقصد السابق كان يشير إلى بعض الحقائق النفسية والكونية لأغراض أخر تتصل بذات المقصد، فإن القرآن الكريم جاء ليخاطب البشرية إلى قيام الساعة، ولابد أن يتضمن من الدلائل ما يؤكد بها أنه من عند الله عز وجل.

قال ابن حجر رحمه الله:

(ومعجزة القرآن مستمرة إلى يوم القيامة، وخرقه للعادة في أسلوبه وبلاغته وإخباره بالمغيبات، فلا يمر عصر من الأعصار إلا ويظهر فيه شيء مما أخبر به أنه سيكون؛ يدل على صحة دعواه)[1].

---

(1) فتح الباري: (٣/ ١٠)

وقد أشار القرآن الكريم إلى جوانب من المظاهر الكونية والدقائق الخَلْقية مما لم يكن معروفًا للناس عند نزول القرآن.

ولمَّا تقدم علم الإنسان وصنع أجهزة دقيقة استطاع من خلالها أن يكتشف بعضًا من تلك الحقائق التي أشار إليها القرآن.

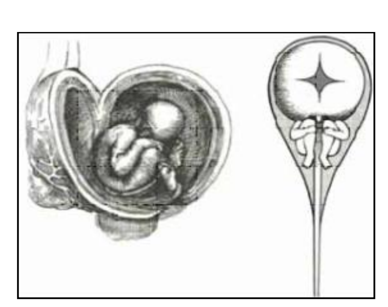
قال ابن عاشور رحمه الله: (لم يزل العلم في طول الزمان يظهر خبايا القرآن ويبرهن على صدق كونه من عند الله). [١]

وفيما يلي عرض لبعض الأمثلة التي ذكرها الله عز وجل في كتابه.

---

(1) التحرير والتنوير: (١/ ١٦٢)

المثال الأول: حديث القرآن عن مراحل خلق الإنسان[١]:



فقد تحدث القرآن عن مراحل نمو الجنين في بطن أمه مرحلة مرحلة، والجنين لا يرى بالعين المجردة وهو ينمو، كذلك يستحيل وصف تلك المراحل بالحدس والتخمين.

وهذه الصورة تمثل الجنين في كامل خلقته كما كان يتصورها الأقدمون، حيث كانوا يتصورون أن الجنين يوجد كاملًا ثم ينمو رويدًا رويدًا حتى يبلغ عمره تسعة أشهر ثم يولد، ولم يكتشف أن الجنين يمر بمراحل مختلفة كما ورد في القرآن الكريم إلا بعد نزول القرآن الكريم.

ولَمَّا صنع الإنسان آلات التصوير واكتشف الأشعة التي تخترق الحواجز استطاع أن يرى مراحل نمو الجنين في بطن أمه ويصورها، وكانت النتيجة مذهلة لغير المسلمين؛ لأنها

---

(1) يحسن هنا أن أشير إلى ما انتهى إليه الطبيب الفرنسي المهتدي من نتائج لدراسة القرآن والتوراة والإنجيل، ومقارنتها بما توصل إليه العلم الحديث في كتاب سماه «التوراة والإنجيل والقرآن والعلم»، فقد انتهى إلى إثبات: (أن القرآن لا يحتوي على آية مقولة قابلة للنقد من وجهة نظر العلم في العصر الحديث).

وانتهى كذلك إلى أن التوراة -من خلال سفر التكوين- فيها: (مقولات لا يمكن التوفيق بينها وبين أكثر معطيات العلم رسوخاً في عصرنا).

وعن الأناجيل قال: (أما بالنسبة للأناجيل فما نكاد نفتح الصفحة الأولى منها حتى نجد أنفسنا دفعة واحدة في مواجهة مشكلة خطيرة، ونعني بها شجرة أنساب المسيح، وذلك أن «إنجيل متى» يناقض بشكلٍ جلي «إنجيل لوقا» وأن هذا الأخير لا يتفق مع المعارف الحديثة). انظر كتاب: التوراة والإنجيل والقرآن والعلم (ص:١٣).

لم تتجاوز ما ذكره القرآن الكريم.

وفيما يلي عرض لجملة من النصوص القرآنية التي تتحدث عن تلك الحقائق:

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٦ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨﴾ [السجدة:٨].

وقال تعالى: ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ۝١٤﴾ [المؤمنون:١٤]، فالقرآن الكريم قد ذكر ست مراحل للجنين هي:

المرحلة الأولى: بداية الخلق من سلالة:

حيث ذكر أنَّ خلق الجنين ليس من كل الماء الذي يخرج من الرجل، وإنَّما يُخلق من جزء منه، وهذه الحقيقة عرفها الإنسان اليوم عن طريق الدراسات المخبرية.

وقد كان الناس في الماضي يظنون أن الإنسان يخلق من كامل الماء، ولكن الله ﷻ ذكر غير ما ظنه الناس، فقد أخبر ﷻ أنه خلق الإنسان: ﴿ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ ﴾ [السجدة:٨]. أي: ليس من كل الماء الذي يخرج من الزوجين، وإنَّما من جزء دقيق جدًا، وهو معنى: « السلالة». أي: شيء قليل استل من الماء، وتقول العرب في أمثالها: «استله كما استل الشعرة من العجين».

- قال ابن منظور: (السَّلُّ انتزاعُ الشيء وإِخراجُه في رِفْق... السَّلُّ سَلُّك الشعرَ من العجين ونحوه)[1].

(1) لسان العرب باب السين (١١/ ٣٣٨).

• وقال الشوكاني: (﴿ جَعَلَ نَسْلَهُۥ ﴾: أي: ذريته. ﴿ مِن سُلَٰلَةٍ ﴾ سميت الذرية سلالة؛ لأنها تسل من الأصل، وتنفصل عنه)[1].

وقال الرازي: (وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝ ﴾ [السجدة:٨] على التفسير الأول ظاهر؛ لأن آدم كان من طين ونسله من سلالة من ماء مهين هو النطفة)[2].

• وقال ابن عاشور: (والنسل: الأبناء والذرية. سمي نسلًا؛ لأنه ينسل، أي: ينفصل من أصله. وهو مأخوذ من نَسَلَ الصوفُ والوَبَر إذا سقط عن جلد الحيوان، و(مِنَ) في قوله: ﴿ مِن سُلَٰلَةٍ ﴾ ابتدائية.

وسميت النطفة التي يتقوم منها تكوين الجنين سُلالة كما في الآية؛ لأنها تنفصل عن الرجل، فقوله: ﴿ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝ ﴾ بيان لـ ﴿ سُلَٰلَةٍ ﴾ و﴿ مِّن ﴾ بيانية، فالسلالة: هي الماء المهين، هذا هو الظاهر لمتعارف الناس.

ولكن في الآية إيماء علمي لم يدركه الناس إلا في هذا العصر، وهو أن النطفة يتوقف تكوّن الجنين عليها؛ لأنه يتكون من ذرات فيها تختلط مع سلالة من المرأة وما زاد على ذلك يذهب فضلة، فالسلالة التي تنفرز من الماء المهين هي النسل لا جميع الماء المهين، فتكون ﴿ مِّن ﴾ في قوله ﴿ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝ ﴾ للتبعيض أو للابتداء)[3].

والذي توصَّل إليه المختصون اليوم أنَّ الإنسان يُخلَق من حيوان منوي واحد، وهو

---

(1) فتح القدير: (٤/ ٣٥٥).

(2) تفسير الرازي: (٢٥/ ١٥٢).

(3) التحرير والتنوير: (١/ ٣٢٩٨).

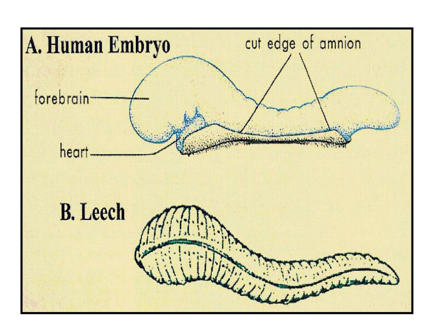
جزء صغير جدًا من الماء الذي يخرج من الرجل، والذي يشتمل على ملايين الحيوانات المنوية.

ولفظ: ﴿ سُلَٰلَةٍ ﴾ هو أدق وصف يمكن أن توصف به هذه العملية؛ لأن واحدًا من هذه الملاين من الحيوانات المنوية ينسل باتجاه الرحم لتلقيح بويضة المرأة.

ولا شكَّ أنَّ هذا يؤكد أنَّ هذا الكلام ليس من كلام البشر، وإنَّما هو من كلام خالق البشر؛ لأن هذه الحقيقة لم يصل البشر إليها إلا في العصر الحاضر بعد أن تقدمت وسائل العلوم الطبية.

المرحلة الثانية: العلقة:

قال تعالى: ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً ﴾[المؤمنون:١٤] و: (العلقة): اسم لدودة تكون في الماء والطين، تعلق في أفواه الحيوانات عندما ترد الماء للشرب منه، وصورة الجنين في هذه المرحلة تشبه صورة هذه العلقة بصورة دقيقة، بل لو صُوِّرت علقة الجنين وعلقة الطين لما استطاع الإنسان أن يفرق بينهما في الشكل والصورة.



وهاتان الصورتان : صورة للجنين في مرحلة العلقة وصورة للعلقة التي سميّ بها الجنين في هذه المرحلة، وبينهما شبه كبير بل تطابق دقيق بحيث لا يكاد الناظر إليهما يستطيع التفريق بينهما.

ولا شكَّ أنَّ هذا مما لا يستطيع الإنسان معرفته من ذات نفسه، أو بغير جهاز كاشف، مما يؤكد أنَّ هذا القرآن ليس من عند البشر، وإنَّما هو من عند خالق البشر الذي يعلم السر وأخفى.

- قال ابن منظور: (والعَلَقة: دودة في الماء تمصُّ الدم، والجمع عَلَق.....

العَلَق: دُوَيْدَةٌ حمراء تكون في الماءِ تَعْلَقُ بالبدن وتمص الدم)[1].

• وقال الفيروزأبادي: العلقة: (دُوَيْبَةٌ في الماءِ تَمُصُّ الدَّمَ)[2].

وجميع أقوال المفسرين القدامى لا تخرج عن تفسير علماء اللغة، أما المفسرون في العصر الحديث فقد أشار بعضهم إلى ما توصل إليه العلم الحديث.

• قال المفسر المعاصر ابن عاشور: (ومن إعجاز القرآن العلمي: تسمية هذا الكائن باسم العلَقة؛ فإنه وضْع بديع لهذا الاسم، إذ قد ثبت في علم التشريح أن هذا الجزء الذي استحالت إليه النطفة هو كائن له قوة امتصاص القوة من دم الأم بسبب التصاقه بعروق في الرحم تدفع إليه قوة الدم، والعلقة: قطعة من دم عاقد.)[3].

المرحلة الثالثة: مرحلة «المضغة»:

قال تعالى: ﴿ فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً ﴾ [المؤمنون:١٤] و: (المضغة) تعني ما يمضغه الإنسان بفمه.

فلو أنَّ الإنسان أخذ قطعة عجين ثمَّ مضغها بفمه ثمَّ وضعها على لوح أمامه وصوَّرها ثمَّ صوَّر الجنين في مرحلة: (المضغة) ووضعها بجانب صورة: (مضغة العجين) لما استطاع أن يفرِّق بينهما، حتَّى إنَّ آثار الأسنان في: (مضغة العجين) مثلها في مضغة الجنين.

وفي الصورة المرفقة صورتان: صورة للجنين في مرحلة: (المضغة) وصورة لقطعة

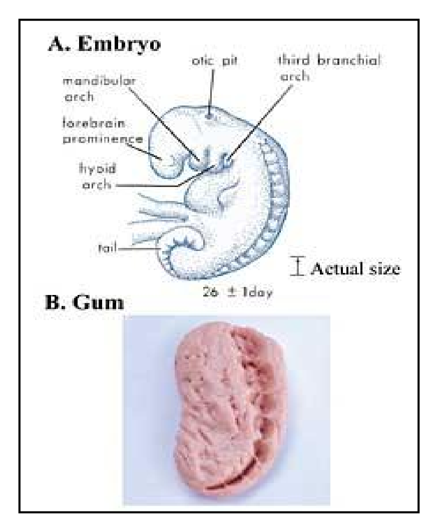
---

(1) لسان العرب: (١٠/ ٢٦١).

(2) القاموس المحيط: (١/ ١١٧٥).

(3) التحرير والتنوير: (١/ ٢٨٢١).

العلك: (الممضوغة) وهما متقاربتان جدًا، بحيث إن تسمية الجنين في هذه المرحلة هي أقرب إلى تسميتها بـ: (المضغة) من أي اسم آخر.



ووصفُ الجنين في هذه المرحلة بأنَّه: (مضغة) وتطابق صورته في هذه الحال مع: (المضغة العجين) بهذه الدقَّة مع عدم استطاعة الإنسان وصفها بدون رؤية لها بالجهاز المصور أو علم ممن يعلم الغيب وهو الله سبحانه؛ هذا يؤكد أنَّ هذا القرآن ليس من عند البشر، وإنَّما هو من خالق البشر.

قال ابن منظور: (والمُضْغَة: القِطْعَةُ من اللَّحم لمكان المضغ... وبالمُضْغة الواحدة شُبِّهت اللُّقْمة تُمْضَغ، وقيل: شبهها بالمضغة من اللحم لقلتها في جنب ما عظُم من الجِناياتِ..)(١).

وقال الأزهري: (وبالمُضْغة الواحدة شُبِّهت اللُّقْمة تُمْضَغ، وقيل: شبهها بالمضغة من اللحم لقلتها في جنب ما عَظُمَ من الجِناياتِ)(٢).

وهذا المعنى اللغوي لا يخرج عنه أقوال المفسرين.

المرحلة الرابعة: ظهور العظام:

قال تعالى ﴿ فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا ﴾ [المؤمنون:١٤].

وقد قرَّر الأطباء المختصون أنَّ العظام تظهر قبل اللحم الذي يكسوها ثمَّ يظهر

---

(1) لسان العرب: (٨/ ٤٥٠).

(2) لسان العرب: (٨/ ٤٥٢).

اللحم بعد ذلك، وهذا لم يعرفه المختصون إلا الآن من خلال الآلات المصورة.

وهذا يؤكد أنَّ هذا القرآن ليس من قول البشر، وإنَّما هو من كلام خالق البشر ﷻ.

وسيأتي في الوجه الآتي كلام بعض المختصين في ذلك.

المرحلة الخامسة: كساء العظام لحمًا:

قال تعالى: ﴿ فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ﴾[المؤمنون:١٤].

ذكر تعالى أنه كسا العظام لحمًا، وتقديم خلق العظام قبل اللحم لأن اللحم يحتاج إلى عظام تحمله، فلابد أن يسبق وجود العظام وجود اللحم.

ولعل ذلك يتضح بما يفعله الإنسان وهو يبني بيتًا بالخرسانة والحديد؛ فإنه يبدأ بوضع الحديد ثم يصب عليه الخرسانة فتتركب الخرسانة فوق الحديد.

المرحلة السادسة: تميز الجنين عن بقية الأجنة الأخرى:

قال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ﴾[المؤمنون:١٤].

وهنا لفتة دقيقة جدًا لم تدرك إلا من خلال التصوير التلفزيوني في العصر الحاضر؛ فقد اكتشف علماء الأجنة من خلال تلك الأجهزة أن أجنة الحيوانات - ومنها الإنسان - تبقى على شكل منحنٍ حتى الولادة، وتستمر على تلك الصورة طوال حياتها ما عدا الإنسان؛ فإنه بعد أن تكتمل صورته بعد مرحلة الكساء بالعضلات يستقيم ظهره بعد أن كان شكله على شكل هلال.

قال الدكتور أحمد حامد أحمد: (ومع نهاية الأسبوع السادس تكون المضغة قد بلغت من الطول: (٨- ١٦) مليمترًا.

ومما يميز هذه الفترة: أن الهيكل العظمي يكون منحنيًا شبيهًا بالهلال، ثم يبدأ في الاستقامة والاعتدال، ويضيف على الجنين ميزة يتفرد بها الكائن الحي، وهي: انتصاب

القامة عند الأسبوع الثامن).

وبهذا يتبين دقة قوله ﷿: ﴿ ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَ ﴾[المؤمنون:١٤].

وهذا يؤكد أن هذا القرآن من عند الله ﷿.

أما المفسرون القدامى فقد تباينت تفسيراتهم لها، أوجزها القرطبي ؒ بقوله: (قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَ ﴾ [المؤمنون:١٤] اختلف الناس في الخلق الآخر؛ فقال ابن عباس، والشَّعْبِيّ، وأبو العالية، والضحاك، وابن زيد: هو نفخ الروح فيه بعد أن كان جمادًا.

وعن ابن عباس: خروجه إلى الدنيا. وقال قتادة عن فرقه: نبات شعره. الضحاك: خروج الأسنان ونباتُ الشعر. مجاهد: كمال شبابه؛ وروي عن ابن عمر.

والصحيح أنه عام في هذا وفي غيره من النطق والإدراك، وحسن المحاولة، وتحصيل المعقولات إلى أن يموت)[١].

وأما الطبري ؒ فبعد أن ذكر تلك الأقوال بأسانيدها قال:

(وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: عنى بذلك نفخ الروح فيه، وذلك أنه بنفخ الروح فيه يتحوّل خلقًا آخر إنسانًا، وكان قبل ذلك بالأحوال التي وصفه الله أنه كان بها، من نطفة وعلقة ومضغة وعظم، وبنفخ الروح فيه يتحوّل عن تلك المعاني كلها إلى معنى الإنسانية، كما تحوّل أبوه آدم بنفخ الروح في الطينة التي خلق منها إنسانًا وخلقًا آخر غير الطين الذي خلق منه)[٢].

---

(1) تفسير القرطبي: (١٢/ ١٠٨)

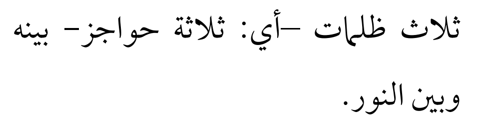
(2) تفسير الطبري: (٧: ١٨).

والسبب في اختلاف التفسير القديم عن التفسير الحديث: أن القدامى كانوا يعتمدون على مجرد المعنى اللغوي فقط الذي يشير إلى أمر غيبي، وهذا منتهى ما يستطيعون فهمه، أما في العصر الحاضر فقد اعتمد على اللغة مع رؤية الشيء الذي تتحدث عنه الآية، فظهر من كنوز القرآن ما يؤكد أنه من عند الله ﷻ. والله أعلم[1].

المثال الثاني: إشارة القرآن إلى ظلماتٍ ثلاث حول الجنين:

قال الله ﷻ: ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [الزمر:٦].

يذكر الله ﷻ أنَّه ينقل الإنسان في بطن أمه مرحلة بعد مرحلة، وأنَّ الجنين تحيط به ثلاث ظلمات –أي: ثلاثة حواجز– بينه وبين النور.



وهذا كلام دقيق جدًا، ووصف مطابق لحال الجنين.

فالجنين في داخل ثلاثة أغلفة:

١) الغلاف الخارجي: جدار البطن.

٢) الغلاف الذي تحته: جدار الرحم.

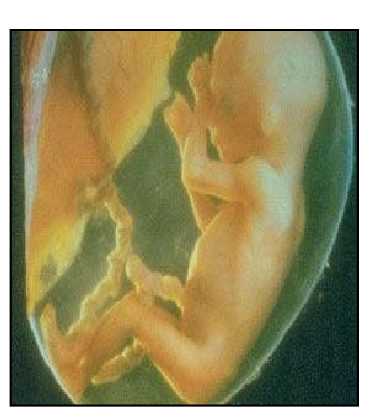
٣) الغلاف المباشر حول جسم الجنين: غشاء المشيمة، وهو الغشاء الذي نشاهده في

---

(1) رحلة الإيمان في جسم الإنسان: (١٠٩).

هذه الصورة والتي بعدها.

فليس الغلاف الذي يحيط بالجنين ثنائيًا ولا رباعيًا، بل ثلاثي فقط، وهذا الوصف الدقيق لِوضْع الجنين لا يمكن لإنسان في الأزمنة البعيدة أن يتصوره بهذه الدقَّة ما لم يكن لديه أجهزة يطلع بها على داخل بطن المرأة.



قال الطبري: (وقوله: ﴿ فِي ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ﴾ [الزمر:٦] يعني: في ظلمة البطْن، وظلمة الرّحمِ، وظُلمة المَشِيَمة)[١].

وعندما تقدم الطب وصُنعت الأجهزة التي تصور باطن المرأة عرف الإنسان هذه الحقيقة من خلال الأجهزة الحديثة.

وقد سُئِل أحد علماء التشريح والأجنَّة عن هذه القضية، وأُخبر بما ورد في القرآن الكريم من مراحل الجنين والظلمات الثلاث، فذُهل لهذه المعلومات التي لم يصل إليها الإنسان ببحثه وجهده إلا في العصر الحاضر[٢].

فقال: (يتضح لي أنَّ هذه الأدلة حتمًا جاءت لمحمد ﷺ من عند الله؛ لأنَّ كل هذه المعلومات لم تُكتشَف إلا حديثًا وبعد قرون عديدة، وهذا يثبت لي أنَّ محمدًا رسول

---

(1) تفسير الطبري: (٣٣/ ١٢٤).

(2) أحد العلماء الذين عرضت عليهم هذه الآية فاعترفوا بها ثم أسلموا بعد ذلك هو: البروفيسور «كيث ال مور» أستاذ علم التشريح والأجنة في جامعة تورنتو بكندا، درس في جامعات عديدة ورأس العديد من الجمعيات، وله ثمانية كتب تعتبر مرجعًا لطلاب كليات الطب، وقد تُرجم بعضها وهو: (The Developing Human) إلى ست لغات (الفرنسية، والإسبانية، والبرتغالية، والألمانية، والإيطالية، واليابانية).

الله)[1].

وهذا يؤكد أن هذه المعلومات ليست من عند البشر، ولكنها من عند خالق البشر.

المثال الثالث: إشارة القرآن إلى بصمات الإنسان:

عندما ذكر النبي ﷺ أنَّ الله ﷻ سيعيد الناس مرةً أخرى ليحاسبهم استعظم ذلك كفار قريش، واعتقدوا أنَّ الله ﷻ لا يستطيع أن يعيد الإنسان وقد أصبح عظامًا بالية، فأنزل الله ﷻ عشرات بل مئات الآيات تؤكد أنَّ الله سبحانه سيُحيي الناس مرةً أخرى، وأنَّ ذلك ليس أعظم من الخلق الجديد، فالذي خلق الإنسان من العدم لا يعجز عن إعادته مرةً أخرى!

ومن بين تلك الآيات آيات نزلت في سورة «القيامة» ترد على كفار قريش، وتبين قدرة الله ﷻ، وأنَّه سبحانه قادر على أن يعيد الإنسان كما كان، حتَّى أدق الأشياء الظاهرة والتي هي أطراف الأصابع.

قال الله ﷻ: ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣ بَلَىٰ قَـٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ۝٤ ﴾ [القيامة:٣-٤].

قال الرازي: (وفي قوله: ﴿ بَلَىٰ قَـٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ۝٤ ﴾ [القيامة:٤] وجوه:

أحدها: أنه نبه بالبنان على بقية الأعضاء. أي: نقدر على أن نسوي بنانه بعد صيرورته ترابًا كما كان. وتحقيقه أن من قدر على الشيء في الابتداء قدر أيضًا عليه في الإعادة، وإنما خص البنان بالذكر لأنه آخر ما يتم خلقه، فكأنه قيل: نقدر على ضم

(1) رسالة: «إنه الحق المبين» (١١-١٢) مفرغة من شريط تسجيل.

وهناك عدة أطباء متخصصون في علم الأجنة من مختلف أنحاء العالم اعترفوا بأن هذا علم إلهي وأورد أسماء بعضهم في الرسالة الآنفة الذكر.

سلاماته على صغرها ولطافتها بعضها إلى بعض كما كانت أولًا من غير نقصان ولا تفاوت، فكيف القول في كبار العظام؟)[1].

قال الشوكاني: (ومعنى ﴿ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ۝٤ ﴾ [القيامة:٤]: على أن نجمع بعضها إلى بعض، فنردّها كما كانت مع لطافتها وصغرها، فكيف بكبار الأعضاء، فنبه سبحانه بالبنان، وهي الأصابع على بقية الأعضاء، وأن الاقتدار على بعثها وإرجاعها كما كانت أولى في القدرة من إرجاع الأصابع الصغيرة اللطيفة المشتملة على المفاصل والأظافر، والعروق اللطاف، والعظام الدقاق، فهذا وجه تخصيصها بالذكر، وبهذا قال الزجاج، وابن قتيبة)[2].

وقال ابن عاشور: (وأريد بالتسوية: إعادة خلق البنان مقوَّمة متقنة، فالتسوية كناية عن الخلق؛ لأنها تستلزمه؛ فإنه ما سُوِّيَ إلاّ وقد أُعيد خلقه، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ ﴾ [الأعلى:٢].

والبَنان: أصابع اليدين والرجلين أو أطرافُ تلك الأصابع. وهو اسم جمع بَنانَةٍ.

وإذ كانت هي أصغر الأعضاء الواقعة في نهاية الجسد كانت تسويتها كناية عن تسوية جميع الجسد، لظهور أن تسْوية أطراف الجسد تقتضي تسوية ما قبلها)[3].

ولم يكن المفسرون القدامى بل وكثير من المحدثين يدركون السر في ذكر أطراف الأصابع إلا على المعنى الظاهر كما ترى، وهي إعادة أطراف الأصابع للطافتها ودقتها، ولكن النص أدق من ذلك.

وهناك تفسيرات أخرى بعيدة عن دلالة النص، ولعل السبب فيها هو دقة المراد

---

(1) التفسير الكبير: (٣٠/ ٢١٨).

(2) فتح القدير: (٥/ ٤٧١).

(3) التحرير والتنوير: (١/ ٤٦٣٧).

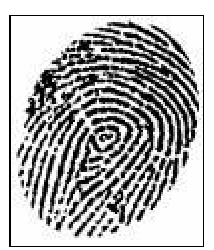
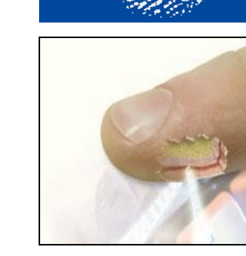
الذي لم يكن العقل البشري يتصوره آنذاك إلا بوحي من الله عز وجل، أو بخبر من النبي ﷺ، وذلك لم يوجد.

ولَمَّا تقدَّم علم الإنسان اكتشف أنَّ في أطراف الأصابع خطوطًا دقيقة لا تتشابه بين إنسان وآخر، وكان من أوائل من اكتشف ذلك:

«د/ وليم هرشل الإنجليزي» عام (١٨٥٨م) أي بعد نزول القرآن الكريم بأكثر من ألف ومائتي سنة.

وهذه الخطوط لا تتبدل حتَّى لو احترق الجلد أو قُطِع وزُرِع بدله جلد آخر، فإنَّها تنمو وتعود كما كانت قبل التغيير[1].

وهذا يدل دلالة قاطعة أن هذا الكتاب الذي أشار إلى هذه الحقيقة هو من عند الله عز وجل.


وهذه الصور المرفقة ثلاثة نماذج توضح صورة: (البنان) المذكور، فهي عبارة عن شكل (إبهام) يد طبعت على ورق من خلال غمس الإبهام في: (صباغ) ملون ثم طبع

(1) رحلة الإيمان في جسم الإنسان (١٦٦).

الإبهام في الورق.

وقد استخدمت الدول في العصر الحاضر البصمات للتعرف على شخصية الإنسان والتفريق بينه وبينه الآخرين.

المثال الرابع: إشارة القرآن إلى مُسْتَقْبلات الإحساس في الإنسان:

تنتشر في الجسم شعيرات دقيقة من الأعصاب تستقبل كل ما يمس الجلد من حرارة وبرودة وألم ونحو ذلك.

وهذه المستقبلات تحس بالحرارة التي تصل إلى درجة الخمسين، ثمَّ تتوقف عن الإحساس، ولعلَّ ذلك رحمة بالإنسان؛ إذ لو استمر إحساس الإنسان بالألم لازداد عذابه.

لكن هذا يكون في الدنيا، أما في الآخرة فإن الكافر الذي يدخله الله ﷻ النار فإن النار تحرق الجلد الظاهري المشتمل على مستقبلات الإحساس، ثم يعيد الله ﷻ ذلك الجلد المحترق كما كان ليشعر بالعذاب.

فإذا وقع في نفسه أنَّ ألمه ينتهي عندما تزيد درجة الحرارة عن الخمسين -كما هو الحال في الدنيا- جاء الجواب بأنَّ جلده سيُغيَّر، فيعاد الجلد مرة أخرى ليستمر الإحساس بالألم.

هذا المعنى لم يدركه الإنسان بعلمه البشري إلا في العصر الحاضر بعد تقدم البحث والدراسة.

ولكن الله ﷻ قد ذكره في القرآن الكريم.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَـٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ ﴾ [النساء:٥٦].

يذكر سبحانه أنَّه سيعذب الكفار بالنار، وأنَّها ستأكل جلودهم وأنَّه سيعيدها كما

كانت، وذلك ليشعروا بالعذاب.

قال الشوكاني ﷺ: (والمعنى: أنها كلما احترقت جلودهم بدّلهم الله جلودًا غيرها. أي: أعطاهم مكان كل جلد محترق جلدًا آخر غير محترق، فإن ذلك أبلغ في العذاب للشخص؛ لأن إحساسه لعمل النار في الجلد الذي لم يحترق أبلغ من إحساسه لعملها في الجلد المحترق)[1].

وقال ابن عاشور: (والمعنى: كلّما احترقت جلودهم، فلم يبق فيها حياة وإحساس. (بدّلناهم)، أي: عوّضناهم جلودًا غيرها، والتبديل يقتضي المغايرة كما تقدّم في قوله في سورة البقرة: ﴿ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ﴾ [البقرة:٦١]. فقوله: (غَيْرَهَا) تأكيد لما دلّ عليه فعل التبديل. وانتصب (نَارًا) على أنَّه مفعول ثان؛ لأنّه من باب أعطَى.

وقوله: ﴿ لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ ﴾ [النساء:٥٦] تعليل لقوله: ﴿ بَدَّلْنَاهُمْ ﴾ [النساء:٥٦] لأنّ الجِلد هو الذي يوصل إحساس العذاب إلى النفس بحسب عادة خلق الله تعالى، فلو لم يبدّل الجلد بعد احتراقه لما وصل عذاب النار إلى النفس)[2].

فالربط بين الجلد والإحساس بالعذاب، وهو الحرق بالنار، يدل على أنَّ الجلد الظاهري للإنسان فيه مراكز الإحساس في الدنيا، وهو كذلك في الآخرة.

وهذا علمٌ لم يصل إليه العلم البشري إلا في العصر الحاضر[3].

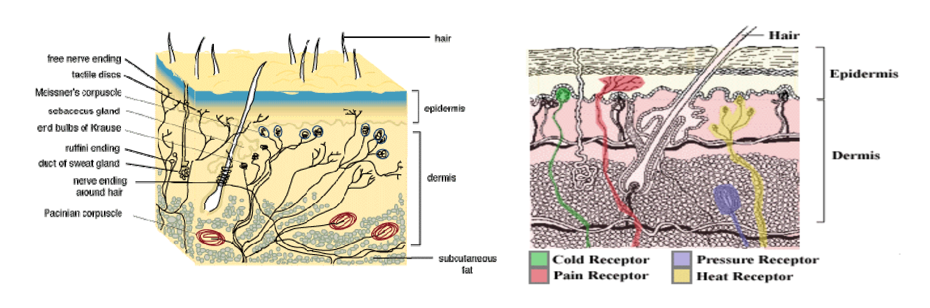
---

(1) فتح القدير: (١/ ٧٢٤).

(2) التحرير والتنوير: (١/ ٩٦٩).

(3) رحلة الإعجاز في جسم الإنسان (١٦٢).

وذلك دلالة على أنَّ القرآن الكريم كلام الله عز وجل.



وفي هذه الصورة -المكبرة آلاف المرات- للجلد توضيح لاشتمال الجلد على شعيرات تنقل الإحساس إلى الجلد، ثم تنتهي تلك الشعيرات في نهاية طبقة الجلد.

المثال الخامس: إشارة القرآن إلى بداية خلق الكون:

تتردد في النفس البشرية أسئلة كثيرة عن هذا الكون، تتطلع إلى معرفة الإجابة عليها، ومن تلك الأسئلة ما يلي:

١- متى بدأ الكون؟

٢- وما هي المادة التي خُلِق منها؟

٣-وكيف تم الخلق؟

٤- ولماذا وُجِد؟

٥-ومن أوجده؟

٦-وما هي نهايته؟

٧-وماذا بعد النهاية؟

كل هذه الأسئلة تتردد في ذهن الإنسان، والإنسان بمعرفته الخاصة لا يستطيع أن يجيب عليها، ولكنه لا يفتأ يبحث عنها.

أمَّا السؤال الأول: فلم يذكر القرآن عنه شيئًا، **وأمَّا الأسئلة** الستة الباقية: فقد أجاب عنها القرآن الكريم: بعضها بالإشارة، وبعضها بالعبارة.

فالأسئلة الأربعة الأخيرة:

لماذا أُوجد؟ ومن أوجده؟ وما هي نهايته؟ وماذا بعد النهاية؟

هي موضوع القرآن.

وأمَّا السؤالان الثاني والثالث وهما: ما هي المادة التي خلق منها؟ وكيف بدأ؟ فهما المقصودان بالبحث هنا.

وقد أشار القرآن إليهما إشارة في آياتٍ عدة.

قال تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ ﴾ [فصلت:١١].

فالآية تشير إلى أنَّ المادة التي خُلِقت منها السماء بما فيها من نجوم وكواكب أنَّها «دخان».

هذه حقيقة قرآنية عن مادة الخلق.

أما المفسرون فقد اضطربت أقوالهم، فمنهم من ظن أن المراد بالدخان بخار الماء؛ لأن الماء كان موجودًا قبل خلق السماء كما ذكر عز وجل ذلك في القرآن، ومنهم من فسره بالظلمة، ومنهم من أشار إلى الدخان الحقيقي، وهذا هو معنى الآية في اللغة سواء وافقها علم الإنسان أو خالفها، والعدول عن دلالة اللفظ الظاهرة إلى معنى خفي لا يجوز إلا إذا ثبت خلافه، وتفسير النص بحسب ظاهره ورد عن جماعة من المفسرين، منهم:

- الطبري حيث قال: (وعن ناس من أصحاب النبي ﷺ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ [البقرة:٢٩] قال: إن الله تبارك وتعالى كان عرشه على الماء، ولم يخلق شيئًا غير ما خلق قبل الماء، فلما أراد أن يخلق الخلق أخرج من الماء دخانًا، فارتفع فوق الماء فسما عليه، فسماه سماءً.

وقال: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾ [فصلت:١١] وكان ذلك الدخان من تنفس الماء حين تنفس، فجعلها سماء واحدة،)[1].

- والشوكاني حيث قال: (قال الحسن: معنى الآية: صعد أمره إلى السماء: ﴿ وَهِىَ دُخَانٌ ﴾ [فصلت:١١] الدخان ما ارتفع من لهب النار، ويستعار لما يرى من بخار الأرض. قال المفسرون: هذا الدخان هو: بخار الماء)[2].

وأما ابن عاشور فقد ذكر جملة من الأقوال مع الإشارة إلى ما في التوراة مع ترجيح خلافه، فقال: (والدخان: ما يتصاعد من الوَقود عند التهاب النار فيه. وقوله: ﴿ وَهِىَ دُخَانٌ ﴾ [فصلت:١١] تشبيه بليغ. أي: وهي مثل الدخان، وقد ورد في الحديث: «أنها كانت عَماء».

وقيل: أراد بالدخان هنا شيئًا مظلمًا، وهو الموافق لما في «سفر التكوين» من قولها: «وعلى وجه الغمر ظلمة» وهو بعيد عن قول النبي ﷺ أنه لم يكن في الوجود من الحوداث إلا العَماءَ، والعماء: سحابٌ رقيق. أي: رطوبة دقيقة، وهو تقريب للعنصر الأصلي الذي خَلق الله منه الموجودات، وهو الذي يناسب كوْنَ السماء مخلوقة قبل الأرض. ومعنى: ﴿

(1) تفسير الطبري: (١/ ٢٢٢).

(2) فتح القدير: (٤/ ٧٢٢).

وَهِىَ دُخَانٌ ﴾ [فصلت:١١] أن أصل السماء هو ذلك الكائن المشبه بالدخان، أي: أن السماء كونت من ذلك الدخان كما تقول: عمَدْتُ إلى هاته النخلة وهي نواة، فاخترت لها أخصب تربة، فتكون مادة السماء موجودة قبل وجود الأرض)[١].

وقوله هذا يكاد يقترب من أقوال علماء الطبيعة المعاصرين. أمَّا كيف تم الخلق..؟ فيذكر القرآن أنَّ السماء والأرض كانتا مع بعضهما ثمَّ فصل بينهما.

قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَـٰهُمَا ﴾ [الأنبياء:٣٠].

فيُفهم من الآية أنَّ السموات بما فيها من أجرام كانت ملتحمة مع الأرض ثمَّ فصل الله عزوجل بينهما.

قال الطبري: (ثم اختلف أهل التأويل في معنى وصف الله السموات والأرض بالرتق، وكيف كان الرتق، وبأيّ معنى فتق؟ فقال بعضهم: عَنَى بذلك أن السموات والأرض كانتا ملتصقتين ففصل الله بينهما بالهواء.

ثم روى بسنده عن ابن عباس، قوله: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا ﴾ [الأنبياء:٣٠] يقول: ملتصقتين)[٢].

وقال ابن عاشور: (ويحتمل أن يراد بالرتق: اتحاد الموجودات حين كانت مادة واحدة أو كانت أثيرًا أو عَمَاء، كما جاء في الحديث: «كان في عماء»، فكانت جنسًا عاليًا متحدًا ينبغي أن يطلق عليه اسم مخلوق) إلى أن قال : (وقد اصطلحوا على تسمية هذا التمييز

(1) التحرير والتنوير: (١/ ٣٧٩٩).

(2) تفسير الطبري: (٩/ ١٩).

بالرتق والفتق)[1].

هذه بعض أقوال المفسرين وهي أقرب إلى ظاهر الآية، والله أعلم.

ولَّا تقدَّم العلم البشري رأى أنَّ في السماء: «سديمًا» أي ضبابًا رقيقًا، وتقرَّر عنده أنَّه أصل خلق النجوم والكواكب، فاعتقد أنَّه هو المادة الأولى التي تكونت منها السموات والأرض.

وهذه النظرية أعلنها الفيلسوف الألماني: «عمانويل كانت» عام (١٧٥٥م) ونشرها واعتمدها الرياضي الفرنسي: «ببير لابلاس» عام (١٧٩٦م).

وهما زالت هذه النظرية هي المعتمدة إلى اليوم، ولكن وصف القرآن للمادة بأنَّها: «دخان» أدق؛ لأنَّها غازات حارة شديدة الحرارة، وقد أجرى الطبيب الفرنسي الشهير: «موريس بوكاي» المهتدي مقارنةً بين هذه الإشارات القرآنية وبين النظريات العلمية الحديثة، وانتهى إلى النتيجة الآتية: (إنَّ هذه المقارنة تقودنا إلى حقيقة قاطعة: لا يمكن أن تكون معطيات القرآن وتقريراته من كلام بشر، بل هي من كلام الله سبحانه)[2].

ولاشك أن دلالة الآية التي وافقها العلم الحديث تدل على أن هذا القرآن ليس من كلام البشر.

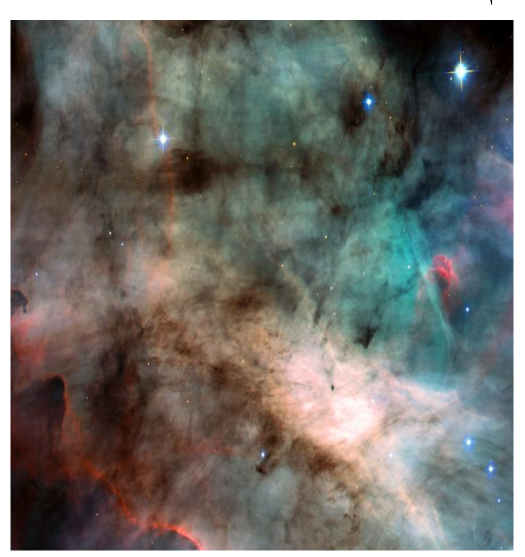
والحقيقة القرآنية تبقى هي المقياس، سواء وافقها علم الإنسان أو خالفها، ولكن المقصد أن الإنسان رغم تقدم معرفته لم يجد ما يخالف القرآن، بل الذي وصل إليه هو ما دل عليه القرآن، مما يؤكد أن هذا القرآن ليس من علم البشر وإلا لظهر منه مناقضة لما

---

(1) التحرير والتنوير: (١/ ٢٧٠٧).

(2) الكتب المقدسة على ضوء المعارف الحديثة (١٧٤).

توصل إليه الإنسان مما لم يكن معروفًا له من قبل، إذ يستحيل أن يتكلم البشر عن أمور لم تعرف إلا بعد مئات السنين ثم يوافقها العلم الحديث ولا يخالفها.



وهذه الصورة منظر تقريبي لشكل السديم الذي خلقت منه الأجرام السماوية، وهي أقرب إلى ما ذكره القرآن الكريم حسب تصور البشر.

وأما نحن المسلمين فعلى يقين أن المادة التي خلقت منها الإجرام السماوية أنها: (دخان)، سواء وصل البشر إلى معرفتها أم لم يصلوا، ولا يستطيع البشر أن ينتهوا إلى غير هذه الحقيقة.

المثال السادس: دلالة القرآن على أنَّ السماء في اتساع دائم:

قال تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾[الذاريات:٤٧].

يذكر ﷻ أنه بنى السماء – أي: خلقها وأتقنها – ثم إنه ﷻ سيزيد في سعتها.

هذا هو المعنى الظاهر من الآية.

وأما المفسرون القدامى فقد اضطربت أقوالهم بين عدة معان:

منها:أن المراد إثبات قدرة الله ﷻ.

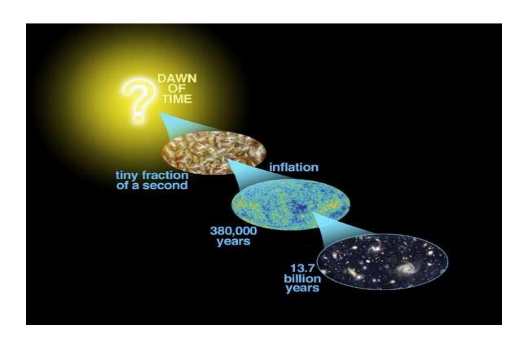
ومنها: التوسعة في الإنفاق.

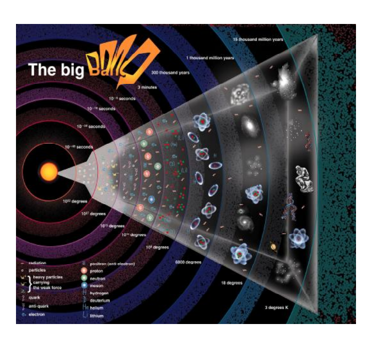
ومنها: توسيع ما بين السماء والأرض، وهذا المعنى كاد يلامس ما توصل إليه العلم

الحديث.

قال النسفي: (﴿ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ٤٧ ﴾ [الذاريات:٤٧] لقادرون من الوسع وهي الطاقة، والموسع القوي على الإنفاق، أو لموسعون ما بين السماء والأرض)(١).

وقال أبو حيان: (﴿ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ٤٧ ﴾ [الذاريات:٤٧]: أي: بناءها، فالجملة حالية، أي: بنيناها مُوَسِّعُوها، كقوله: جاء زيد وإنه لمسرع، أي: مسرعًا، فهي بحيث إن الأرض وما يحيط بها من الماء والهواء كالنقطة وسط الدائرة)(٢).





وهاتان الصورتان توضحان بداية الانفجار الكوني حسب تصور الإنسان اليوم، إلا أنها تبقى صورة خيالية، ولكنها تقرر ما قرره القرآن الكريم.

قال الرازي: (وقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ٤٧ ﴾ [الذاريات:٤٧] فيه وجوه:

أحدها: أنه من السعة. أي: أوسعناها بحيث صارت الأرض وما يحيط به من الماء والهواء بالنسبة إلى السماء وسعتها كحلقة في فلاة، والبناء الواسع الفضاء عجيب، فإن القبة الواسعة لا يقدر عليها البناءون؛ لأنهم يحتاجون إلى إقامة آلة يصح بها استدارتها

(1) تفسير النسفي: (٤/ ١٨١).

(2) تفسير البحر المحيط: (٨/ ١٤٠).

ويثبت بها تماسك أجزائها إلى أن يتصل بعضها ببعض)[١].

وقال البيضاوي: (﴿ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ [الذاريات:٤٧] لقادرون، من الوسع، بمعنى الطاقة، والموسع: القادر على الإنفاق، أو ﴿ لَمُوسِعُونَ ﴾ [الذاريات:٤٧] السماء أو ما بينها وبين الأرض أو الرزق)[٢].

وقال ابن عاشور: (والمُوسِع: اسم فاعل من أوسع، إذا كان ذا وُسع. أي: قدرة. وتصاريفه جائية من السَّعة، وهي امتداد مساحة المكان ضد الضيق، واستعير معناها للوفرة في أشياء)[٣].

هذه أقوال علماء التفسير على ضوء المعنى اللغوي.

وأما علماء الفلك في العصر الحاضر فقد أكدوا أن الفضاء في اتساعٍ دائم وأن المجرات تتباعد فيما بينها.

فقد صرَّح الفلكي الأمريكي: «هابل» بأنَّ المجرات تتباعد[٤].

وشبَّهها البروفيسور: «إيدنجتون»» بالبالون الذي يتسع كلَّما نفخته[٥].

وهذه حقيقة لم يدركها الإنسان من خلال الرصد والتتبع إلا في العصر الحاضر، ممَّا يؤكد أنَّ القرآن كلام الله عزَّ وجلَّ.

المثال السابع: إشارة القرآن إلى نقص الأكسجين وزيادة الضغط كلما ارتفع

(1) التفسير الكبير: (٢٨/ ٢٠٩).

(2) تفسير البيضاوي: (١/ ٢٤١).

(3) التحرير والتنوير: (١/ ٤١٥٤-٤١٥٥).

(4) ذكره صاحب كتاب التقدم العلمي (١٩).

(5) أورده صاحب كتاب المعجزة القرآنية (٢٠٢).

الإنسان في الفضاء:

وردت آية تشبِّه حال الإنسان غير المسلم بمن يصعد إلى أعلى فإنَّه يُصاب بضيق واختناق يكاد ينتهي به إلى الموت البطيء.

والإنسان اليوم قد اكتشف أنَّ: (الأكسجين) الذي يحتاجه الإنسان ينقص كلَّما ارتفع إلى أعلى، ثمَّ إنَّ الضغط الجوي يزداد كذلك، ولهذا يُنصح من كان عنده مرض صدري أو قلبي أن يسكن الأماكن الموازية لسطح البحر.

وهذا يفسر لنا معنى الآية، ويقرِّر دلالتها ممَّا يبين أنَّ هذا القرآن ليس من كلام الإنسان؛ لأنَّه لم يعرف هذه الحقيقة إلا في العصر الحاضر.

قال تعالى: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾[الأنعام:١٢٥].

فالآية تشير إلى أنَّ صدر الإنسان يضيق إذا صعد إلى السماء، وأنَّ هذا الضيق يزداد كلَّما ازداد الإنسان في الارتفاع، وعبر بكلمة : «يصَّعَّد» لبيان زيادة المشقة كلما صعد في العلو.

فلماذا يضيق الصدر كلما ارتفع الإنسان في الفضاء؟

لقد ثبت علميًّا أنَّ الأكسجين ينقص كلَّما ارتفع الشخص في الفضاء، ونقْصُ الأكسجين يصيب الرئتين اللتين في الصدر بالضيق، فتتلاحق حركاتهما سريعًا لتوفير أكسجين للجسم لقلة الداخل إليهما، ثمَّ إنَّ الضغط الجوي يزداد على الجسم كلَّما ارتفع الإنسان.

وهذا كله يفسر معنى: (الضيق) و(الحرج) اللذين يلحقان بالإنسان أثناء الصعود.

وهذا يؤكد أنَّ القرآن كلام الله عز وجل.

أما المفسرون القدماء فقد فسروا الآية بأن الله عز وجل ضرب مثالًا للكافر الذي لم يرد عز وجل هدايته بضيق صدره عن قبول الإيمان كالذي يحاول الصعود مع ضعف القدرة.

قال الطبري: (القول في تأويل قوله تعالى: ﴿ كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾[الأنعام:١٢٥].

وهذا مثَل من الله -تعالى ذِكْرُه- ضربه لقلب هذا الكافر في شدّة تضييقه إياه عن وصوله إليه، مثل امتناعه من الصعود إلى السماء وعجزه عنه؛ لأن ذلك ليس في وسعه)[1].

وقال القرطبي: (قوله تعالى: ﴿ كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾[الأنعام:١٢٥] قرأه ابن كثير بإسكان الصاد مخفَّفًا، من الصعود وهو الطلوع.

شبه الله الكافر في نفوره من الإيمان وثِقله عليه بمنزلة من تكلّف ما لا يُطيقه؛ كما أن صعود السماء لا يطاق)[2].

وقال ابن عاشور: (مُثِّل حال المشرك حين يدعى إلى الإسلام أو حين يخلو بنفسه فيتأمل في دعوة الإسلام بحال الصّاعد؛ فإنّ الصّاعد يضيق تنفّسه في الصّعود، وهذا تمثيل هيئة معقولة بهيئة متخيَّلة)[3].

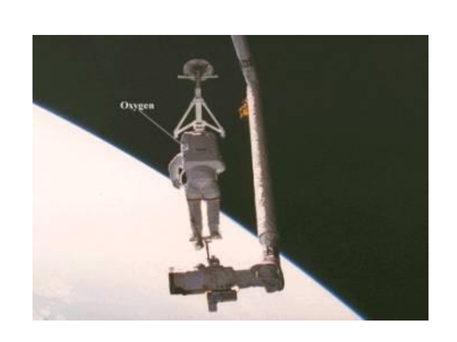
وكلام ابن عاشور هذا اقترب من ظاهر الآية بحسب ما توصل إليه علماء الطبيعة في العصر الحاضر، والله أعلم.

---

(1) تفسير الطبري: (٥/ ٣٣٥).

(2) تفسير القرطبي: (٧/ ٧٢).

(3) التحريروالتنوير: (١/ ١٤١٦).



وهذه صورة رائد فضائي مزود بملابس وأجهزة تحفظه من الضغط الجوي وتوفر له الأكسجين في أعالي الفضاء حيث ينعدم هناك.

المثال الثامن: حديث القرآن عن الأرض:

وردت آية في كتاب الله ﷻ تدل على أنَّ الأرض كروية، حيث ذكرت أنَّ الله ﷻ يكوِّر الليل على النهار ويكوِّر النهار على الليل، والليل والنهار يحيطان بالأرض من كل اتجاه، فنصفها نهار ونصفها ليل، وتتلاقى أطرافهما من جميع أطراف الأرض؛ لأن بعضيهما مكور على البعض الآخر، فلفظ التكوير مأخوذ من كوَّر الشيء فهو مكوَّر، أي: لفَّه على جهة الاستدارة.

فاللفظ من «يكوِّر» يدل على أنَّ في داخل التكوير كرة.

قال تعالى: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ﴾ [الزمر:٥]. قال ابن حزم الذي عاش قبل تسعمائة وستين سنة تقريبًا، فقد توفي عام (٤٥٦هـ) أوائل القرن الثاني عشر الميلادي، قال بعد إيراد الآية: (وهذا أوضح بيان في تكوير بعضها على بعض، مأخوذ من كوَّر العمامة، وهو إدارتها، وهذا نص على تكوير الأرض)[١].

وقال ابن عاشور: (والتكوير حقيقته: اللف والليُّ، يقال: كَوَّر العمامةَ على رأسه إذا لواها ولفَّها، ومُثِّلت به هنا هيئة غشيان الليل على النهار في جزء من سطح الأرض؛

---

(١) الفصل (٢/ ٩٧).

وعكسُ ذلك على التعاقب بهيئة كَوْر العمامة، إذ تغشى الليَّةُ الليَّةَ التي قبلها.

وهو تمثيل بديع قابل للتجزئة بأن تشبه الأرض بالرأس، ويشبه تعاور الليل والنهار عليها بلف طيات العمامة، ومما يزيده إبداعًا: إيثار مادة التكوير الذي هو معجزة علمية من معجزات القرآن المشار إليها في المقدمة الرابعة والموضحة في المقدمة العاشرة.

فإن مادة التكوير جَائية من اسم الكُرة، وهي الجسم المستدير من جميع جهاته على التساوي، والأرض كروية الشكل في الواقع، وذلك كان يجهله العرب وجمهور البشر يومئذٍ، فأومأ القرآن إليه بوصف العَرضين اللذين يعتريان الأرض على التعاقب وهما النور والظلمة، أو الليل والنهار، إذ جعل تعاورهما تكويرًا؛ لأن عَرَض[1] الكرة يكون كرويًا تبعًا لذاتها. فلما كان سياق هذه الآية للاستدلال على الإله الحقِّ بإنشاء السموات والأرض اختير للاستدلال على ما يَتبع ذلك الإنشاء من خلق العَرضين العظيمين للأرض مادةُ التكوير دون غيرها من نحو الغشيان الذي



عبر به في قوله تعالى: ﴿ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ﴾ [الأعراف:٥٤]، لأن تلك الآية مسوقة للدلالة على سعة التصرف في المخلوقات؛ لأن أولها: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ [الأعراف:٥٤] فكان تصوير ذلك بإغشاء الليل والنهار خاصة؛ لأنه دل على قوة التمكن من تغييره أعراض مخلوقاته، ولذلك اقتصر على تغيير أعظم عَرَض وهو النور بتسليط الظلمة عليه، لتكون هذه الآية لمن يأتي من المسلمين

---

(1) العَرَضُ هنا يراد به ما يحيط بالأرض من النور والظلمة.

الذين يطلعون على علم الهيئة فتكون معجزة عندهم)[1].

وهذا يؤكد أنَّ هذا الكلام صادر من الله ﷻ خالق الأرض والكون كله سبحانه.

المثال التاسع: حديث القرآن عن الجبال:

ذكر القرآن أنَّ الجبال «أوتاد» للأرض، والوتد في اللغة العربية: هو عمود صغير من الخشب أو الحديد يغرز في الأرض ليثبت به الخيمة أو تربط به الدابة.

فالوتد يُدق في الأرض فيدخل فيها ويبقى طرفه الأعلى بارزًا ليمسك الشيء الذي دُق من أجله، فبعض الوتد داخل الأرض وبعضه خارجها، وهكذا وُصفت الجبال بأنها أوتاد، كما وصفت في آية أخرى بأنها رواسي، قال الله ﷻ: ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَـٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ ﴾ [النبأ:٧].

وقال ﷻ: ﴿ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [الأنبياء:٣١].

والمفسرون القدماء أكدوا أن المقصود من الجبال هو تثبيت الأرض، لكن ليس بالمفهوم الحديث الذي اكتشف العلماء فيه أن الأرض طبقات تنتهي إلى مادة عجينية فوقها طبقات صلبة تخترقها الجبال فتحفظها من الانزلاق، وإنما أرادوا أن الآية تدل على تثبيت الأرض من الاضطراب، وكذلك علماء الطبيعة أكدوا أن الجبال تحفظ الأرض من الاضطراب، لكن الاضطراب الذي يقصده علماء الطبيعة غير الاضطراب الذي يقصده المفسرون؛ لأن لفظ الآية يدل على أن الجبال خلقت لحفظ الأرض.

(1) التحرير والتنوير: (١/ ٣٦٦٠).

وفيما يلي نماذج من كلام قدماء المفسرين:

قال الطبري: (﴿وَٱلۡجِبَالَ أَوۡتَادٗا ٧﴾ [النبأ:٧] يقول: والجبال للأرض أوتادًا أن تميد بكم.

ويقول تعالى ذكره: أو لم ير هؤلاء الكفار أيضًا من حججنا عليهم وعلى جميع خلقنا: أنا جعلنا في الأرض جبالًا راسية؟ والرواسي: جمع راسية، وهي الثابتة كما حدثنا بِشر، قال: ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد، عن قَتادة: قوله: ﴿وَجَعَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ﴾ [الأنبياء:٣١]، أي: جبالًا.

وقوله: ﴿أَن تَمِيدَ بِهِمۡ﴾ [الأنبياء:٣١] يقول: أن لا تتكفأ بهم.

يقول جلّ ثناؤه: فجعلنا في هذه الأرض هذه الرواسي من الجبال، فثبتناها لئلا تتكفأ بالناس، وليقدروا بالثبات على ظهرها)[١].

وأما علماء الطبيعة فقد توصلوا إلى معرفة جديدة من خلال الدراسات الحديثة.

فقد اكتشفوا أنَّ الجبال لها جزء كبير داخل الأرض قد يصل إلى الثلثين، وأنَّ مهمتها تثبيت القشرة الظاهرة من الأرض فوق الطبقة التي تحتها.

فالأرض طبقات.

أعلاها: القشرة الصلبة المحيطة بالأرض، وتحتها طبقة ثانية عجينية، وتحت هذه الطبقة طبقة سائلة ثم النواة التي هي نار ملتهبة.

والقشرة الأرضية مقسمة إلى قارات فوق هذه المادة العجينية، والجبال تثبت هذه

---

(١) تفسير الطبري: (٩/ ٢٢).

القارات فوق تلك المادة العجينية، فإنَّ الجبال جزء منها فوق القشرة وجزء منها داخل هذه المادة العجينية في الأعماق، وهذا لم يكتشفه العلماء المتخصصون إلا في العصر الحاضر.

وبهذا يعلم أنَّ هذا الكلام ليس من كلام الإنسان، وإنَّما هو من كلام خالق الإنسان.

وهذا ما يؤكده أصحاب الاختصاص اليوم، حيث يذكرون أنَّ طبقة القشرة الأرضية التي نعيش عليها هي التي تشكل القارات وتحتضن المحيطات، وهي ترتفع جبالًا في مكان، وتنخفض وديانًا في مكان آخر، وتشكل السهول الخضراء، والصحاري المقفرة. وتلي هذه الطبقة مباشرة -ضمن ترتيب طبقات الأرض- طبقة السيما.

وطبقة السيما أصلب من طبقة السيال، ولكنها تحت ثقل طبقة السيال الهائل يصبح لها قوام عجيني، فما دام الثقل فوقها، وهذا القوام العجيني يسهل انزلاق القارات عليها، كما يسهل اندفاع البراكين منها، فقارة أمريكا تنزلق حاليًا نحو الشرق بسرعة ملحوظة للقياسات العلمية، كما هو شأن جميع القارات، إذ كانت متصلة ثمَّ انفصلت وتباعدت.

وأثناء هذا الانسياح المجهول الأسباب للقارات، تعاني مقدمة القارة ضغطًا من السيما يجعد وجهها، فتحدث الجبال بقممها البارزة في الهواء، وجذورها الغائرة في السيما.

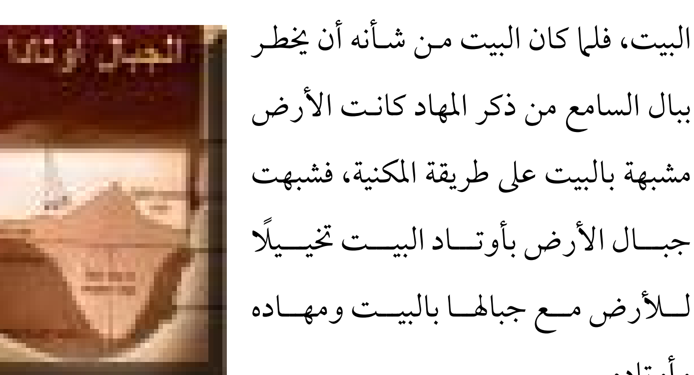
ومن المعتقد أنَّ القسم البارز من الجبل يقابله جذر أطول منه بأربع مرات ونصف غائر في السيما، وهذه الجذور الغائرة تشكل وتدًا يمنع القارة من التمادي في الانزلاق، فالقارة الأمريكية تنزلق بسرعة تزيد عن المتر في السنة، ولكن القوة التي تدفعها للانزلاق كان من الممكن أن تدفعها بسرعة تبلغ كيلو مترات كثيرة لولا وجود الأوتاد الجبلية

المتدة في السيما[١].

وقد حام بعض المفسرين المعاصرين حول المعنى لولا أنه مال إلى مجازية التشبيه.

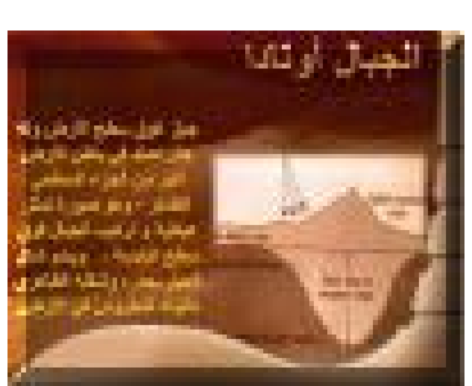
قال ابن عاشور: (والأوتاد: جمع وتد -بفتح الواو وكسر المثناة الفوقية- والوتد: عود غليظ شيئًا، أسفله أدق من أعلاه، يُدق في الأرض لتُشد به أطناب الخيمة، وللخيمة أوتاد كثيرة على قدر اتساع دائرتها، والإِخبار عن الجبال بأنها أوتاد على طريقة التشبيه البليغ. أي: كالأوتاد.

ومناسبة ذكر الجبال دعا إليها ذكر الأرض وتشبيهُها بالمهاد الذي يكون داخل البيت، فلما كان البيت من شأنه أن يخطر ببال السامع من ذكر المهاد كانت الأرض مشبهة بالبيت على طريقة المكنية، فشبهت جبال الأرض بأوتاد البيت تخييلًا للأرض مع جبالها بالبيت ومهاده وأوتاده.



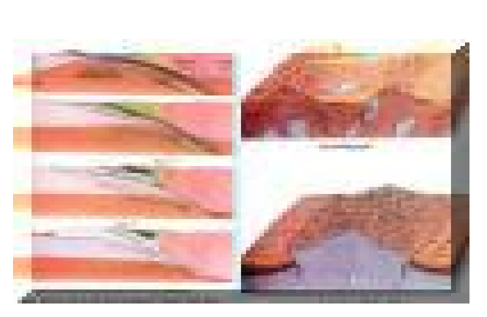
وأيضًا فإن كثرة الجبال الناتئة على وجه الأرض قد يخطر في الأذهان أنها لا تناسب جعل الأرض مهادًا، فكان تشبيه الجبال بالأوتاد مستملحًا بمنزلة حسن الاعتذار، فيجوز أن تكون الجبال مشبهة بالأوتاد في مجرد الصورة مع هذا التخييل، كقولهم: (رأيت أسودًا غَابُها الرماح).

ويجوز أن تكون الجبال مشبهة بأوتاد الخيمة في أنها تشد الخيمة من أن تقلعها الرياح أو



(١) المعجزة القرآنية (٢٢٩).

تزلزلها بأن يكون في خلق الجبال للأرض حكمة لتعديل سبح الأرض في الكرة الهوائية، إذْ نُتُوء الجبال على الكرة الأرضية يجعلها تكسر تيار الكُرة الهوائية المحيطة بالأرض فيعتدل تيّاره حتى تكون حركة الأرض في كرة الهواء غير سريعة)[1].



وفي هذه الصور رسم للجبال يبين نزول طرفها الأسفل أكثر من الأرض المسطحة بجوارها مما يقرر مشابهتها لشكل: (الوتد) الذي ينزل طرفه الأسفل إلى الأرض ثم يبقى طرفه الأعلى فوق سطح الأرض.

المثال العاشر: حديث القرآن عن البحار:

قال الله عز وجل: ﴿ أَوْ كَظُلُمَـٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَـٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ ﴾[النور:٤٠].

قال الطبري: (وهذا مَثَل آخر ضربه الله لأعمال الكفار، يقول تعالى ذكره: ومَثَل أعمال هؤلاء الكفار في أنها عُمِلت على خطأ وفساد وضلالة وحيرة من عمالها فيها وعلى غير هدى مَثَل ظلمات (في بحر لُجِّي)، ونسبة البحر إلى اللُّجة وصفًا له بأنه عميق كثير الماء. ولجُة البحر: معظمه، (يَغْشاهُ مَوْج) يقول: يغشى البحر موج، (مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ): يقول: من فوق الموج موج آخر يغشاه، (مِنْ فَوْقِهِ سحَابٌ): يقول: من فوق الموج الثاني الذي يغشى الموج الأوّل سحاب. فجعل الظلمات مثلًا لأعمالهم، والبحر اللجيّ مثلًا

(1) التحرير والتنوير: (١/ ٤٦٨٧).

لقلب الكافر.

يقول: عَمِل بنية قلبٍ قد غَمَره الجهل وتغشَّته الضلالة والحَيرة كما يغشى هذا البحر اللُّجيَّ موج من فوقه موج من فوقه سحاب، فكذلك قلب هذا الكافر الذي مَثَل عمله مَثَل هذه الظلمات، يغشاه الجهل بالله، بأن الله ختم عليه؛ فلا يعقل عن الله، وعلى سمعه؛ فلا يسمع مواعظ الله، وجعل على بصره غشاوة؛ فلا يبصر به حجج الله، فتلك ظلمات بعضها فوق بعض)[١].

فالآية الكريمة تقرر وجود طبقتين من الأمواج في البحار العميقة، وقد كان الناس في الماضي إنما يشاهدون الأمواج الظاهرة التي على سطح البحار، أما الأمواج التي في الأعماق فلم تكتشف إلا في القرن السابع عشر الميلادي، اكتشفها بعض البحارة الاسكندنافيين[٢].

وهذا يدل على أنَّ هذا القرآن ليس من كلام الإنسان، وإنَّما هو كلام خالق الإنسان الذي يعلم ما خلق سبحانه.

---

(1) تفسير الطبري: (٩/ ٣٣٥).

(2) أورده صاحب كتاب: (البحر المحيط بنا) (راشل ل. كارسون).

المثال الحادي عشر: إشارة القرآن إلى أن أوراق الأشجار مصانع غذاء للحبوب والثمار:

لو تتبعنا سير نمو الأشجار لرأينا أنَّها تمر بعدة مراحل هي:

۞ طلوع الساق من التربة.

۞ خروج الفروع والأغصان من هذا الساق.

۞ خروج الأوراق الخضراء من الأغصان.

۞ خروج الحبوب والثمار.

فإذا نضجت تلك الحبوب والثمار -في أكثر الأشجار- ترى الأوراق الخضراء ينقلب لونها إلى أصفر ثمَّ تيبس، فالثمار لا تخرج إلا بعد ظهور الأوراق الخضراء، والقرآن ينص على أنَّ الحبوب والثمار تخرج وتنمو من هذه الأوراق الخضراء، والعلم البشري اليوم يقرِّر أنَّ الأوراق الخضراء هي المصنع الذي يصنع غذاء الحبوب والثمار لكي تخرج وتنضج.

وهذه الحقيقة لم تُعرَف إلا اليوم، من خلال دراسات وتجارب، وهذا يؤكد أنَّ القرآن هو كلام الله عز وجل، وليس كلام المخلوق.

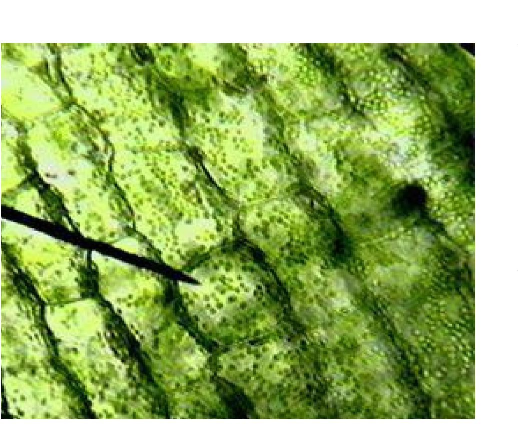
قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾ [الأنعام:٩٩].

معنى الآية: يذكر عز وجل أنَّه هو الذي أنزل المطر من السماء فسقى به النبات فظهر ساقه

إلى أعلى ثمَّ أخرج من الساق ورقًا أخضر، وهذا الورق الأخضر أخرج منه حبًّا متجمعًا.

وترتيب مراحل النمو بهذه الدقة وربط كل مرحلة بما قبلها، والإشارة إلى الارتباط بين الخضرة والحبوب والثمار قد أكده أهل الاختصاص اليوم ممَّا يدل على أنَّ هذا الكلام هو كلام الله عزَّ وجلَّ.

أما المفسرون القدامى فقد فسروا الآية على ظاهر النظم الذي لايتعارض مع ما توصل إليه علماء الطبيعة اليوم.



قال الرازي: (وقوله: (نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا) يعني: يخرج من ذلك الخضر حبًا متراكبًا بعضه على بعض في سنبلة واحدة؛ وذلك لأن الأصل هو ذلك العود الأخضر، وتكون السنبلة مركبة عليه من فوقه، وتكون الحبات متراكبة بعضها فوق بعض)[1].

قال الشوكاني: (فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا). قال الأخفش: أي أخضر. وأخضر: رطب البقول، وهو ما يتشعب من الأغصان الخارجة من الحبة؛ وقيل: يريد القمح والشعير والذرة والأرز وسائر الحبوب.

(نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا) هذه الجملة صفة لـ : (خضرًا). أي: نخرج من الأغصان الخضر (حبًا متراكبًا) أي: مركبًا بعضه على بعض كما في السنابل).[2].

(1) تفسير الرازي: (١٣/ ٨٩).

(2) فتح القدير: (٢/ ٢٠٨).

المثال الثاني عشر: دلالة القرآن على أن الزوجية أساس المخلوقات:

الإنسان والحيوان والطير.. وغيرها من الأحياء.. الأشجار والنباتات.. الجمادات.. الماء والأشعة.. كلها ثبت علميًا أنَّها: «زوجية»، مخلوقة من شيء ومقابله أو مكمل له، هذه الحقيقة أثبتها القرآن الكريم، حيث ذكر الله عز وجل أنه خلق كل شيءٍ زوجين.

قال تعالى: ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الذاريات:٤٩].

قال ابن كثير: (﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾ [الذاريات:٤٩] أي: جميع المخلوقات أزواج، سماء وأرض وليل ونهار، وشمس وقمر، وبر وبحر، وضياء وظلام، وإيمان وكفر، وموت وحياة، وشقاء وسعادة، وجنة ونار، حتى الحيوانات والنباتات -جن وإنس، ذكور وإناث- ولهذا قال تعالى: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الذاريات:٤٩]. أي: لتعلموا أن الخالق واحد لا شريك له)[1].

ذكر ابن كثير أن الآية تشمل جميع المخلوقات، ولكن التمثيل إنما كان بما يعرف آنذاك من المخلوقات الزوجية، لكن دلالة الآية حسب لفظها أوسع مما مثل به رحمه الله.

فالآية تدل على أن الله عز وجل خلق من كل شيء في هذا الوجود «زوجين» وذلك يشمل كل الموجودات الحية والجمادية والكهربية وغيرها مما عرفه البشر ومما لم يعرفوه.

وهذا ما توصَّل إليه العلم البشري اليوم، فقد توصل العالم الأمريكي: «كارل اندرسون» إلى أنَّ الأشعة الكونية تتكون من أجزاء.

وتوصل العالم الرياضي الإنجليزي: «بول ديراك» عام (١٩٢٨م) إلى أنَّ الذرات تشتمل على جزئين متضادين.

ثمَّ جاء عالمان بريطانيان فجمعا بين الدراستين وانتهيا إلى إثبات النظريتين، وأنَّ المادة

---

(1) تفسير ابن كثير: (٤/ ٣٠٣).

والإشعاع كليهما يقومان على الزوجية[1].

فالقرآن قرر أن جميع الموجودات تقوم على الزوجية، وهو نفس ما توصل إليه الإنسان اليوم من خلال المختبرات.

وها هي الكهرباء تتكون من تيارين: سالب وموجب، إذا التقيا نتج عنهما طاقة أو ضوء.

وهكذا كلَّما تقدم علم الإنسان ظهر له أنَّ القرآن الكريم هو كلام الخالق عز وجل.

المثال الثالث عشر: إشارة القرآن الكريم إلى الفرق بين التقويم الشمسي والتقويم القمري:

عندما ذكر الله عز وجل أصحاب الكهف - وهم طائفة من الشباب خرجوا فرارًا بدينهم من مجتمع غير مؤمن بالله عز وجل، ودخلوا في كهف في جبل فناموا فيه زمنًا طويلًا معهم كلبهم، وذلك بإرادة الله عز وجل، ثمَّ إنَّ الجيل الذي كانوا فيه هلك، وتتابعت بعده أجيال أخرى، وهؤلاء لا يدرون شيئًا عن الحياة، ثمَّ أحياهم الله عز وجل.. إلى آخر القصة، وفيها تحديد الزمن الذي استغرقوه في النوم ذكر سبحانه أنَّهم استغرقوا ثلاثمائة سنة وازدادوا تسع سنين.

وعند تحليل الخبر ظهر أنَّ الله عز وجل ذكر مدة نومهم بحسابين:

الأول: بحساب السنة الشمسية.

والثاني: بحساب السنة القمرية.

فإنَّ كل مائة سنة شمسية تزيد عنها السنة القمرية ثلاث سنوات.

فثلاثمائة سنة زادت تسع سنوات.

(1) كتاب المعجزة القرآنية (٢٤٤).

قال تعالى: ﴿ وَلَبِثُواْ فِي كَهۡفِهِمۡ ثَلَٰثَ مِاْئَةٖ سِنِينَ وَٱزۡدَادُواْ تِسۡعٗا ﴾ [الكهف:٢٥].

والعرب لم تكن تعرف إلا الحساب القمري؛ فإنَّهم آنذاك أمَّة أمية لا يقرءون ولا يكتبون، والسنة الشمسية لم تكن تُعرف في مجتمعهم، فعدم معرفتهم بالفرق بين التاريخين من باب أولى[(١)].

وهذه الإشارة الدقيقة إلى التاريخين دليل أنَّ هذا الكتاب من عند الله عز وجل.

قال القرطبي: (وحكى النقاش ما معناه أنهم لبثوا ثلاثمائة سنة شمسية بحساب الأيام؛ فلما كان الإخبار هنا للنبيّ العربي ذكرت التسع؛ إذ المفهوم عنده من السنين القمرية، وهذه الزيادة هي ما بين الحسابين. ونحوه ذكر الغزنوي. أي: باختلاف سنين الشمس والقمر؛ لأنه يتفاوت في كل ثلاث وثلاثين وثلث سنة سنة فيكون في ثلاثمائة وتسع سنين)[(٢)].

وقال ابن كثير: (هذا خبر من الله تعالى لرسوله ﷺ بمقدار ما لبث أصحاب الكهف في كهفهم منذ أرقدهم إلى أن بعثهم الله وأعثر عليهم أهل ذلك الزمان، وأنه كان مقداره ثلاثمائة سنة وتسع سنين بالهلالية، وهي الثلاثمائة سنة بالشمسية؛ فإن تفاوت ما بين كل مائة سنة بالقمرية إلى الشمسية ثلاث سنين، فلهذا قال: بعد ثلاثمائة وازدادوا تسعًا)[(٣)].

وقال ابن عاشور: (والمعنى: أن يقدر لبثهم بثلاثمائة وتسع سنين. فعبر عن هذا العدد بأنه ثلاثمائة سنة وزيادة تسع، ليعلم أن التقدير بالسنين القمرية المناسبة لتاريخ العرب والإسلام، مع الإشارة إلى موافقة ذلك المقدار بالسنين الشمسية التي بها تاريخ

(1) المنهج الإيماني للدراسات الكونية في القرآن الكريم (١٦٣).

(2) تفسير القرطبي: (١٠/ ٣٣٥).

(3) تفسير ابن كثير: (٣/ ١٠٩).

القوم الذين منهم أهل الكهف وهم أهل بلاد الروم.

قال السهيلي في الروض الأنف: (النصارى يعرفون حديث أهل الكهف ويؤرخون به).

وأقول - والكلام ما زال لابن عاشور-: واليهود الذين لَقّنوا قريشًا السؤالَ عنهم يؤرخون الأشهر بحساب القمر ويؤرخون السنين بحساب الدورة الشمسية، فالتفاوت بين أيام السنة القمرية وأيام السنة الشمسية يحصل منه سنة قمرية كاملة في كل ثلاث وثلاثين سنة شمسية، فيكون التفاوت في مائة سنة شمسيةٍ بثلاث سنين زائدة قمرية. كذا نقله ابن عطية عن النقاش المفسر)[1].

هذا ما يتعلق بالآية الكبرى من آيات النبوة، وهو النوع الأول من أنواع الأدلة على صحة النبوة وصدقها.

النوع الثاني: من دلائل النبوة: البشارات الواردة في كتب الديانات السابقة:

أكد القرآن الكريم أن : «اسم النبي محمد عليه الصلاة والسلام» قد ورد في التوراة والإنجيل، وأن علماء أهل الكتاب يعلمون ذلك، وأن يهود المدينة كانوايستفتحون على المشركين بقدوم هذا النبي ﷺ.

وبمراجعة الكتب التي يعتمدها اليهود والنصارى ووجدت نصوص تشير إلى نبوة نبينا محمد ﷺ – رغم التحريف – وأنها تقرر هذه الحقيقة.

فقد وردت بشارات عدة في التوراة والإنجيل والكتب التي اعتمدها أهل الكتاب إلى جانب التوراة والتي ينسبونها إلى أنبياء جاءوا بعد موسى عليه السلام.

ووردت كذلك نصوص أكثر صراحة في أسفار الديانات الأخرى تشير إلى نبينا

---

(1) التحرير والتنوير: (١/ ٢٥٣٥).

محمد ﷺ.

وفيما يلي نورد بعض الآيات التي وردت في القرآن الكريم والتي تؤكد ورود بشارات بالنبي ﷺ في الكتب السابقة.

أولاً: إخبار القرآن ببشارة الكتب السابقة:

أ - البشارة باسمه ﷺ :

وردت آيات عدة تؤكد أن الكتب السابقة بشرت بنبي اسمه : « أحمد» و: « محمد» وأن أهل الكتاب يعلمون ذلك.

وقد كان كثير من أتباع الديانات السابقة ينتظر مجيئه ﷺ كما أخبر بذلك القرآن الكريم، وسمع ذلك الخبر علماء أهل الكتاب في المدينة التي نزل القرآن فيها بذلك الخبر، ولم يستطع أحد منهم أن ينكر ذلك.

قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾[الأعراف:١٥٧].

فقد أخبر ﷻ أنه مكتوب عندهم في التوراة والإنجيل، ولم يستطع أحد إنكار ذلك، بل قد أسلم بعض علمائهم ولو لم يكن على يقين من صحة ذلك الخبر لما أقدم على الإسلام.

وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟

هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ ﴾ [الصف:٦].

وهنا أخبر عز وجل أن عيسى عليه السلام قد أخبر أنه يبشر برسول سيأتي من بعده مبينًا أن (اسمه أحمد).

وسيأتي إيراد النصوص التي ما زالت تحمل تلك البشارة في الكتب السابقة.

ب – الإخبار بصفات أمة محمد ﷺ :

قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾ ﴾ [الفتح:٢٩].

فالآية تذكر أن صفات أمة الرسول الجديد معروفة في الكتب السابقة.

ج – الإخبار بأن علماء أهل الكتاب يعرفون أن محمدًا ﷺ رسول صادق:

قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ﴾ [البقرة:١٤٦].

أخبر عز وجل عن معرفتهم لحقيقة نبوته ﷺ مثل معرفتهم لأبنائهم، ولم يجرؤ كتابي آنذاك أن ينكر ذلك.

د) إخبار اليهود للعرب: (الأوس والخزرج) أن نبيًا سيبعث في هذا المكان.

وقد أخبر عز وجل عن ذلك وما كانت تقوله يهود لأهل المدينة قبل مبعث النبي ﷺ مما

كان من أهم الأسباب التي هيأت أهل المدينة للإسلام.

قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمۡ كِتَٰبٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [البقرة:٨٩].

روى الطبري بسنده عن ابن عباس أنه قال: إن يهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله ﷺ قبل مبعثه، فلما بعثه الله من العرب كفروا به، وجحدوا ما كانوا يقولون فيه، فقال لهم معاذ بن جبل وبشر بن البراء بن معرور أخو بني سلمة: يا معشر يهود! اتقوا الله وأسلموا، فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ﷺ ونحن أهل شِرْك، وتخبروننا أنه مبعوث، وتصفونه لنا بصفته. فقال سلام بن مشكم أخو بني النضير: ما جاءنا بشيء نعرفه، وما هو بالذي كنا نذكر لكم. فأنزل الله جل ثناؤه في ذلك من قولهم: ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمۡ كِتَٰبٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [البقرة:٨٩]. [١]

وقال الرازي: (ففي سبب النزول وجوه. أحدها: أن اليهود من قبل مبعث محمد عليه السلام ونزول القرآن كانوا: (يستفتحون). أي: يسألون الفتح والنصرة. وكانوا يقولون: اللهم افتح علينا وانصرنا بالنبي الأمي.

وثانيها: كانوا يقولون لمخالفيهم عند القتال: هذا نبي قد أظل زمانه ينصرنا عليكم (عن ابن عباس).

وثالثها: كانوا يسألون العرب عن مولده، ويصفونه بأنه نبي من صفته كذا وكذا، ويتفحصون عنه. (على الذين كفروا). أي: على مشركي العرب. (عن أبي مسلم).

---

(١) تفسير الطبري: (١/ ٤٥٤).

ورابعها: نزلت في بني قريظة والنضير، كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله قبل المبعث. (عن ابن عباس وقتادة والسدي).

وخامسها: نزلت في أحبار اليهود: كانوا إذا قرأوا وذكروا محمدًا في التوراة وأنه مبعوث، وأنه من العرب سألوا مشركي العرب عن تلك الصفات ليعلموا أنه هل ولد فيهم من يوافق حاله حال هذا المبعوث)[1].

هذه بعض الآيات التي تؤكد أن أهل الكتاب يعلمون أن محمدًا رسول من الله ﷻ، وذلك تصديق لما ورد من نصوص في الكتب السابقة، كما سيأتي بعد هذا إن شاء الله تعالى.

ثانيًا: الكتب السابقة:

أ ـ التوراة:

١ – ورد في التوراة سفر التكوين الإصحاح السابع عشر فقرة: (١٨-٢١) البشارة الآتية:

(وأما إسماعيل فقد سمعت لك فيه. هأنا أباركه وأثمره وأكثره كثيرًا جدًا).

وهذه بشارة واضحة أن الله ﷻ يبشر إبراهيم عليه السلام بأنه سيبارك في ذرية إسماعيل ويجعلها أمة كبيرة ؛ وهذه البشارة لا تستقيم إلا إذا كانت أمة مؤمنة.

وقد ورد في القرآن الكريم أن إبراهيم عليه السلام قد سأل الله ﷻ أن يبعث نبيًا في ذرية إسماعيل عليه السلام.

قال الله ﷻ: ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ

---

(1) تفسير الرازي: (٣/ ١٧٥).

أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾ [البقرة].

وذرية إسماعيل لم يبعث فيها نبي بعد إسماعيل عليه السلام إلى عهد نبينا محمد ﷺ.

فلا بد أن يبعث الله عز وجل نبيًا يعلمها دينها ويحقق هذه البشارة الربانية، فكان النبي هو محمد ﷺ.

وقد استدل صاحب كتاب: (الإفحام) -الذي كان يهوديًا ثم أسلم- على نبوة محمد ﷺ بأنه ورد في التوراة أن الله خاطب إبراهيم عليه السلام فقال: « وأما في إسماعيل فقد قبلت دعاءك. وها قد باركته، وأثمره، وأكثره، وأكثره جدًا جدًا » فإن لفظة « جدًا جدًا » في لغة تنزيل التوراة هي « بماد ماد » وحساب حروفه بالجمل مساوٍ لحساب حروف (محمد) ﷺ وهو اثنان وتسعون.

وورد في نسخة طائفة السامرة حاشية لبعض علمائهم فسر النص بمحمد ﷺ.

فقد ذكر الأستاذ أحمد زكي باشا في جريدة البلاغ القاهرية الصادرة في (٢١) آب عام (١٩٣٣م) أنه حصل سنة (١٩١٣م) على نسخة من التوراة التي كانت لدى شلبي سامري من طائفة اليهود السامريين، وهي منقولة من أقدم نسخة من التوراة تحتفظ بها تلك الطائفة.

قال: (ولما كانت مكتوبة بلغة لا أفهمها أوصيت صديقي نور الدين مصطفى بشرائها.

وفي أثناء زيارتي لفلسطين ذهبت إلى جبل حرزيم الذي يقدسه السامريون،

واجتمعت بصديقي شلبي وبطائفته، وتعددت مباحثاتي معهم ومع كبير كهنتهم إسحاق بن عمران على الأخص).

وذكر أن : (التوراة التي اشتراها مترجمة إلى العربية، عبارة عن مجلد يحتوي على (٦١٥) صفحة من قطع الورق الصغير. وهو لا يشمل سوى الأسفار الخمسة الأولى من التوراة...) إلى أن قال:(إن كل صفحات الكتاب مكتوبة بلغة عربية، وقد تخللها كتابات باللغة السامرية. والعبارات المكتوبة بهذه اللغة هي التي تؤدي في معناها إلى أسرار السامريين. ولم يشأ مترجم التوراة أن ينقلها إلى العربية، بل أبقاها سامرية كما هي. ومن هذه العبارات جملة في آخر الباب السابع عشر، أي: في الصفحة ذات الرقم (٣٩) من الكتاب، وقد كتب الكاهن السامري الأعظم بخط يده على هامشها عبارات رتبها كما يلي:

(٩٢)

بماد ماد (محمد).

أي: جدًا جدًا.

لجوى جدول.

أي: شعبًا عظيمًا.

أي: محمد (٩٢).

ثم وضع في ذيلها الجملة التالية: « انظر كيف أن الله في كل كلمة من كلامه تعالى أسرارًا مدموجة وآيات عظيمة » حرره العبد الفقير: إسحاق الكاهن السامري).

أوردت الخبر مجلة الوعي الإسلامي الكويتية العدد (٢٥٦) ربيع الآخر عام (١٤٠٦هـ) ضمن مقال للأستاذ عزت طهطاوي.

٢ – جاء في الإصحاح الثامن عشر من سفر التثنية ما يلي: (قال لي الرب: قد أحسنوا فيما تكلموا سوف أقيم لهم نبيًا مثلك من بين إخوتهم وأجعل كلامي في فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به).

فهذا خطاب من الله ﷻ لموسى عليه السلام يخبره فيه أنَّه سيبعث في بني إسرائيل نبيًا من إخوتهم.

وهذا النص يدل على أنَّ النبي من غير بني إسرائيل، وهو نبي له كتاب جديد وشرع جديد مثل موسى عليه السلام.

ولم يأتِ بعد موسى نبي بكتاب جديد من غير بني إسرائيل إلا محمد ﷺ، وهو من إخوتهم، أي: من أبناء إسماعيل أخي إسحاق؛ فإنَّ أسباط بني إسرائيل –أي: ذرية يعقوب من أبنائه الاثني عشر– كانوا مع موسى فلو كان النبي منهم لقال: منكم – أي: أبناء يعقوب – ولكنه قال: من إخوتهم، والمراد بإخوتهم أي: أبناء إسماعيل.

فدل أن النبي محمدًا ﷺ هو المراد بهذه البشارة.

٣ – وفي الإصحاح الثالث والثلاثين من سفر التثنية: (جاء الرب من سيناء وأشرق لهم من سعير وتلألأ من جبل فاران).

فمجيئه من سيناء: إعطاؤه التوراة لموسى.

وإشراقه من سعير: إعطاؤه الإنجيل للمسيح.

وتلألؤه من جبل فاران: إعطاؤه القرآن لمحمد ﷺ.

وفاران: هي أرض مكة، كما جاء في التوراة نفسها.

فقد جاء في سفر التكوين الإصحاح (٢١) أنَّ إسماعيل: سكن في برية فاران.

ونبينا محمد ﷺ هو من نسل إسماعيل وولد في برية فاران - مكة المكرمة-.

وقد ورد في القرآن الكريم الإشارة إلى هذه الأماكن، حيث أقسم بها الله ﷻ فقال: ﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝ وَطُورِ سِينِينَ ۝ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝ ﴾ [التين:١-٤].

فأقسم سبحانه بـ:(التين والزيتون) والمراد: منبتهما. وهي الأرض المقدسة المباركة التي ولد فيها المسيح عليه السلام ثم بعث وأنزل عليه الإنجيل فيها، فهي مظهر نبوته.

وحول مدينة القدس كان الزيتون وما زال يزرع بكثرة، كما أن بقربها جبلًا صغيرًا اسمه جبل الزيتون، ولذلك اتخذ كثير من الناس أغصان الزيتون شعارًا للسلام.

وأقسم بـ (طور سينين) وهو الجبل الذي كلم الله سبحانه عليه موسى تكليمًا يليق بذاته وجلاله، وناداه من شاطئ الوادي الأيمن في البقعة المباركة، وفيه أنزل عليه التوراة. فهو مظهر نبوته.

وأقسم بالبلد الأمين : أي: (مكة المكرمة) المعبر عنها في التوراة بـ: « جبال فاران»

فالإشارات الثلاثية في « التوراة» هي الإشارات الثلاثية في : « القرآن الكريم».

فدل هذا التطابق بين التوراة والقرآن بأساليب مختلفة أن مصدرهما واحد هو : الله ﷻ، بصرف النظر عما اعترى التوراة من تحريفات.

ب) ورد في المزامير: المزمور: (١١٨) فقرة: (٢٢-٢٣):

١-: (الحجر الذي رفضه - وفي بعض الترجمات: أخره - البناءون، قد صار رأس الزاوية.

٢٣: من قِبل الرب كان هذا. وهو عجيب في أعيننا).

وسبب العجب أن اليهود كانوا يحتقرون العرب أولاد إسماعيل غاية الاحتقار، فكون أحدهم يصير رأس الزاوية عجيب في أعينهم.

هذا النص في: «مزامير اليهود» قد أكده عيسى عليه السلام كما ورد في إنجيل متى (٢١/ ١٠-١١)، ولوقا (٢٠/ ١٧): (قال لهم يسوع: أما قرأتم قط في الكتب: الحجر الذي رفضه البناءون، هو قد صار رأس الزاوية، من قبل الرب كان هذا. وهو عجيب في أعيننا).

وقد ورد هذا المعنى في حديث عن النبي ﷺ.

فقد روى أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي، كمثل رجل بنى بنيانًا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له، ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة؟ فأنا اللبنة، وأنا خاتم النبيين) [١].

٢- وجاء كذلك في المزمور الحادي عشر بعد المائة في الفقرة الأولى ما يلي:

(هللوا يا أحمدُ الربَّ. بكل قلبي في مجلس المستقيمين وجماعتهم).

وهذا نص صريح في خطاب النبي محمد ﷺ يؤكد نفس البشارات التي ذكرها القرآن الكريم.

ونبينا له عدة أسماء منها: «محمد» و«أحمد» عليه الصلاة والسلام.

ج) وجاء في سفر حبقوق الفقرة الثالثة:

(الله جاء من تيمان والقدوس من جبال فاران. سلاه جلاله غطى السموات

---

(١) رواه البخاري: (ح:٣٤٥٩) ومسلم: (ح:٥٩١٣).

والأرض وامتلأت من تسبيحه.... وعند رجليه خرجت الحمى).

ونقل ابن تيمية وابن القيم النص عن بعض الترجمات في زمانهما كما يلي: « جاء الله من التيمن، وظهر القدوس على جبل فاران، وامتلأت الأرض من تحميد أحمد)[١].

ويبدو أن التحريف لا يتوقف كلما ظهر لهم علامات على نبوة نبينا محمد ﷺ، وإلا فما معنى تغير الترجمة من عصر إلى عصر، وحذف كل علامة على نبوة محمد ﷺ.

قال ابن تيمية رحمه الله: (وقد رأيت أن من نسخ الزبور ما فيه تصريح بنبوة محمد باسمه، ورأيت نسخة أخرى، فلم أر ذلك فيها، وحينئذٍ فلا يمتنع أن يكون في بعض النسخ من صفات النبي ما ليس في أخرى)[٢].

فالترجمة في عهد ابن تيمية: (وامتلأت الأرض من تحميد أحمد) وفي النسخ الحالية : (وامتلأت من تسبيحه)، فقد غير لفظ : (تحميد) واستبدل بالاسم الظاهر: (أحمد) ضمير الغائب (الهاء).

وأما قوله : (وعند رجليه خرجت الحمى) فيوضحه ما يلي:

لما قدم النبي ﷺ المدينة هو وأصحابه وجدوها أرضًا تنتشر بها: (الحمى) فمرض بعض الصحابة بها فتألم النبي ﷺ فدعا الله عز وجل أن يخرج : (الحمى) من المدينة إلى قرية: (الجحفة) تبعد عن المدينة أكثر من خمسين ميلًا، فلعل هذا هو المراد بخروجها عند قدمية، أي لم تذهب بالكلية ولكنها خرجت قريبًا منه، فكأنها عند لأن هذه القرية التي خرجت إليها في أطراف منطقة المدينة، والذي يعرف المدينة يدرك تلك الحقيقة بصورة واضحة تتطابق مع هذا المثل أشد انطباق، وفيما يلي الحديث الذي يبين ذلك:

---

(1) الجواب الصحيح: (٣/ ٣١٣). وهداية الحيارى: (٥٤٤).

(2) الجواب الصحيح: (٢/ ٢٧).

عَنْ عَائِشَةَ ﵂ قَالَتْ: «لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الْمَدِينَةَ وُعِكَ أَبُو بَكْرٍ وَبِلَالٌ، فَكَانَ أَبُو بَكْرٍ إِذَا أَخَذَتْهُ الْحُمَّى يَقُولُ:

كُلُّ امْرِئٍ مُصَبَّحٌ فِي أَهْلِهِ وَالْمَوْتُ أَدْنَى مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ

وَكَانَ بِلَالٌ إِذَا أُقْلِعَ عَنْهُ الْحُمَّى يَرْفَعُ عَقِيرَتَهُ يَقُولُ:

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَبِيتَنَّ لَيْلَةً بِوَادٍ وَحَوْلِي إِذْخِرٌ وَجَلِيلُ

وَهَلْ أَرِدَنْ يَوْمًا مِيَاهَ مَجَنَّةٍ وَهَلْ يَبْدُوَنْ لِي شَامَةٌ وَطَفِيلُ

ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: اللَّهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا الْمَدِينَةَ كَحُبِّنَا مَكَّةَ أَوْ أَشَدَّ؛ اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي صَاعِنَا وَفِي مُدِّنَا، وَصَحِّحْهَا لَنَا، وَانْقُلْ حُمَّاهَا إِلَى الْجُحْفَةِ.

قَالَتْ: وَقَدِمْنَا الْمَدِينَةَ وَهِيَ أَوْبَأُ أَرْضِ اللهِ. قَالَتْ: فَكَانَ بُطْحَانُ يَجْرِي نَجْلًا. تَعْنِي مَاءً آجِنًا»[1].

د)وورد في سفر أشعياء :
في الإصحاح التاسع الفقرة السادسة:

١ – (لأنه يولد لنا ولد، ونُعطى ابنًا، وتكون الرياسة على كتفيه، ويُدعى اسمه عجيبًا مشيرًا إلهًا قديرًا أبًا أبديًا رئيس السلام).

ونقل ابن تيمية النص عن بعض الترجمات في زمانه كما يلي: «إن غلامًا ولد لنا، وإننا أعطيناه. الذي رياسته على عاتقيه وبين منكبيه».

وكذلك نقله القرافي كما يلي: «ولد لنا غلام يكون عجبًا وبشرًا. والشامة على كتفيه،

(1) رواه البخاري : (ح:١٧٥٦)

أركون السلام»[١].

والعلامة المذكورة هنا التي بين كتفيه مرة ذكروها بـ(الرئاسة) ومرة بـ(الشامة)، والصحيح أنها الشامة، وهي خاتم النبوة بين كتفيه ﷺ، كما ورد ذلك في صفاته المنقولة عن الصحابة رضي الله عنهم، وكما كان يبحث عنها من أسلم من أهل الكتاب.

قال السائبُ بنُ يزيدَ: «ذَهبتْ بي خالتي إلى رسولِ الله ﷺ فقالت: يا رسولَ الله! إنَّ ابنَ أختي وَقع، فمسحَ رأسي، ودعا لي بالبرَكة، وتَوَضأ فشربتُ من وضوئه، ثمَّ قمتُ خلفَ ظهرِهِ فنظَرتُ إلى خاتمِ النبوَّةِ بينَ كتفيه.

قال ابن عُبيدِ الله: الحجْلةُ من حجلِ الفَرَسِ الذي بين عينيه. وقال إبراهيمُ بنُ حمزةَ: مثلَ زرِّ الحجَلةِ»[٢].

وفي قصة إسلام سلمان الفارسي – بعد أن ذكر كامل قصته وتنقله بين البلدان للبحث عن الدين الصحيح ووصوله إلى المدينة إبان قدوم النبي ﷺ إلى المدينة، فقال: (ثم جئت رسول الله ﷺ وهو ببقيع الغرقد، قال: وقد تبع جنازة من أصحابه عليه شملتان له، وهو جالس في أصحابه، فسلمت عليه، ثم استدرت أنظر إلى ظهره هل أرى الخاتم الذي وصف لي صاحبي، فلما رآني رسول الله ﷺ استدرته ـ هكذا في المسند وأما الدلائل ففيه : استدبرته ــ عرف إني أستثبت في شيء وصف لي، قال: فألقى رداءه عن ظهره، فنظرت إلى الخاتم، فعرفته، فانكببت عليه أقبله وأبكي، فقال لي رسول الله ﷺ : تحوّل، فتحوّلت، فقصصت عليه حديثي)[٣].

فهذا : «سلمان الفارسي» الذي كان نصرانياً يبحث عن تلك الشامة فيعلم النبي ﷺ

---

(1) الجواب الصحيح (٢/ ٣٢٧). والأجوبة الفاخرة: (١٧٧).

(2) رواه البخاري: (ح:٣٤٦٥).

(3) رواه أحمد: (٦/ ٦١٥) والبيهقي : دلائل النبوة : (١/ ٤٦٩).

مراده فيكشف له ما بين كتفيه فيتحقق مما علمه نظريًا بأن رأى : «الشامة» ماثلة أمام عينيه.

٢- وفي سفر أشعياء كذلك:

(لترفع البرية ومدنها صوتها. الديار التي سكنها قِيدار. لتترنم سكان سالع. من رؤوس الجبال ليهتفو).

وجبل سالع المذكور هو جبل: سلع - بفتح السين وسكون اللام - الذي يقع في الجانب الغربي للمدينة المنورة، قرب المسجد النبوي. يمر بأحد جانبيه شارع السيح، وبالآخر شارع سلطانة، ولا يزال اسمه كذلك إلى اليوم.

ويبدو أن اليهود الذين استقروا في المدينة انتظارًا لبعثة هذا النبي قد استأنسوا بوجود هذا الجبل في هذا المكان، فنزلوا بها انتظارًا للنبي الذي أشار إليه بعض سفر أشعياء.

هـ)الإنجيل:

١-جاء في الإصحاح (١٤) من إنجيل يوحنا: أنَّ عيسى عليه السلام قال: (إن كنتم تحبونني فاحفظوا وصاياي وأنا أطلب من الأب فيعطيكم فار قليط آخر ليثبت معكم إلى الأبد..).

«فار قليط» مترجمة من اليونانية، واليونانية مترجمة من اللغة الأرامية «وهي عبرية».

وهذه الكلمة المترجمة إلى اللغة اليونانية: «باراكلي طوس» يرجح العلماء المسلمون أنَّها محرفة من كلمة: «بيركلوطوس»؛ لأنَّ الرسم الأخير بمعنى «الذي له الحمد الكثير» أو «أحمد».

وقد سأل الأستاذ عبدالوهاب النجار المستشرق الإيطالي: «كارلونلينو» عن هذه اللفظة في اللغة اليونانية - وقد كان هذا المستشرق متخصصًا في اللغة اليونانية - فقال إنَّ معناها: «الذي له الحمد الكثير» فقال: هل يوافق أفعل التفضيل: «أحمد»؟ فقال: نعم [1].

وهذا مصداق الآية القرآنية التي تقول عن عيسى عليه السلام: ﴿ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾ [الصف:٦].

٢-في الإصحاح (٢١) (فقرة/ ٤٣) من إنجيل متَّى قصة عن صاحب حديقة سلمها لمزارعين فأساءوا وقتلوا عبيد صاحب المزرعة، ثمَّ قتلوا ولده، وفي آخرها قال: (لذلك أقول لكم: إنَّ ملكوت الله ينزع منكم ويُعطى لأمة تعمل أثماره).

ففي هذا النص إشارة إلى أنَّ الله عز وجل سينقل ميراث النبوة إلى أمة أخرى بعد أن أساءت أمة بني إسرائيل في القيام بحق الله عز وجل، ولم يأتِ بعد أمة بني إسرائيل إلا الأمة الإسلامية.

وقد ورد عن النبي ﷺ ما يؤكد هذا النص:

قال ﷺ: «مَثَلُكُمْ وَمَثَلُ أَهْلِ الْكِتَابَيْنِ كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَأْجَرَ أُجَرَاءَ فَقَالَ: مَنْ يَعْمَلُ لِي مِنْ غُدْوَةَ إِلَى نِصْفِ النَّهَارِ عَلَى قِيرَاطٍ؟ فَعَمِلَتْ الْيَهُودُ. ثُمَّ قَالَ: مَنْ يَعْمَلُ لِي مِنْ نِصْفِ النَّهَارِ إِلَى صَلَاةِ الْعَصْرِ عَلَى قِيرَاطٍ فَعَمِلَتْ النَّصَارَى؟ ثُمَّ قَالَ :مَنْ يَعْمَلُ لِي مِنْ الْعَصْرِ إِلَى أَنْ تَغِيبَ الشَّمْسُ عَلَى قِيرَاطَيْنِ ؟فَأَنْتُمْ هُمْ. فَغَضِبَتْ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى فَقَالُوا :مَا لَنَا أَكْثَرَ عَمَلًا وَأَقَلَّ عَطَاءً؟ قَالَ: هَلْ نَقَصْتُكُمْ مِنْ حَقِّكُمْ؟! قَالُوا: لَا. قَالَ: فَذَلِكَ فَضْلِي أُوتِيهِ مَنْ

(1) قصص الأنبياء (١٩٧)، نشر مؤسسة الحلبي القاهرة عام (١٣٨٦هـ).

أَشَاءُ»[١].

وقد تحدث الرازي ﷺ عن البشارات السابقة، وأورد جملة من نصوص أهل الكتاب مع تحليلها يحسن الوقوف عليها للمقارنة بين تلك النصوص في التوراة والإنجيل في ذلك العصر والنصوص الموجودة اليوم، إلى جانب فهم المفسرين القدماء لمثل هذه النصوص[٢].

و)كتب البراهمة السامافيدا:

ورد في هذا الكتاب في الجزء (٢) الفقرة (٦،٨) هذا النص: (إنَّ أحمد تلقَّى الشريعة من ربه وهي مملوءة بالحكمة).

د) كتب الزرادشتية:

ورد فيها نبوءة عن نبي يكون رحمةً للعالمين، ويدعو إلى إله واحد لم يكن له كفوًا أحد، وليس له أول ولا آخر.. ويتصدَّى له عدو اسمه «أبو لهب».

ويذكر نصًا آخر كذلك فيه: (إنَّ أمة زرادشت حين ينبذون دينهم يتضعضعون ينهض رجل في برد العرب يهزم أتباعه فارس، ويخضع الفرس المتكبرين، وبعد عبادة النار في هياكلهم يولون وجوههم نحو كعبة إبراهيم التي تطهرت من الأصنام، ويومئذٍ يصبحون وهم أتباع للنبي رحمةً للعالمين، وسادةً لفارس ومديان وطوس وبلخ، وهي الأماكن المقدسة للزرادشتيين، ومن جاورهم، وإنَّ نبيهم ليكون فصيحًا يتحدث بالمعجزات)[٣].

---

(1)رواه البخاري : (ح: ٢١٠٧)

(2) تفسير الرازي: (البقرة آية: ٤٠).

(3) هذه النصوص من الكتب السابقة نقلت بواسطة كتاب (الرسول) لسعيد حوى (٢/ ٢٣٠).

وهذا النص قد تحقق بكامله للنبي ﷺ، فقد حارب المسلمون الفرس وغلبوهم، والقبلة التي يتجه

وهذه النصوص أوردها خبير بخمس لغات هي: الفارسية، والهندية، والعبرية، والعربية، وبعض اللغات الأوروبية، هو: «مولانا عبدالحق مزياراتي»» في كتابه: «محمد في الأسفار الدينية العالمية».

النوع الثالث: حفظه في أخلاقه وسلوكه قبل البعثة.

عاش النبي ﷺ بين قومه أربعين سنة يعاملهم ويعاملونه، ويأخذ منهم ويعطيهم، ويوافقهم ويخالفهم، ولم يؤخذ عليه طوال تلك المدة أنه كذب في حديث، أو خان في أمانة، بل اشتهر بينهم بالصادق الأمين، وشهدوا له بذلك في مواطن عدة.

ومن ذلك ما يلي:

١ -لَّما أعلن محمد ﷺ دعوة الناس إلى الدين صعد على جبل صغير ونادى قومه قبيلةً قبيلة، ثمَّ بعد أن اجتمعوا قال لهم:

(أرأيتم لو أخبرتكم أنَّ خيلًا - أي: جيشًا مقاتلًا - بالوادي -أي: الجهة التي خلف الجبل، -ولا يرونها هم وإنَّما يراها محمد ﷺ- أكنتم مصدقي؟ قالوا: نعم؛ ما جربنا عليك كذبًا)[١].

٢- وعن سعد بن معاذ -في قصةٍ- أنَّه قال لأحد خصوم النبي ﷺ وهو «أمية بن خلف»: سمعت رسول الله ﷺ يزعم أنَّه قاتلك، قال: إياي؟! قال: نعم. قال: (والله ما يكذب محمد)، ثمَّ عندما أخبر به زوجته قالت: (والله ما يكذب محمد). ثمَّ تحقَّق ذلك في

المسلمون إليها في صلاتهم هي: الكعبة التي بناها إبراهيم عليه السلام في مكة المكرمة، بعد أن طهرها من الأصنام.

(١) رواه البخاري: (ح: ٤٩٧١)، ومسلم: (ح: ٢٠٨).

غزوة أحد، حرب وقعت بين النبي ﷺ وخصومه - قتل فيها أمية بن خلف[1].

٣-روى أحد خصوم النبي ﷺ قصة وقعت له قبل أن يسلم في الفترة التي كان فيها صلح بين النبي ﷺ ومشركي قريش، وقد كان النبي ﷺ بعث برسائل إلى ملوك الأمم ورؤسائهم يدعوهم إلى الإسلام، ومنهم: هرقل ملك الروم في الشام، وقد كان جماعة من خصوم النبي ﷺ آنذاك في الشام في تجارة لهم.

فلمَّا جاء الكتاب إلى هرقل سأل:

هل يوجد هنا أحد من قوم هذا الذي يدَّعي أنَّه نبي؟ قالوا: نعم. فأمر بهم فجيء بهم إليه، فسألهم أحد عشر سؤالًا ليعرف بها أحوال هذا الشخص الذي وصله كتابه ويدعي فيه النبوة، ثم بين وجه الدلالة في كل سؤال على إثبات دعوى النبوة أو إبطالها.

روى ذلك عبد الله بن عباس رضي الله عنهما عن أبي سُفْيانَ بنَ حَرْبٍ رضي الله عنه أنه أخبرَهُ:

(أَنَّ هِرَقْلَ أَرْسَلَ إِلَيْهِ في رَكْب مِنْ قُرَيْشٍ، وكانوا تجَّارًا بالشَّامِ في المُدَّةِ التي كان رسولُ اللهَّ ﷺ مادَّ فيها أَبا سُفْيانَ وكُفَّارَ قُرَيْشٍ، فأَتوهُ وَهُمْ بإِيْلياءَ، فدعاهُمْ في مَجلِسِهِ، وَحَوْلَهُ عُظَماءُ الرُّومِ، ثمَّ دَعاهمْ وَدَعا بِتَرْجُمانِهِ،

فقالَ: أَيُّكُمْ أَقْرَبُ نَسَبًا بِهذا الرَّجُلِ الذي يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ؟

فقال أبو سُفْيانَ: فقلتُ: أنا أقْرَبُهمْ نَسَبًا.

فقال: أَدْنوهُ مِنِّي، وَقَرِّبوا أصحابَهُ فاجْعَلُوهُمْ عندَ ظَهْرِه. ثمَّ قال لِتَرْجُمانِهِ: قُلْ لهمْ: إِنِّي سائِلٌ هذا الرَّجُلَ، فإن كَذَبنِي فكذِّبوه. قال أبو سفيان رضي الله عنه: فَواللهَّ لَوْلا الحَياءُ مِنْ أَنْ يَأْثِرُوا عَلَيَّ كَذِبًا لَكَذَبْتُ عنهُ. ثُمَّ كانَ أَوَّلَ ما سَأَلَني عنه أن قال:

(1) رواه البخاري: (ح:٣٦٣٢).

- كَيفَ نَسَبُهُ فيكمْ؟ قلتُ: هوَ فينا ذُو نَسَب.
- قال: فهلْ قال هذا القَوْلَ منكم أَحَدٌ قَطُّ قَبْلَه؟ قلتُ: لا.
- قال: فهلْ كانَ مِنْ آبائِه مِنْ مَلِك؟ قلت: لا.
- قال: فأشرافُ الناسِ يَتَّبعونَهُ أَمْ ضُعَفاؤُهُم؟ فقلتُ: بَلْ ضُعَفاؤُهُم.
- قال: أَيَزِيدونَ أَمْ يَنْقُصون؟ قلتُ: بَلْ يَزيدون.
- قال: فهلْ يَرْتَدُّ أَحَدٌ منهمْ سَخْطَة لِدِينِهِ بعدَ أَنْ يَدْخُلَ فيه؟ قلتُ: لا.
- قال: فهلْ كُنتمْ تَتَّهِمونَهُ بالكذِبِ قبلَ أَنْ يَقولَ ما قال؟ قلتُ: لا.
- قال: فهلْ يَغْدِرُ؟ قلتُ: لا. ونحنُ منهُ في مُدَّةٍ لا نَدْري ما هو فاعِلٌ فيها.
- قال: فهل قاتَلْتُموهُ؟ قلتُ: نعم.
- قال: فكيفَ كان قِتالُكمْ إِيَّاهُ؟ قلتُ: الحربُ بَينَنا وبينَهُ سِجالٌ، يَنالُ مِنَّا وَننال منه.
- قال: بماذا يأْمُرُكمْ؟ قلتُ: يَقولُ: اعْبُدُوا اللهَ وَحْدَهُ ولا تُشْرِكوا بهِ شيئًا، واتْرُكوا ما يَقولُ آباؤُكمْ، وَيَأْمُرُنا بالصلاةِ، والصِّدْقِ، وَالعَفافِ، والصِّلَة.

فقال للتَّرْجُمانِ:

- قُلْ له: سَأَلْتُكَ عن نسَبِهِ فَذَكرتَ أنه فيكم ذو نسب، فكذلك الرُّسُل تُبْعَثُ في نَسَبِ قَوْمِها.
- وَسَأَلْتُكَ: هلْ قال أحدٌ منكمْ هذا القولَ قبله؟ فذكرتَ أن لا، فقلتُ: لو كانَ أَحَدٌ قال هذا القولَ قَبْلَهُ، لقُلتُ: رَجُلٌ يَأْتَسِي بقولٍ قِيلَ قبلَه.
- وسألتُكَ: هلْ كان مِن آبائه مِنْ مَلِكٍ؟ فذكرتَ أَنْ لا، قلتُ: فلو كان مِنْ آبائِه مِنْ مَلِكٍ قلتُ: رَجلٌ يَطلُبُ مُلكَ أَبيهِ.

- وسألتُكَ: هل كنتم تَتَّهمونَهُ بالكَذِبِ قبْلَ أن يقولَ ما قالَ، فذَكرتَ: أَنْ لا، فقد أعرفُ أَنَّهُ لم يكن لِيَذَرَ الكَذِبَ على الناسِ ويكذِبَ على الله.
- وسألتُكَ: أَشرافُ الناسِ اتَّبَعوهُ أَمْ ضُعَفاؤُهُمْ؟ فذكرتَ أَنَّ ضُعَفاءهمْ اتَّبعوه، وهم أَتْباعُ الرُّسُل.
- وسألتُكَ أيَزيدُونَ أم يَنْقُصون؟ فَذكرتَ أَنَّهمْ يَزِيدُون، وكذلِكَ أمرُ الإيمانِ حتى يَتِمَّ.
- وسألتُكَ: أَيَرْتَدُّ أحدٌ سَخْطَةً لِدِينِهِ بعدَ أَنْ يَدخُلَ فيهِ، فذكرت أَنْ لا، وكذلِكَ الإيمانُ حِينَ تُخالِطُ بَشاشَتُه القلوبَ.
- وسألتُكَ: هلْ يَغْدِرُ؟ فذكرتَ أَنْ لا، وكذلك الرُّسُل لا تَغدِرُ.

*وسألتُكَ: بم يَأْمُرُكمْ، فذكرتَ أنه يأْمُرُكم أن تَعبُدوا اللهَّ ولا تُشْرِكوا به شيئًا، وَيَنهاكمْ عنْ عِبادةِ الأوثانِ، ويأْمُرُكم بالصلاةِ والصِّدقِ والعَفافِ.

فإن كانَ ما تقولُ حَقًّا فسَيَمْلِكُ مَوْضِعَ قَدَميَّ هاتَين، وقد كنتُ أعلمُ أنه خارجٌ، ولم أكُنْ أَظُنُّ أنه منكم، فلو أنِّي أَعلَمُ أَنِّي أَخْلُصُ إليه لَتَجَشَّمْتُ لِقاءَه، ولو كنتُ عنْدَهُ لَغَسَلْتُ عن قَدَمِه، ثمَّ دَعا بِكتابِ رسولِ اللهَّ ﷺ الَّذِي بَعَثَ بِهِ دِحْيَةُ إلى عَظِيمِ بُصْرَى، فَدَفَعَه إلى هِرَقْلَ، فقرأهُ، فإذا فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم

مِنْ مُحمدٍ عبدِ اللهَّ ورَسولِهِ إلى هِرَقْلَ عظِيمِ الرُّوم. سَلامٌ على مَنِ اتَّبَعَ الهُدَى. أمّا بعد:

فإنِّي أَدْعُوكَ بدِعايةِ الإِسْلام، أَسْلِمْ تَسْلَمْ، يُؤتِكَ اللهُ أَجْرَكَ مَرَّتين. فإنْ تَوَلَّيْتَ فإنَّ عليكَ إثمَ الأَرِيسِيِّين و ﴿ قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ

إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [آل عمران:٦٤].

قال أبو سفيانَ: فلما أن قَضى مقالتَهُ عَلَتْ أصواتُ الذينَ حَولَهُ من عُظَماءِ الروم وكَثُرَ لَغَطُهم، فلا أدرِي ماذا قالوا. وأُمِرَ بنا فأُخرِجْنا. فلما أن خَرَجتُ معَ أصحابي وخَلَوْتُ بهم قلتُ لهم: لقد أَمِرَ أمرُ ابنِ أبي كبشةَ، هذا ملكُ بني الأصفرِ يَخافهُ.

قال أبو سفيان: والله ما زِلتُ ذَليلًا مُستَيقِنًا بأنَّ أمرَهُ سيَظْهَرُ، حتّى أدخلَ الله قلبي الإسلام وأنا كارِه»)[1].

هذا الحديث يقرر ما تعارف عليه البشر من القرائن التي يستدل بها على أحوال الأنبياء وصدق المدعي من عدمه.

وقد كان أعداؤه ﷺ حريصين على الطعن فيه والقضاء على دينه، وإبطال رسالته، ومع ذلك لم يستطيعوا أن ينسبوا إليه شيئًا من النقائص والعيوب، بل أصبحوا فيما بعد أنصاره وأعوانه وحملة عقيدته، والمدافعين عنها، وتحمَّلوا في سبيل ذلك أنواع الأذى من استهزاء وضرب وطرد وقتل، وهم صابرون راضون، ولو ظهر لهم أي عيب في النبي ﷺ لانفضوا من حوله وأعلنوا ذلك للناس، فإنَّ الإنسان لا يتحمل الأذى من إنسان يراه كذابًا محتالًا إلا إذا كان تابعًا لزعيم جبَّار يقهر الناس بالقوة، وأمَّا من اتبعه الناس طائعين مختارين فلن يقبلوا منه الكذب والاحتيال، وهو يحرم عليهم الكذب والاحتيال ثم تشهد سيرهم بأنهم كانوا أصدق الناس.

قال الماوردي: (ولو حفظوا عليه كذبة نادرة في غير الرسالة لجعلوها دليلًا على تكذيبه في الرسالة. ومن لزم الصدق في صغره كان له في الكبر ألزم، ومن عصم منه في

---

(1) رواه البخاري (ح:٦).

حق نفسه كان في حقوق الله تعالى أعظم)[١].

النوع الرابع: استقامة حياته بعد ادعائه النبوة.

كانت حياته بعد النبوة حياة فاضلة تدل على أنَّه صاحب عقيدة ورسالة يلتزم بها لا صاحب رئاسة وشهوات.

وبمراجعة كتب السنَّة التي روت لنا حياته ﷺ مفصلة نجد أنَّه كان عظيمًا في كل جانب من جوانب حياته، ومطبقًا لكل ما جاء به.. مع ربه عز وجل.. مع نفسه.. مع أهله.. مع أصحابه.. مع أعدائه.

وفيما يلي عرض موجز لهذا النوع من خلال عدة جوانب:

الجانب الأول: حياته مع ربه:

أمَّا حياته ﷺ مع ربه عز وجل فقد كان كثير العبادة، مسارعًا إلى تطبيق كل ما يأمره ربه عز وجل به، مع تذلل وخضوع لله عز وجل.

١ - فقد أمره الله عز وجل في بداية البعثة بقيام الليل فقام هو وأصحابه ﷺ عامًا كاملًا حتى خفف الله عز وجل عنهم فنسخ وجوب قيام الليل.

قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلاً ۝٤ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ۝٥ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلاً ۝٦ إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلاً ۝٧ [المزمل:١-٧].

عن سعد بن هشام -في حديث طويل- سأل فيه عائشة رضي الله عنها عن عدة مسائل،

---

(١) أعلام النبوة: (١٤٩).

ومنها: قيام الليل.

فقال: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ أَنبِئِينِي عَنْ خُلُقِ رَسُولِ الله؟

قَالَتْ: أَلَسْتَ تَقْرَأُ الْقُرْآنَ؟ قُلْتُ: بَلَىٰ. قَالَتْ: فَإِنَّ خُلُقَ نَبِيِّ الله كَانَ الْقُرْآنَ.

قَالَ: فَهَمَمْتُ أَنْ أَقُومَ، وَلاَ أَسْأَلَ أَحَدًا عن شيء حَتَّىٰ أَمُوتَ. ثُمَّ بَدَا لِي فَقُلْتُ: أَنْبِئِينِي عَنْ قِيَامِ رَسُولِ اللهّ.

فَقَالَتْ: أَلَسْتَ تَقْرَأُ: (يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ)؟ قُلْتُ: بَلَىٰ. قَالَتْ: فَإِنَّ الله ﷻ افْتَرَضَ قِيَامَ اللَّيْلِ فِي أَوَّلِ هٰذِهِ السُّورَةِ، فَقَامَ نَبِيُّ اللهّ وَأَصْحَابُهُ حَوْلًا، وَأَمْسَكَ الله خَاتِمَتَهَا اثْنَيْ عَشَرَ شَهْرًا فِي السَّمَاءِ، حَتَّى أَنْزَلَ الله فِي آخِرِ هٰذِهِ السُّورَةِ التَّخْفِيفَ، فصار قيام الليل تَطَوُّعًا بَعْدَ فَرِيضَة)[١].

وروى الطبري ؒ:

عن قتادة: (﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ قال: قاموا حولًا أو حولين حتى انتفخت سوقهم وأقدامهم، فأنزل الله تخفيفًا بعد في آخر السورة)[٢].

٢- وقد استمر ﷺ على قيام الليل رغم نسخه، فكان يكثر من الصلاة في الليل حتَّى انتفخت قدماه.

عن عائشةَ ؓ:

«أَنَّ نبيَّ الله ﷺ كان يقومُ من الليل حتى تَتفطَّرَ قَدَماه، فقالت عائشة: لِمَ تصنعُ هذا يا رسولَ الله وقد غفر الله لك ما تقدَّم من ذَنْبك وما تأَخَّر؟ قال: أَفَلا أحبُّ أن أكونَ عبدًا

(1) رواه مسلم: (ح: ١٦٨٩).

(2) تفسير الطبري: (٢٩/ ١١٨).

شكورًا. فلما كَثُرَ لحمهُ صلّى جالِسًا، فإذا أرادَ أن يركعَ قام فقرأَ ثم رَكَعَ»[(١)].

٣- وكان يصوم حتى يظن أنه لا يفطر صلوات الله وسلامه عليه.

عن عائشةَ رضي الله عنها:

قالت: «كانَ رسولُ الله ﷺ يَصومُ حتّى نقولَ لا يُفطِرُ، ويُفطِرُ حتّى نقولَ لا يصومُ، فَمَا رأيتُ رسولَ الله ﷺ استكملَ صِيامَ شهرٍ إلا رمضانَ، وما رأيتهُ أكثرَ صِيامًا منهُ في شَعبانَ»[(٢)].

٤- لَمَّا أنزل الله عز وجل آيات عدة في مواطن متفرقة يعاتب فيها نبيه ﷺ قرأها الرسول ﷺ على الناس ولم يكتمها ولا يستطيع ذلك، ولكنَّه كان بإمكانه أن يسأل الله عز وجل أن يتجاوز عنه فيأذن له بحذفها من القرآن مراعاة لمشاعره، ولكنَّه ﷺ لم يفعل، تعظيمًا لخالقه وامتثالًا لأمره، ولا زالت هذه الآيات في القرآن إلى اليوم.

والمواطن التي نزل فيها عتاب له ﷺ قليلة، وهي تبين أنَّ الكمال البشري في قلة الخطأ لا في عدم الخطأ، وأمَّا عدم الخطأ فليس إلا لله عز وجل.

وهذه الآيات تقدم عرضها في المبحث الخاص بالقرآن.

الجانب الثاني: معاملته مع نفسه ﷺ:

أمَّا خُلقه ﷺ مع نفسه: فقد كان زاهدًا في الدنيا، متعففًا عن لذاتها، كان يمر عليه الشهر والشهران ولا يجد ما يأكله إلا التمر والماء، وهو قادر على أعلى درجات النعيم المتاح في عصره ﷺ، ولكنَّه كان ينفقه على المحتاجين والسائلين.

---

(1) رواه البخاري (ح: ١١٣٠)، مسلم (ح: ٢٨١٩).

(2) رواه البخاري: (ح: ١٩٤٦).

وقد اضطر إلى رهن درعه للحصول على الطعام، وقد توفي ﷺ ولم يخلف درهمًا ولا دينارًا.

١- فعن عائشةَ رضي الله عنها: أنها قالت لعُروةَ رضي الله عنه:

«ابنَ أُختي، إنْ كُنّا لنَنْظُرُ إلى الهِلالِ ثم الهلالِ، ثلاثةَ أهِلَّةٍ في شَهرَين، وما أُوقِدَتْ في أبياتِ رسول الله ﷺ نار.

فقلت: يا خالةُ، ما كان يُعيشُكم؟

قالت: الأسودانِ: التمرُ والماء. إلاَّ أنه قد كان لرسول الله ﷺ جِيرانٌ منَ الأنصارِ كانتْ لهم منائِحُ، وكانوا يَمنحونَ رسول الله ﷺ من ألبانِهم فيَسقينا»[1].

٢ - و عن عائشة رضي الله عنها:

«أنَّ النَّبيَّ ﷺ اشْتَرى مِنْ يَهُودِيٍّ طَعَامًا إلى أَجَلٍ، وَرَهَنَهُ دِرْعَهُ»[2].

٣- و عن عمرِو بنِ الحارثِ خَتَنِ رسولِ الله ﷺ أخي جُوَيريةَ بنتِ الحارثِ قال:

«ما تَرَكَ رسولُ الله ﷺ عندَ مَوتِهِ دِرهَمًا ولا دينارًا ولا عَبدًا ولا أمةً ولا شيئًا، إلا بَغْلَتَهُ البَيضاء وسِلاحَهُ وأرْضًا جَعَلَها صدَقة»[3].

الجانب الثالث: معاملته لأهله وخدمه:

وأمّا معاملته ﷺ لأهله وخدمه، فقد كان في قمة حسن الخُلق صلوات الله وسلامه عليه.

١- فقد كان يشارك زوجته في عملها أثناء وجوده في البيت.

---

(1) رواه البخاري: (ح: ٢٥٦٧)، ومسلم: ح: (٢٩٧٢).

(2) رواه البخاري: ح: (٢٤٦٣).

(3) رواه البخاري: (ح:٤٣٤٨).

فعنِ الأسود رضي الله عنه قال:

«سأَلتُ عائشةَ: ما كان النبيُّ ﷺ يصنعُ في أهلِهِ؟ قالت: كان في مِهنةِ أهله -تعني خدمة أهله - فإذا حضَرَتِ الصلاةُ قام إلى الصلاة»[١].

٢- وقد كان يسابق زوجته عائشة رضي الله عنها:

فقد ورد عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت:

(خرجت مع النبيّ ﷺ في بعض أسفاره وأنا جارية لم أحمل اللحم ولم أبدن، فقال للناس: «تَقَدّمُوا» فتقدموا، ثم قال لي: «تَعالَي حَتّى أُسابِقَكِ» فسابقته فسبقته، فسكت عني حتى إذا حملت اللحم وبدنت ونسيت، خرجت معه في بعض أسفاره، فقال للناس: «تَقَدَّمُوا» فتقدموا، ثم قال: «تعالَيْ حَتَّى أُسابِقَكِ» فسابقته، فسبقني فجعل يضحك، وهو يقول: «هٰذِهِ بِتِلْكَ»)[٢].

٣- وقد كان ﷺ يحتمل غضب نسائه ويترفق بهن:

فعن النعمان بنِ بَشِيرٍ أنه قَالَ:

«اسْتَأْذَنَ أَبُو بَكْرٍ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَسَمِعَ صَوْتَ عَائِشَةَ عَالِيًا، فَلَمَّا دَخَلَ تَنَاوَلَهَا لِيَلْطِمَهَا، وَقَالَ: لاَ أَرَاكِ تَرْفَعِينَ صَوْتَكِ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ، فَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ يَحْجُزُهُ، وَخَرَجَ أَبُو بَكْرٍ مُغْضَبًا، فقَالَ النَّبِيُّ ﷺ حِينَ خَرَجَ أَبُو بَكْرٍ: كَيْفَ رَأَيْتِنِي أَنْقَذْتُكِ مِنَ الرَّجُلِ.

قال: فَمَكَثَ أَبُو بَكْرٍ أَيَّامًا، ثُمَّ اسْتَأْذَنَ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ فَوَجَدَهُمَا قَدِ اصْطَلَحَا، فقَالَ لَهُمَا: أَدْخِلاَنِي فِي سِلْمِكُمَا كَما أَدْخَلْتُمَانِي فِي حَرْبِكُمَا، فقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: قَدْ فَعَلْنَا قَدْ

---

(1) رواه البخاري: (ح: ٦٧٦).

(2) رواه أحمد: (٧: ٣٧٧).

فَعَلْنَا»[1].

٤- لم يضرب النبي ﷺ أحدًا من أهله: لا امرأةً ولا خادمًا طوال حياته، بل يذكر خادمه أنس رضي الله عنه أنَّه خدمه عشر سنوات، فلم يعاتبه على عمل عمله ولا على عملٍ لم يعمله.

عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ:

(مَا ضَرَبَ رَسُولُ اللهِّ شَيْئًا قَطُّ بِيَدِهِ. وَلاَ امْرَأَةً. وَلاَ خَادِمًا، إِلاَّ أَنْ يُجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللهِّ. وَمَا نِيلَ مِنْهُ شَيْءٌ قَطُّ فَيَنْتَقِمَ مِنْ صَاحِبِهِ، إِلاَّ أَنْ يُنْتَهَكَ شَيْءٌ مِنْ مَحَارِمِ اللهِّ فَيَنْتَقِمَ للهِّ عزوجل) [2].

٥- وكان ﷺ يحمل بنت ابنته وهو في الصلاة رحمةً بها ومحبةً لها.

فعن أبي قَتادةَ الأنصاريِّ رضي الله عنه قال:

(إنَّ رسولَ الله ﷺ كانَ يُصلِّي وهو حامِلٌ أُمامةَ بنتَ زَينبَ بنتِ رسولِ اللهِّ ﷺ لأبي العاصِ بنِ الرَّبيع بنِ عبدِ شمسٍ، فإذا سَجدَ وضعَها وإذا قامَ حملَها» [3].

٦ – وكان إذا جاءت ابنته قام إليها وقبَّلها وأجلسها عن يمينه أو عن شماله.

فعن عَائِشَة رضي الله عنها أنها قالتَ:

« مَا رَأَيْتُ أَحَدًا كَانَ أَشْبَهَ سَمْتًا وَدَلًّا وَهَدْيًا – وقالَ الحسَنُ: حَدِيثًا وَكَلاَمًا، وَلَمْ يَذْكُرِ الحسَنُ السَّمْتَ وَالْهَدْيَ وَالدَّلَّ – بِرَسُولِ الله ﷺ مِنْ فَاطِمَةَ كَرَّمَ الله وَجْهَهَا، كَانَتْ إِذَا

---

(1) رواه أبو داود: (ح: ٤٩٩٥).

(2) رواه البخاري: (ح: ٥١٦)، ومسلم: (ح: ٦٠٠٣).

(3) رواه البخاري: (ح: ٥١٦)، ومسلم: (ح: ١١٦٤).

دَخَلَتْ عَلَيْهِ قامَ إِلَيْهَا فأَخَذَ بِيَدِهَا فَقَبَّلَهَا وَأَجْلَسَهَا في مَجْلِسِهِ، وكَانَ إِذَا دَخَلَ عَلَيْهَا قامَتْ إِلَيْهِ فأَخَذَتْ بِيَدِهِ فَقَبَّلَتْهُ وَأَجْلَسَتْهُ في مَجْلِسِهَا»[١].

٧- أما حلمه ﷺ على خدمه فيرويه لنا أحد خدمه وهو أنس بن مالك حيث يقول: «خَدمتُ النبيَّ ﷺ عشر سنينَ، فما قال لي: أُفّ، ولا لِمَ صَنعتَ، ولا ألا صنعت؟»[٢].

الجانب الرابع: أخلاقه ﷺ مع أصحابه:

أما مع أصحابه ﷺ فقد كان رحيمًا بهم، مقدِّرًا لفضلهم، يخالطهم ويمازحهم، ويؤاكلهم، ولا يتميز عنهم بِشارةٍ ولا علامة، ويعفو عمَّن يسيء إليه ولا يعاقبه.

فقد كان بعض المؤمنين يصدر منهم الخطأ الفادح عن غير سوء نية فيعفو عنه، كما كان الأعراب - أي: أهل البادية - يسيئون الأدب معه، فلا يعنفهم بل يحسن إليهم.

١- عن أَنَسَ بنَ مالكٍ قال:

«بَيْنما نحنُ جُلوسٌ معَ النبيِّ ﷺ في المسجدِ، دَخَلَ رَجُل على جَمَل فأناخَهُ في المسجدِ ثمَّ عَقَلَهُ ثم قال لهم: أَيُّكُمْ محمد؟ - والنبيُّ ﷺ مُتكِّئ بَيْنَ ظَهْرَانيهمْ - فقلنا: هذا الرجُلُ الأبيضُ المُتَّكِئ، فقال له الرجُل: ابنَ عبدِ المطَّلبِ؟. فقال له النبيُّ ﷺ : قدْ أَجَبْتُكَ. فقال الرجلُ للنبيِّ ﷺ : إِني سائِلُكَ فَمُشَدِّدٌ عليكَ في المَسْألةِ، فلا تَجِدْ عليَّ في نَفْسِكَ. فقال: سَلْ عَمَّا بدا لك...»[٣].

---

(1) رواه أبو داود: (ح: ٥٢١٢) والترمذي: (ح: ٤٠٣٩).

(2) رواه البخاري: (ح: ٥٨٩٩) ومسلم: (ح: ٥٩٦٤).

(3) رواه البخاري: (ح: ٦٣).

في هذا الحديث أن هذا الرجل القادم لم يعرف النبَي ﷺ؛ لأنه ﷺ لم يكن يتميز عن أصحابه بمجلس أو شارة، وذلك لكمال تواضعه ﷺ.

٢ – وعن عليٍّ رضي الله عنه قال:

«بَعَثني رسولُ اللهِ ﷺ وأبا مَرْثَدٍ الغَنَويَّ والزبيرَ – وكلُّنا فارسٌ – قال: انطلِقوا حتى تأتوا رَوضةَ خاخ فإن بها امرأةً منَ المشركين معها كتابٌ من حاطِبِ بن أبي بَلْتعةَ إلى المشركين، فأدركناها تَسيرُ على بَعير لها حيثُ قال رسولُ اللهِ ﷺ.

فقلنا: الكتاب؟ فقالت: ما معي كتاب، فأنخناها، فالتمسْنا فلم نَرَ كتابًا.

فقلنا: ما كذبَ رسولُ الله ﷺ، لتخرجِنَّ الكتابَ أو لنجرّدنَّكِ، فلما رأتِ الجدَّ أهْوَت إلى حُجْزَتها – وهي محتجِزةٌ بكِساء فأخرجَتْه، فانطلَقنا بها إلى رسولِ الله ﷺ.

فقال عمر: يا رسولَ الله! قد خانَ الله ورسولَه والمؤمنين، فدَعني فلأضرِب عنقَه.

فقال النبيُّ ﷺ: ما حَمَلَك على ما صنعتَ؟

قال حاطب: والله ما بي أن لا أكونَ مؤمنًا باللهِ ورسولِهِ ﷺ، أردتُ أن يكونَ لي عندَ القوم يدٌ يَدفَعُ الله بها عن أهلي ومالي، وليس أحدٌ من أصحابِكَ إلاَّ لهُ هناكَ من عَشيرتِه مَن يَدفَعُ الله بِهِ عن أهلِهِ وماله.

فقال النبيُّ ﷺ : صَدقَ، ولا تَقولوا لهُ إلا خيرًا.

فقال عمرُ: إنهُ قد خانَ الله ورسولَه والمؤمنين، فدَعني فلأضرِبْ عُنُقَه.

فقال: أليسَ من أهل بَدر؟ لعلَّ اللهَ اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شِئتم فقد

وَجَبَتْ لكُم الجنة – أو فقد غَفَرتُ لكم – فدمعَت عَينا عمر وقال: الله ورسولهُ أعلم»[١].

٣- وعن أنسِ بن مالكٍ رضي الله عنه قال:

«كنتُ أمشي معَ النبيِّ ﷺ وعليهِ بُردٌ نَجْرانيٌّ غَليظُ الحاشيةِ، فأدرَكهُ أعرابيٌّ فجذَبَهُ جَذبةً شديدةً حتى نَظرتُ إلى صَفحةِ عاتق النبيِّ ﷺ قد أثَّرَتْ بهِ حاشية الرِّداءِ مِن شدَّةِ جذبتهِ، ثمَّ قال: مُرْ لي مِن مال اللهِ الذي عندَك. فالتفتَ إليه فضحِكَ ثمَّ أمرَ لهُ بعَطاء»[٢].

٤- وعن جُبيرِ بنِ مُطعمٍ:

«بينما هو يسيرُ معَ رسول الله ﷺ مقْفلَه من حُنينٍ، فعلقتِ الأعرابُ يسألونَه حتى اضطرُّوه إلى سَمُرة، فخطفتْ رِداءَه، فوقفَ النبيُّ ﷺ، فقال: أعطوني ردائي، لو كانَ لي عددُ هذِه العِضاه نَعَمٌ لقسمتُه بينكم، ثمَّ لا تجدوني بخيلًا ولا كذوبًا ولا جبانًا»[٣].

٥- وأما رحمته ﷺ بالأطفال فقد كان يمازحهم، وإذا مرَّ سلَّم عليهم.

فعن أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال:

«كان رسولُ الله ﷺ يأخذُني فيُقعِدني عَلَى فخذِه ويُقعدُ الحسنَ بن عليٍّ على فخذِه الآخر ثم يَضمُّهما ثم يقول: اللهمَّ ارحمْهما فإني أرحمُهما»[٤].

وأسامة هذا هو ابن مولاه –أي: كان مملوكًا له فأعتقه– وهو يساوي بينه وبين ابن ابنته في الرحمة بهما والعطف عليهما.

---

(1) رواه البخاري: (ح: ٣٨٩٥) ومسلم: (ح: ٦٣٥٤).

(2) البخاري: (ح: ٣٠٨٠).

(3) رواه البخاري: (ح:٢٧٦٠).

(4) رواه البخاري: (ح: ٥٨٦٦).

*وعن أنس بن مالك قال:

«كان النبيُّ ﷺ أحسنَ الناس خُلقًا، وكان لي أخٌ يقال له: أبو عُمَير - قال أحسِبُهُ فطيمًا - وكان إذا جاء قال: يا أبا عمير! ما فعلَ النُّغَير؟ نُغَرٌ كان يلعَبُ به، فرُبما حضرَ الصلاة وهو في بَيتِنا، فيأمر بالبساطِ الذي تحتهُ فيُكنَسُ وينضح، ثم يقوم ونقوم خَلفَه فيُصلِّي بنا»[1].

الجانب الخامس: معاملته ﷺ لأعدائه المجاورين له:

أمَّا أعداؤه ﷺ الذين كانوا يسكنون معه في المدينة ويظهرون الإسلام فقد آذوه طوال حياته بالإشاعات الكاذبة، والتشكيك في دينه، والتحريض على حربه، وهو مع ذلك يترفق بهم، ويعفو عنهم، بل ويحسن إليهم.

١ - فعنِ ابن عمرَ رضي الله عنهما:

قال: «لما تُوُفِّيَ عبدُ الله بن أبيّ جاء ابنه عبدالله بن عبد الله إلى رسولِ الله ﷺ فسأله أن يُعطيهُ قميصَه يُكفِّنُ فيه أباه، فأعطاهُ، ثمَّ سألهُ أن يُصلِّيَ عليه، فقام رسولُ الله ﷺ ليُصلِّي عليه، فقامَ عمرُ فأخذَ بثوب رسولِ الله ﷺ فقال: يا رسولَ الله! أتُصلِّي عليه وقد نهاك ربُّك أن تُصلِّي عليه؟

فقال رسولُ الله ﷺ: إنَّما خيَّرني الله فقال: ﴿ ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ أَوۡ لَا تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ إِن تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ سَبۡعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡ ﴾ [التوبة:٨٠] وسأزيدُهُ على السبعين.

قال: إنهُ مُنافق.

(1) رواه البخاري: (ح: ٦٠٦٠) ومسلم قصة النغير فقط: (ح: ٥٥٧٧).

قال: فصلى عليه رسولُ الله ﷺ فأنزَلَ الله: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ﴾[التوبة:٨٤]» [١].

فهذا الرجل قد آذى النبي ﷺ طوال حياته.. فكان يخذل المسلمين عن الجهاد، ويطعن في عرض الرسول ﷺ، ويستهزئ به وبأصحابه، وينشر الإشاعات، ومع ذلك صلّى ﷺ عليه عندما مات واستغفر له.

٢- وعن عائشةَ رضي الله عنها:

«أن يَهودَ أَتَوُا النبيَّ ﷺ فقالوا: السّامُ عليكم، فقالت عائشة رضي الله عنها: عليكم، ولعنكُم الله وغضِبَ الله عليكم.

قال: مهلًا يا عائشة، عليكِ بالرِّفق، وإياكِ والعنفَ والفُحش.

قالت: أولم تَسمع ما قالوا؟

قال: أَوَلم تسمعي ما قلتُ؟ ردَدتُ عليهم، فيُستجابُ لي فيهم، ولا يُستجاب لهم فيَّ» [٢].

الجانب السادس:رحمته ﷺ بأعدائه وعفوه عمن أراد به سوءًا منهم:

١ - أخبر ﷺ أن الله بعثه رحمة ولم يبعثه لعانًا:

«عن أبي هريرةَ رضي الله عنه، قال:

قيلَ: يا رسولَ الله! ادْعُ على المشركينَ، قال: إني لم أُبعثْ لعَّانًا؛ وإنما بُعِثْتُ رحمةً» [٣].

٢- رغم أذى قومه له ﷺ إلا أنه لم يدع عليهم، ولم يرض باستئصالهم عندما عرض

---

(1) البخاري: (ح: ١٢٤٨).

(2) رواه البخاري: (ح: ٥٨٦١).

(3) رواه مسلم: (٦٥٦٥).

عليه ملك الجبال أن يهلكهم:

فقد روى عروةُ عن عائشة رضي الله عنها زوج النبيِّ ﷺ أنها حدثته:

(أنها قالت للنبيِّ ﷺ : هل أتى عليكَ يومٌ كان أشدَّ من يوم أحُدٍ؟ قال: لقد لَقِيتُ من قومك ما لقيت، وكان أشدَّ ما لقيتُ منهم يومَ العقبةِ إذ عرَضتُ نفسي على ابنِ عبد يا ليل بن عبد كُلال فلم يُجِبني إلى ما أردتُ، فانطلقتُ وأنا مَهمومٌ، على وَجهِي، فلم أستَفق إلا وأنا بقرنِ الثَّعالب، فَرَفَعتُ رأسي، فإذا أنا بَسحابةٍ قد أظلَّتْني، فنظرتُ فإذا فيها جِبريل، فناداني فقال: إن الله قد سمعَ قولَ قومكَ لك وما رَدوا عليك، وقد بعث اللهُ إليكَ مَلَكَ الجبالِ لتأمرَهُ بما شِئتَ فيهم، فناداني ملكُ الجبال فسلم علي ثم قال: يا محمد! فقال: ذلكَ فيما شئتَ، إن شِئتَ أن أطبِقَ عليهم الأخْشَبَين. فقال النبيُّ ﷺ : بل أرجو أن يُخرِجَ الله من أصلابهم من يَعبُدُ اللهَ وحدَهُ لا يُشركُ بهِ شيئًا»[1].

٣ – عفوه ﷺ عن رجل أراد قتله:

عن جابر بن عبدِ الله رضي الله عنهما :

«أنه غزا مع رسولِ الله ﷺ قِبَلَ نجدٍ، فلما قَفلَ رسولُ الله ﷺ قَفلَ معه، فأدرَكَتهمُ القائلة في وادٍ كثيرِ العضاة، فنزلَ رسولُ الله ﷺ وتفرَّقَ الناسُ في العضاة يَستظِلُّون بالشَجر، ونزلَ رسولُ الله ﷺ تحتَ سَمُرةٍ فعلَّقَ بها سيفه.

قال جابرٌ: فنمنا نومةً فإذا رسولُ الله ﷺ يَدعونا، فجِئناهُ، فإذا عندَهُ أعرابيٌّ جالسٌ.

فقال رسولُ اللهّ ﷺ : «إنَّ هذا اخترَط سيفي وأنا نائم، فاستيقَظتُ وهوَ في يدِهِ صَلتًا، فقال لي: مَن يَمنعُكَ مني؟ قلتُ: الله، فها هو ذا جالسٌ. ثم لم يُعاقبْهُ رسولُ الله ﷺ»

(1) روا البخاري: (ح: ٣١٦١) ومسلم: (ح: ٤٦٠٨).

.(١)

فهذا الرجل قد تسلل بين الصحابة لقتل النبي ﷺ، وسل السيف لقتله فمنعه الله عز وجل، وعفا عنه النبي ﷺ.

٤- وقد عفا ﷺ عن قومه الذين آذوه وأخرجوه من أرضه بعد أن تمكن منهم في فتح مكة:

فقد روى البيهقي بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه ذكر في قصة فتح مكة أن النبي ﷺ : أَتَى الكعبةَ فَأَخَذَ بِعُضَادَتَيْ البابِ فقالَ:

«ما تقولونَ؟ وما تظنونَ؟»، قالُوا: نقولُ: ابنُ أَخٍ وابنُ عم حليمٌ رحيمٌ، قالَ: وقالُوا ذلكَ ثلاثًا، فقالَ رسولُ الله ﷺ : «أقولُ كَمَا قالَ يوسفُ: ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ﴾ [يوسف:٩٢].

قالَ: فَخَرَجُوا كَأَنَّمَا نُشِرُوا من القبورِ، فَدَخَلُوا في الإسلامِ»(٢).

قال الجاحظ وهو يتحدث عن خلق النبي ﷺ ومواقفه العظيمة:

(ولو لم يكن من كريم عفوه وثخانة حلمه إلا ما كان في يوم فتح مكة، فقد كان ذلك من أكمل الكمال، وأوضح البرهان، وذلك أنه حين دخل مكة عنوة، وقد قتلوا أعمامه وبني أعمامه، وأولياءه وأنصاره بعد أن حصروه في الشعاب، وعذبوا أصحابه بأنواع التعذيب، وجرحوه في بدنه، وآذوه في نفسه، وسفهوا عليه، وأجمعوا على كيده، فلما دخل بغير حمدهم، وظهر عليهم على صغرٍ منهم، قام خطيبًا فيهم، فحمد الله وأثنى عليه ثم

---

(1) رواه البخاري: (ح:٤٠٤٦).

(2) رواه في السنن: (ح: ١٨٦٤٧).

قال:

أقول لكم كما قال أخي يوسف: ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ﴾ [يوسف:٩٢])[١].

الجانب السابع: فصاحة النبي ﷺ بعد البعثة:

منذ نزل الوحي عليه ﷺ أصبح لفظه في غاية الفصاحة وقمة البلاغة، وكان كلامه وجيزًا، وعبارته قليلة مع جزالة في القول وفصاحة في اللفظ.

فكيف أصبح أفصح الناس وأبلغهم ولم يكن قارئًا ولا كاتبًا، ولم يكن له مشاركة لقومه في أنديتهم وأسواقهم الكلامية؟!

إنَّ ذلك دليل على أنَّه قد علمه ربه عز وجل.

- عن أبي هريرةَ رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول:

«بُعثت بجوامع الكلم، ونُصرتُ بالرُّعب، وبَينا أنا نائمٌ أُتيتُ بمفاتيح خَزائن الأرض ووُضعت في يدي»[٢].

قال أَبو عبدِ الله – أي: البخاري-: وبلغَني أَن جوامعَ الكلم أَنَّ الله يجمع الأمورَ الكثيرةَ التي كانتَ تُكتبُ في الكتبِ قبله في الأمر الواحد والأمرَين أو نحوَ ذلك.

الجانب الثامن: تحقق إخباره ﷺ عن الغيب:

أخبر عليه الصلاة والسلام بوقوع أمور في المستقبل، فكان كما أخبر، **ومن ذلك ما يلي:**

(1) البيان والتبيين: (٢/ ٥٢).

(2) رواه البخاري: ح (٢٩٧٧)، ومسلم: ح (٥٢٣).

١-شكا إليه بعض أصحابه وهم يعذبون في مكة وسألوه أن يدعو لهم فصبَّرهم وأخبرهم أنَّ هذا الدين سينتصر ويحكم حتَّى يأمن المسافر من الخوف والأذى، وقد تحقق ذلك.

- عن خَبّابِ بن الأرَتِّ ﵁ قال:

«شَكَونا إلى رسولِ الله ﷺ -وهو مُتَوَسِّدٌ بُردَةً لَهُ في ظِلِّ الكعبةِ- قلنا له: ألا تَستنصِرُ لنا، ألا تَدعو اللهَ لنا؟

قال: كان الرَّجلُ فيمن قبلَكمُ يُحفَرُ له في الأرضِ فيُجعَلُ فيه، فيُجاء بالميشارِ فيوضعُ على رأسِهِ فيُشَقُّ باثنتَينِ، وما يَصُدُّهُ ذلك عن دِينه، ويُمشَطُ بأمشاطِ الحديدِ ما دُونَ لحمِهِ من عظمٍ أو عَصَب، وما يَصدُّهُ ذلكَ عن دِينه.

والله لَيتمَّنَّ هذا الأمرَ حتى يَسيرَ الراكبُ من صنعاءَ إلى حَضْرَمَوتَ لا يخافُ إلاّ اللهَ، أوِ الذِّئبَ على غَنمه، ولكنَّكم تَستَعجِلون»[1].

وقد تحقق ما وعد به ﷺ، فنصر الله ﷻ المسلمين، وحكموا الأرض التي أشار إليها ﷺ في الحديث وعم فيها الأمن.

٢-أخبر ﷺ عن فتح المدن وخروج الناس بأهليهم من المدينة للسكن في المدن المفتوحة:الشام والعراق.

- عَنْ سُفْيَانَ بْنِ أَبِي زُهَيْرٍ ﵁ قال:

قَالَ رَسُولُ اللهِ: «تُفْتَحُ الشَّامُ. وَيَخْرُجُ مِنَ الْمَدِينَةِ قَوْمٌ بِأَهْلِيهِمْ. يُبِسُّونَ وَالْمَدِينَةُ خَيْرٌ لَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ، ثُمَّ تُفْتَحُ الْيَمَنُ، فَيَخْرُجُ مِنَ الْمَدِينَةِ قَوْمٌ بِأَهْلِيهِمْ، يَبِسُّونَ وَالْمَدِينَةُ خَيْرٌ

(1) رواه البخاري: (ح: ٣٥٣٤).

لَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ.

ثُمَّ يُفْتَحُ الْعِرَاقُ فَيَخْرُجُ مِنَ الْمَدِينَةِ قَوْمٌ بِأَهْلِيهِمْ يَبِسُّونَ وَالْمَدِينَةُ خَيْرٌ لَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ» [(١)].

وقد تحقق هذا الوعد ففتح المسلمون اليمن والعراق والشام، وحدثت الهجرة التي ذكر عليه الصلاة والسلام، فكان كما قال ﷺ.

قوله: (يبسون): قال أبو عبيد: (معناه: يسوقون دوابهم، والبسُّ: سوق الإبل. تقول: بس: عند السَّوْق وإرادة السرعة) [(٢)].

٣- إخباره ﷺ بفتح المسلمين بلاد الفرس والروم:

- عَنْ نَافِعِ بْنِ عُتْبَةَ رضي الله عنه قال:

كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ فِي غَزْوَةٍ. قَالَ: فَأَتَى النَّبِيَّ قَوْمٌ مِنْ قِبَلِ الْمَغْرِبِ. عَلَيْهِمْ ثِيَابُ الصُّوفِ. فَوَافَقُوهُ عِنْدَ أَكَمَةٍ. فَإِنَّهُمْ لَقِيَامٌ وَرَسُولُ اللهِ قَاعِدٌ، قَالَ: فَقَالَتْ لِي نَفْسِي: ائْتِهِمْ فَقُمْ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ لاَ يَغْتَالُونَهُ. قَالَ: ثُمَّ قُلْتُ: لَعَلَّهُ نَجِيٌّ مَعَهُمْ. فَأَتَيْتُهُمْ فَقُمْتُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ. قَالَ: فَحَفِظْتُ مِنْهُ أَرْبَعَ كَلِمَاتٍ. أَعُدُّهُنَّ فِي يَدِي. قَالَ:

«تَغْزُونَ جَزِيرَةَ الْعَرَبِ، فَيَفْتَحُهَا اللهُ. ثُمَّ فَارِسَ، فَيَفْتَحُهَا اللهُ، ثُمَّ تَغْزُونَ الرُّومَ، فَيَفْتَحُهَا الله. وتَغْزُونَ الدَّجَّالَ فَيَفْتَحُهُ الله».

قَالَ: فَقَالَ نَافِعٌ: يَا جَابِرُ! لاَ نُرَىٰ الدَّجَّالَ يَخْرُجُ حَتَّىٰ تُفْتَحَ الرُّومُ [(٣)].

---

(1) رواه البخاري (ح: ١٨٧٥)، ومسلم (ح: ٤٩٦).

(2) ذكره ابن حجر: الفتح: (٤/ ٥٧٥).

(3) رواه البخاري (ح: ٣٥٩٥)، ومسلم (ح: ١٣٨٨).

وقد فتحها الصحابة ﵃ بعد موته ﷺ.

٤- إخباره ﷺ أنَّ الخلافة بعده ستستمر ثلاثين سنة ثمَّ يصبح الحكم ملكًا، فكان كما أخبر صلوات الله وسلامه عليه.

- عن سفينة ﵁ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«الخلافة ثلاثون عامًا، ثم يكون بعد ذلك الملك».

قال سفينة: (أمسك: خلافة أبي بكر ﵁ سنتين، وخلافة عمر ﵁ عشر سنين، وخلافة عثمان ﵁ اثني عشر سنة، وخلافة علي ﵁ ست سنين)[1].

هذه بعض الأحاديث التي أخبر فيها ﷺ عمَّا سيكون فكان كما أخبر، وغيرها كثير وقد آثرنا الاختصار.

الجانب التاسع: أخبار أثبت صحتها العلم الحديث:

عن أبي هريرة ﵁ قال: قال النبي ﷺ :

١ - (إذا وقع الذباب في إناء أحدكم فليغمسه كله ثمَّ ليطرحه؛ فإنَّ في أحد جناحيه داءً وفي الآخر دواء)[2].

يقرر هذا الحديث قضيتين:

الأولى: أنَّ الذباب فيه داء، وقد ثبت علميًا عن طريق المختبرات أنَّ الذباب ناقل للجراثيم؛ لأنَّ الذباب يقع على القاذورات ويحمل الجراثيم.

الثانية: أنَّ الذباب يحمل بداخله مادة مضادة للجراثيم تخرج بمجرد غمسه في

---

(1) رواه أحمد: (٦: ٢٩٠).

(2) رواه البخاري (ح: ٥٧٨٢)، ومسلم (ح: ٣٣٢٠).

السائل الذي وقع فيه.

هذا معنى الحديث: فماذا قال العلم الحديث؟

لم يكن الناس في الماضي يستطيعون أن يدركوا العلة الطبية في هذا العمل، ثمَّ تقدم علم الإنسان وتوافرت له معامل الاختبار، ودرس الذباب، ولم يعلم الدارسون عن الحديث شيئًا لأنهم من غير المسلمين، ثمَّ عندما ظهرت نتائج الاختبارات واطلع المسلمون عليها وجدوها تؤكد صحة كلام النبي ﷺ.

وإليك بعض الدراسات:

- في عام (١٩٧١م) دراسة أجراها طبيب ألماني في جامعة (هال) بألمانيا اسمه (بريفلد) توصل إلى أنَّ الذبابة تحتضن فطريات مضادة للجراثيم إذا تعرضت الذبابة للضغط انفجرت تلك الفطريات وخرجت.
- وقد أكَّد هذه الحقيقة عام (١٩٤٥م) أكبر أستاذ للفطريات اسمه: (لانجرون).
- وأكَّدها كذلك عالمان إنجليزيان هما: (أرنشتين وكوك) وعالم سويسري اسمه: (روليوس).

وقد توالت عدة دراسات كلها تؤكد نفس ما تقرر سابقًا[1].

وهذا يؤكد أنَّ هذا لا يصدر إلا عمَّن أخد علمه من الخالق ﷻ، إذ لم تُعلم هذه الحقيقة إلا قبل مائة وثلاثين عامًا، أي: بعد موت النبي ﷺ بثلاثة عشر قرنًا من الزمان تقريبًا.

٢ – ذكر النبي ﷺ أنَّ الدم الذي يخرج من المرأة نوعان: دم حيض، ودم نزيف.

عن عائشةَ رضي الله عنها أنها قالت:

---

(١) الرسول (١/ ٣٨-٣٩).

قالت فاطمةُ بنتُ أبي حُبَيْشٍ لرسولِ اللهِ ﷺ : يارسولَ اللهِ إني لا أطهُرُ: أفأدَعُ الصلاةَ؟

فقال رسولُ اللهِ ﷺ : «إنما ذَلكِ عِرْقٌ وليسَ بالحَيضةِ، فإذا أقبَلَتِ الحَيضةُ فاترُكي الصلاة، فإذا ذَهَبَ قَدْرُها فاغْسِلي عنكِ الدمَ وصَلِّي».[(١)]

وقد أكَّد الأطباء اليوم أنَّ الدم دمان: دم يخرج من الرحم وهو ما له علاقة بالحمل، ودم آخر من الأغشية لا علاقة له بالرحم.. فكيف عرف النبي ﷺ ذلك، ومخرج الدم واحد وليس عنده مختبرات؟ إنَّه علم الله ﷻ الذي لا تخفى عليه خافية[(٢)].

٤ – أخبر النبي ﷺ أنَّ الخمر داء وليست بدواء، وذلك على خلاف ما كان يعتقده العرب حيث كانوا يعتقدون أنَّها دواء وكانوا يشربونها جميعًا تقريبًا.

عن طارق بن سويد الجعفي أنه سأل النبي ﷺ عن الخمر فنهاه أو كره أن يصنعها فقال: إنما أصنعها للدواء، فقال: (إنه ليس بدواء ولكنه داء)[(٣)].

والطب الحديث قد أثبت هذه الحقيقة.

ففي عام (١٩٢٨م) عقد المؤتمر الدولي التاسع عشر لمكافحة المسكرات في مدينة «أنفرس» ببلجيكا، وتكلم مندوبو عدة دول مبينين مضار الخمر، ثمَّ قام طبيب مسلم وأخبرهم بالحديث النبوي، ودهش أعضاء المؤتمر وقابلوه بالاستحسان والتصفيق،

---

(1) رواه البخاري (ح: ٢٨٨)، ومسلم (ح: ٣٣٣).

(2) الرسول (١/ ٤١).

(3) مسلم (ح:٣٦٧٠).

وطلبوا منه أن يملي عليهم نص الحديث[1].

٥ - قال ﷺ: (إذا شرب الكلب في إناء أحدكم فليغسله سبعًا)[2].

وقد ثبت أنَّ الكلاب تصاب بالدودة الشريطية ولعقها للأواني ينقل هذا المرض إلى الإنسان.

وثبت أنَّ بعض الجراثيم لا يقتلها إلا التراب، فإنَّ فيه مادة مقاومة لبعض الجراثيم.

وقد نشرت مجلة ألمانية اسمها «كوسموس» مقالًا للدكتور: «جراد فنشر» بعنوان: الأخطار التي تنشأ عن الكلاب والاقتراب منها.

قال فيها: (إنَّ ازدياد شغف الناس بالكلاب في هذا العهد الأخير يضطرنا إلى لفت الأنظار للأخطار التي تنجم عن ذلك، وخاصة إذا دفع اقتناؤها إلى مداعبتها وتقبيلها، والسماح لها بلحس الأيدي وتركها تلعق فضلات الطعام من الأواني، فإنَّ الكلاب تصاب بدودة شريطية تتعداها إلى الإنسان وتصيبه بأمراض عضال قد تصل إلى حد العدوان على حياته)[3].

٦ - الربط بين ظهور الفاحشة والأمراض الخطيرة:

عن النبي ﷺ قال: «لم تظهر الفاحشة في قومٍ قط حتَّى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون، والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم»[4].

---

(1) الخمر داء وليست دواء (٤٤).

(2) رواه البخاري (ح: ١٧٢)، ومسلم (ح: ٢٧٩).

(3) الرسول (١/ ٤٥-٤٦).

(4) رواه ابن ماجه (ح: ٤٠١٩)، والحاكم وصححه (٤/ ٥٤٠).

وهذا الحديث يربط بين ظهور أمراض خطيرة واللقاءات الجنسية غير المشروعة.

وعندما عُرض الحديث على الأستاذ الدكتور: «برسود» قال بعد مقدمة عن العلاقة بين الأمراض وتنوع الجماع: (إنَّ نتائج ومخاطر العلاقات الجنسية غير الشرعية والممارسات الجنسية المنحرفة قد ذكرت في هذا الحديث منذ (١٤٠٠سنة) وأرجو أن أكون مصيبًا أنَّه يشير إلى مرض «الإيدز».. إلى أن قال: والطريقة التي شرح لي بها هو أنَّ محمدًا ﷺ كان رجلًا عاديًا جدًا، ولم يكن يكتب، بل كان في الواقع أميًا، ونحن نتحدث عنه أنَّه كان منذ (١٤٠٠سنة) رجلًا أميًا يدلي بتصريحات عميقة ودقيقة بصورة مدهشة، وذات طبيعة علمية، وأنا شخصيًا لا أستطيع أن أرى بأن يكون هذا مجرد مصادفة؛ إذ هناك أشياء كثيرة دقيقة، وبالتالي فأنا مثل الدكتور: «كيث مور» لا أجد صعوبة في أن أوافق بعقلي أنَّ هذا إلهام إلهي أو وحي قاده إلى البينات)[1].

يعترف هذا الطبيب المتخصص أن هذه الإشارة النبوية لا يمكن أن تكون من علم البشر؛ لأنها تصف حالة دقيقة لم يعرفها البشر إلا الآن بواسطة العلم الحديث.

الجانب العاشر: إجابة دعائه ﷺ:

كان النبي ﷺ إذا دعا الله عز وجل بشيء تحقق ما يدعو به في كثير من دعواته، **ومن ذلك ما يلي:**[2]

١-دخل أعرابي من أهل البادية إلى المسجد فشكا الجدب وقلة المطر والنبي ﷺ على

---

(1) كتاب: (إنه الحق) (٥٩-٦١).

(2) ولم نقل تتحقق جميعها، لأن أمور الكون كلها بيد الله عز وجل، وقد تكون المصلحة في غير ما دعا، ولبيان الفرق بين الخالق والمخلوق فإن محمداً ﷺ مخلوق لا يتحقق كل ما يريد، وإنما الذي يتحقق كل ما يريد هو الله وحده، ولم يقع كل ما يريده محمد ﷺ لبيان بشريته، وتحقيق كثير مما دعا به لبيان نبوته.

المنبر يخطب يوم الجمعة فرفع النبي ﷺ يديه ودعا، ولم يكن في السماء سحاب، فتجمع السحاب وأمطرت السماء في نفس اللحظة، واستمر المطر أسبوعًا كاملًا.

ثمَّ دخل الأعرابي يوم الجمعة التي بعدها يشكو من كثرة المطر فدعا النبي ﷺ أن يرتفع المطر عن المدينة فارتفع، وأحاط بالمدينة من كل مكان والناس يشاهدون ذلك.

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ:

(أَصَابَتْ النَّاسَ سَنَةٌ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ، فَبَيْنَا النَّبِيُّ ﷺ يَخْطُبُ فِي يَوْمِ جُمُعَةٍ قَامَ أَعْرَابِيٌّ فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله! هَلَكَ الْمَالُ وَجَاعَ الْعِيَالُ فَادْعُ اللهَّ لَنَا. فَرَفَعَ يَدَيْهِ وَمَا نَرَى فِي السَّمَاءِ قَزَعَةً، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا وَضَعَهَا حَتَّى ثَارَ السَّحَابُ أَمْثَالَ الْجِبَالِ ثُمَّ لَمْ يَنْزِلْ عَنْ مِنْبَرِهِ حَتَّى رَأَيْتُ الْمَطَرَ يَتَحَادَرُ عَلَى لِحْيَتِهِ ﷺ فَمُطِرْنَا يَوْمَنَا ذَلِكَ وَمِنْ الْغَدِ وَبَعْدَ الْغَدِ وَالَّذِي يَلِيهِ حَتَّى الْجُمُعَةِ الْأُخْرَى.

وَقَامَ ذَلِكَ الْأَعْرَابِيُّ أَوْ قَالَ غَيْرُهُ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهَّ! تَهَدَّمَ الْبِنَاءُ وَغَرِقَ الْمَالُ فَادْعُ اللهَّ لَنَا.

فَرَفَعَ يَدَيْهِ فَقَالَ: اللَّهُمَّ حَوَالَيْنَا وَلَا عَلَيْنَا. فَمَا يُشِيرُ بِيَدِهِ إِلَى نَاحِيَةٍ مِنْ السَّحَابِ إِلَّا انْفَرَجَتْ وَصَارَتْ الْمَدِينَةُ مِثْلَ الْجَوْبَةِ وَسَالَ وَادِي قَنَاةٍ شَهْرًا وَلَمْ يَجِئْ أَحَدٌ مِنْ نَاحِيَةٍ إِلَّا حَدَّثَ بِالْجَوْدِ)[(١)].

٢- ودعا ﷺ لخادمه أنس رضي الله عنه فبارك الله له في ولده وماله.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال:

«دَخلَ النبيُّ ﷺ على أُمِّ سُلَيمٍ، فأَتَتْهُ بتمرٍ وسَمنٍ، قال: أَعِيدوا سَمنكم في سِقائهِ

(١) رواه البخاري (ح: ١٠١٣)، ومسلم (ح: ٨٩٧) واللفظ له.

وتمرَكم في وِعائهِ؛ فإني صائم، ثم قامَ إلى ناحيةٍ مِنَ البيتِ فصلَّى غيرَ المكتوبةِ، فدَعا لأُمِّ سُلَيمٍ وأهلِ بَيتِها.

فقالت أمُّ سُليمٍ: يا رسولَ الله! إنَّ لي خُوَيصَّة، قال: ما هيَ؟

قالت: خادمُكَ أنسٌ. فما ترَك خيرَ آخِرةٍ ولا دُنيا إلاّ دَعا لي به: اللّهمَّ ارزُقْهُ مالًا ووَلدًا، وبارِكْ لهُ. فإني لَمِنْ أكثَرِ الأنصارِ مالًا. وحدَّثَتْني ابنَتي أُمَينةُ أنهُ دُفِنَ لِصُلْبي مَقْدَمَ الحَجّاجِ البَصرةَ بِضعٌ وعِشرونَ ومائة»[1].

٣ - دعا لامرأةٍ تُصاب بالصرع يفقدها وعيها بأن لا تتكشف فلم تتكشف بعد.

عن عَطَاءُ بْنُ أَبِي رَبَاحٍ قَالَ: قَالَ لِي ابْنُ عَبَّاسٍ: أَلَا أُرِيكَ امْرَأَةً مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟ قُلْتُ: بَلَى. قَالَ: هَذِهِ الْمَرْأَةُ السَّوْدَاءُ أَتَتْ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَتْ: إِنِّي أُصْرَعُ، وَإِنِّي أَتَكَشَّفُ فَادْعُ اللهَّ لِي. قَالَ:إِنْ شِئْتِ صَبَرْتِ وَلَكِ الْجَنَّةُ وَإِنْ شِئْتِ دَعَوْتُ اللهَّ أَنْ يُعَافِيَكِ. فَقَالَتْ: أَصْبِرُ. ثم قَالَتْ: إِنِّي أَتَكَشَّفُ فَادْعُ اللهَّ لِي أَنْ لَا أَتَكَشَّفَ، فَدَعَا لَهَا.

ثم روى البخاري بسنده عن عَطَاءٌ: أَنَّهُ رَأَى أُمَّ زُفَرَ تِلْكَ امْرَأَةً طَوِيلَةً سَوْدَاءَ عَلَى سِتْرِ الْكَعْبَةِ[2].

٤- وفي قصة الهجرة دعا ﷺ على سُراقة بن مالك الذي كان يتتبعهم للإمساك بهم فساخت قدم فرسه في الأرض.

قَالَ الْبَرَاءُ بْنُ عَازِبٍ: جَاءَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ إِلَىٰ أَبِي فِي مَنْزِلِهِ، فَاشْتَرَىٰ مِنْهُ رَحْلًا.

فَقَالَ لِعَازِبٍ: ابْعَثْ مَعِيَ ابْنَكَ يَحْمِلْهُ مَعِي إِلَىٰ مَنْزِلِي.

---

(1) رواه البخاري: (ح: ١٩٥٩).

(2) رواه البخاري (ح: ٥٦٥٢)، ومسلم (ح: ٢٥٧٦).

فَقَالَ لِي أَبِي: احْمِلْهُ. فَحَمَلْتُهُ. وَخَرَجَ أَبِي مَعَهُ يَنْتَقِدُ ثَمَنَهُ. فَقَالَ لَهُ أَبِي: يَا أَبَا بَكْرٍ، حَدِّثْنِي كَيْفَ صَنَعْتُمَا لَيْلَةَ سَرَيْتَ مَعَ رَسُولِ الله.

قَالَ: نَعَمْ. أَسْرَيْنَا لَيْلَتَنَا كُلَّهَا. حَتَّىٰ قَامَ قَائِمُ الظَّهِيرَةِ، وَخَلاَ الطَّرِيقُ فَلاَ يَمُرُّ فِيهِ أَحَدٌ، حَتَّىٰ رُفِعَتْ لَنَا صَخْرَةٌ طَوِيلَةٌ لَهَا ظِلٌّ، لَمْ تَأْتِ عَلَيْهِ الشَّمْسُ بَعْدُ، فَنَزَلْنَا عِنْدَهَا.

فَأَتَيْتُ الصَّخْرَةَ فَسَوَّيْتُ بِيَدِي مَكَانًا يَنَامُ فِيهِ النَّبِيُّ فِي ظِلِّهَا، ثُمَّ بَسَطْتُ لَهُ عَلَيْهِ فَرْوَةً، ثُمَّ قُلْتُ: نَمْ يَا رَسُولَ الله! وَأَنَا أَنْفُضُ لَكَ مَا حَوْلَكَ. فَنَامَ.

وخَرَجْتُ أَنْفُضُ مَا حَوْلَهُ؛ فَإِذَا أَنَا بِرَاعِي غَنَمٍ مُقْبِلٍ بِغَنَمِهِ إِلَىٰ الصَّخْرَةِ، يُرِيدُ مِنْهَا الَّذِي أَرَدْنَا؛ فَلَقِيتُهُ فَقُلْتُ: لِمَنْ أَنْتَ يَا غُلاَمُ؟ فَقَالَ: لِرَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ. قُلْتُ: أَفِي غَنَمِكَ لَبَنٌ؟ قَالَ: نَعَمْ. قُلْتُ: أَفَتَحْلُبُ لِي؟ قَالَ: نَعَمْ، فَأَخَذَ شَاةً، فَقُلْتُ لَهُ: انْفُضِ الضَّرْعَ مِنَ الشَّعَرِ وَالتُّرابِ وَالْقَذَىٰ (قَالَ: فَرَأَيْتُ الْبَرَاءَ يَضْرِبُ بِيَدِهِ عَلَىٰ الأُخْرَىٰ يَنْفُضُ) فَحَلَبَ لِي فِي قَعْبٍ مَعَهُ كُثْبَةً مِنْ لَبَنٍ. قَالَ: وَمَعِي إِدَاوَةٌ أَرْتَوِي فِيهَا لِلنَّبِيِّ لِيَشْرَبَ مِنْهَا وَيَتَوَضَّأَ.

قَالَ: فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ وَكَرِهْتُ أَنْ أُوقِظَهُ مِنْ نَوْمِهِ، فَوَافَقْتُهُ اسْتَيْقَظَ، فَصَبَبْتُ عَلَىٰ اللَّبَنِ مِنَ الْمَاءِ حَتَّىٰ بَرَدَ أَسْفَلُهُ. فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهّ! اشْرَبْ مِنْ هٰذَا اللَّبَنِ. قَالَ: فَشَرِبَ حَتَّىٰ رَضِيتُ، ثُمَّ قَالَ: «أَلَمْ يَأْنِ لِلرَّحِيلِ؟ » قُلْتُ: بَلَىٰ. قَالَ: فَارْتَحَلْنَا بَعْدَ مَا زَالَتِ الشَّمْسُ، وَاتَّبَعَنَا سُرَاقَةُ بْنُ مَالِكٍ. قَالَ: وَنَحْنُ فِي جَدَدٍ مِنَ الأَرْضِ- يعني مكشوفة- فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهّ! أُتِينا، فَقَالَ: «لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللهّ مَعَنَا» فَدَعَا عَلَيْهِ رَسُولُ الله، فَارْتَطَمَتْ فَرَسُهُ إِلَىٰ بَطْنِهَا أُرَىٰ، فَقَالَ: إِنِّي قَدْ عَلِمْتُ أَنَّكُمَا قَدْ دَعَوْتُمَا عَلَيَّ. فَادْعُوا لِي، فَالله لَكُمَا أَنْ أَرُدَّ عَنْكُمَا الطَّلَبَ.

فَدَعَا اللهّ فَنَجَىٰ، فَرَجَعَ لاَ يَلْقَىٰ أَحَدًا إِلاَّ قَالَ: قَدْ كَفَيْتُكُمْ مَا هٰهُنَا. فَلاَ يَلْقَىٰ أَحَدًا إِلاَّ

رَدَّهُ. قَالَ: وَوَفَى لَنَا) [1].

ودعواته ﷺ المجابات كثيرة نكتفي بهذه النماذج منها.

النوع الخامس: الدين الذي دعا إليه ﷺ:

إن المتأمل للدين الذي دعا إليه النبي محمد ﷺ يرى أنَّه أمام دين عظيم اشتمل على أمورٍ عديدة لا يستطيع إنسان لم يقرأ ولم يكتب ولم يكن في مجتمع علم وثقافة أن يخطر بباله أمثال تلك الأمور.

فقد تحدث القرآن الكريم عن الخالق ﷻ، وأسمائه وصفاته، وأفعاله وحقوقه على خلقه.

كما أخبر عن مخلوقات غيبية - هي الملائكة والشياطين والجن - وصفات كل منها.

كما أخبر عن الآخرة وما سيكون فيها من مواقف وما يجري فيها من حساب ووزن للأعمال وما أعدَّه الله ﷿ بعد ذلك من جزاء.

وأمَّا أمور الدنيا فقد اشتمل دينه على كل ما فيه خير وفضيلة.

فدعا إلى فضائل الأخلاق، من الصدق، والأمانة، والإحسان، ونهى عن أضدادها.

كما وضع قواعد المعاملات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية بما يحقق للمجتمع الحياة السعيدة، وقد تقدم طرف من ذلك.

إذًا: هل يمكن أن يصدر ذلك من رجل أمِّي لا يقرأ ولا يكتب، يعيش في مجتمع جاهل لا يحسن القراءة فيه إلا أفراد؟!

إنَّ هذا لدليل على أنَّ هذا الدين إنَّما هو من خالق الكون وخالق الإنسان «الله» ﷻ.

---

(1) رواه مسلم: (ح: ٧٤٦٣).

كيف يدخل الإنسان الإسلام؟

بعد أن ينشرح صدر الإنسان للإسلام فإنَّه يمكنه الدخول فيه بنفسه، بدون وسيط، وإنَّما يعلن قناعته بالإسلام ثمَّ يبدأ في تطبيقه.

١) وإعلان القناعة تتم بنطق هذه الكلمات مع معرفة معناها وهي:

«أشهد أن لا إله إلا الله وأنَّ محمدًا رسول الله».

ومعناها:

- أقر وأعترف وأخضع لله عزوجل مطيعاً متذللاً له سبحانه.

- وأقر أنَّ محمدًا عبد الله ورسوله الذي أنزل عليه الدين، وألتزم بأن أصدقه في كل ما يقول، وأطيعه في كل ما يأمر به أو ينهى عنه.

- فالدين: قول وتصديق وعمل.

وأما الأشياء التي طالب المسلم بالتصديق بها فهي كل ما أخبر الله ﷻ عنه، أو أخبر به رسوله ﷺ، وهي ستة أمور:

١) الإيمان بالله ﷻ، والتصديق به وتعظيمه ومحبته.

٢) التصديق بملائكته، وأنَّ هناك ملائكة. أي: مخلوقات أخيار أطهار نحبهم ونقرُّ بهم.

٣) التصديق بأنَّ الله ﷻ قد أنزل من السماء كتبًا أوحاها إلى أنبيائه الذين أرسلهم.

٤) التصديق برسله، وأنَّه سبحانه أرسل رسلًا إلى أهل الأرض على مر العصور واختلاف الأجيال ليعلموا الناس دينهم الذي خلقهم الله ﷻ من أجله، وماذا ينتظرهم بعد الموت.

٥) التصديق باليوم الآخر، وهو زمن يأتي بعد انتهاء الدنيا لحساب الناس، فيكرم المؤمنون بالجنَّة ويُهان الكفار بعذاب النار.

٦) التصديق بأنَّ كل ما يجري في هذا الكون بتقدير الله ﷻ وخلقه، وأنَّه لا يستطيع إنسان أن يفعل شيئًا دون مشيئة الله ﷻ، وعدم البحث في ذلك؛ لأنَّ العقل البشري لا يعرف قوانين الغيب، فلا يجوز أن يحاكمها إلى قوانين الشهادة.

وهذه تسمى في الإسلام: أركان الإيمان الستة.

ثم يتبعها أمور عملية هي:

١) خمس صلوات في اليوم والليلة.

وصورتها كما يلي بعد الوضوء:

۞ ركعتان في الفجر قبل طلوع الشمس (الفجر).

۞ وأربع ركعات بعد زوال الشمس(الظهر).

۞ وأربع ركعات بعدها حين يصير ظل كل شيءٍ مثليه (العصر).

۞ وثلاث ركعات بعد غروب الشمس مباشرة (المغرب).

۞ وأربع ركعات بعدها بعد غياب الشفق الأحمر (العشاء).

هذه المواقيت في البلدان المعتدلة وفي غيرها يراعى فارق التوقيت.

وهذه رمز الخضوع لله عز وجل، وتُصلَّى جماعة في المساجد مع المسلمين ولا تصلَّى في البيت إلا لعذر.

٢) ثمَّ الزكاة، وهي نسبة محددة تقدربـ (٢،٥٪) اثنان ونصف في المئة يدفعها المسلم للفقراء كل عام على المال الذي يمر عليه سنة كاملة، وكذلك على عروض التجارة في نهاية كل عام بنفس النسبة.

وكذلك الزراعة عند الحصاد فقط، فإن كانت تُسقى بماء الأمطار ففيها عشرها زكاة، وإن كانت تُسقى بجهد المزارع ففيها نصف العُشر، ولا يتكرر دفعها عن نفس الثمرة فإنَّه يكفي فيها المرة الأولى.

وكذلك الزكاة على الأنعام -الإبل، والبقر، والغنم- في نهاية كل عام بنسبة محددة، وكذلك زكاة الفطر آخر شهر رمضان مقدارصاع من طعام (بحسب قوت البلد) للفقير.

هذا مجمل الحق المالي المسمَّى بالزكاة، وهو أساس من أساسيات الدين.

٣) ثمَّ يأتي بعد ذلك الصيام، وهو: الإمساك عن الطعام والشراب والجماع لمدة شهر كامل من الفجر إلى غروب الشمس، وتُباح له هذه كلها في الليل.

٤) ثم الحج وهو زيارة مكة بيت الله الحرام مرة واحدة في العمر لمن كان قادرًا ماليًا وبدنيًا وتوافر أمن الطريق.

هذه أهم الأمور العملية، وهناك أمور أخرى يتعلمها المسلم بعد دخوله في الإسلام.

وأما الأخلاق والسلوك فقد تقدم معنا أهم ما أمر به الإسلام أو نهى عنه منها.

تعريفات

أولاً: تعريف موجز بمكان نزول الدين.

المكان: مكة المكرمة:

هذا المكان يقع في منتصف الكرة الأرضية بين الشرق الغرب، وفي غرب قارة «آسيا» وتعتبر منطقة الشرق الأوسط مهد الأنبياء من ذرية إبراهيم عليه السلام.

إنَّ إبراهيم عليه السلام قد أسكن ابنه «يعقوب» في الشام، وأسكن ابنه «إسماعيل» في الجنوب في مكة في جزيرة العرب.

قال الله عزوجل عن إبراهيم أنه دعا الله عزوجل فقال:﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧ ﴾

(إبراهيم ٣٧)

فقد ورد في التوراة في سفر التكوين، الإصحاح الحادي والعشرين فقرة (٢٠-٢١): (وكان الله مع الغلام فكبر وسكن في البرية، وكان ينمو رامي قوس، وسكن في برية فاران).

و(برية فاران) هي: مكة كما تقدم.

هذا المكان يمثل وسط القارات اليابسة.

فالشام أسكنه الله عز وجل لنسل «إسحاق» بن إبراهيم عليهما السلام.

وجنوب الشام أسكنه الله عز وجل «إسماعيل» بن إبراهيم عليهما السلام.

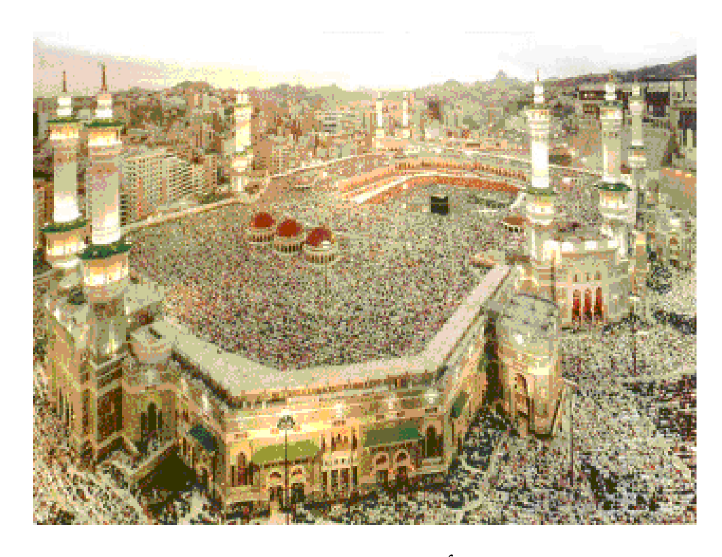
وهذا المكان هو المتوسط بين القارات، فآسيا تقع شرقه، وأوروبا تقع في الشمال والغرب، وأفريقيا والأمريكتان في الغرب.

إذًا: مكة تقع في وسط القارات.

وأمَّا بُعد الأمريكتين نسبيًا فإنَّ القارات جميعها كما تذكر الدراسات الجغرافية كانت متماسكة مع بعضها ثمَّ حدث الانفصال وتباعدت مع مرور الزمن، فالمكان مهيأ في قدر الله عز وجل.



هذه خارطة العالم تبدو فيها الجزيرة العربية في وسطها تفصل قارة آسيا عن إفريقيا.



هذه صورة الكعبة : (باللون الأسود) بيت الله عز وجل يحيط بها المسجد الحرام من كل جوانبها، وهذه صورة للمسلمين يؤدون الصلاة في المسجد الحرام متجهين إلى الكعبة.

ثانيًا:المجتمع الذي نزل عليه هذا الدين:

المجتمع الذي نزل الدين فيهم هم: «العرب» وهـم سكان الجزيـرة العربيـة، وكانـت قبيلة قريش تسكن مكة، وهم من ذرية إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام.

وهذا المجتمع كان قبل نزول الإسلام يتصف بصفات حسنة وأخرى سيئة.

ومن الصفات الحسنة:

١-أنَّهم كانوا يعظمون الصدق ويأنفون من الكذب ويعدونه عيبًا.

٢-كانوا يوفون بالعهد ويعيّرون من ينكثه.

٣-الشجاعة: فكان أحدهم يستحي من الفرار من المعركة.

٤-الكرم، فكان أحدهم يكرم ضيفه ولو لم يجد إلا ناقته التي يركبها فإنَّه يذبحها لضيفه ولو لم يعرفه.

٥-كان يتمتع غالب أهلها بالذكاء والفطنة وسرعة البديهة.

ومن الصفات السيئة:

١-أنَّهم عبدوا الأصنام من دون الله عزَّ وجلَّ، وهي تماثيل صنعوها على صور بعض الصالحين وعظموها وتقربوا إليها.

٢- أنَّ الزنا كان موجودًا في مجتمعهم على صور شتَّى.

٣- كانوا يشربون الخمر.

٤- كان بعضهم يقتل ابنته خوف العار.

٥- كانوا يتقاتلون على أتفه الأسباب.

٦- كانوا في غاية الجهل ولم تكن لهم ثقافة تُذكر.

فحال المجتمع العربي لم يكن شرًا محضًا، بل كان فيه جوانب حسنة تهيؤه للقيام بواجبات الدين الجديد، ثمَّ إنَّه قد هبط في جوانب كثيرة، فما أن ينبه وتوقظ مشاعره إلا ويستيقظ ويدرك فساد ما يعيشه، ثمَّ لم تكن له ثقافة يخشى منها لتفسد التعاليم والعقائد الجديدة، بخلاف المجتمعات التي تعيش حالة من التحضر الثقافي آنذاك، فإنَّه ربَّما تسرَّبت تلك الثقافات إلى العقيدة الجديدة، بل وربَّما استعصى على أهلها قبول هذه العقيدة المخالفة لثقافتهم، وكان النبي الجديد سيواجه محاولات وفلسفات تعرقل قبول الدين الجديد لو نزل فيهم، فكان المجتمع العربي الساذج الخالي الذهن من الفلسفات والثقافة أنسب مكان للدين الجديد.

ثالثًا: اللغة التي نزل بها القرآن الكريم:

اهتم العرب بلغتهم اهتمامًا عظيمًا -كما تقدمت الإشارة إليه-، حيث كانوا يقيمون لها الأسواق للتنافس في الخطب والقصائد الشعرية، ثمَّ يختارون أفضلها ويعلقونه على باب «الكعبة» وهي أعظم مكان تعظمه العرب؛ وذلك لشدة عنايتهم وتعظيمهم للغة كما تقدم بيانه.

واللغة العربية قد نضجت وبلغت كمالها المقدَّر لها في ذلك العصر، بما لم يتحقق مثله لأي لغة عالمية أخرى، فإنَّ كثيرًا من اللغات لا زالت تترقى ولم تصل إلى المستوى المطلوب إلا في العصور المتأخرة، حتَّى إنَّ كثيرًا من اللغات اليوم إن لم يكن جميعها يصعب فهم ما كتب منها قبل ألف سنة.

أمَّا العربية فإنَّها قد أشرقت أنوارها، واستحكم بناؤها قبل ألف وأربعمائة عام، وهذا من تدبير الله عز وجل لها؛ لأنَّه سوف ينزل بها كلامه المعجز الذي سيبقى إلى نهاية العالم

يخاطب كل البشرية، فلو لم تكن العربية مؤهلة لينزل بها القرآن، ثمَّ نزل بها وهي ضعيفة لما كان هذا القرآن آية تدل على صحة الرسالة، ولما أمكن إقامة الحجة بأنَّه من عند الله ﷻ.

ثمَّ إنَّ المتأمل لطريقة نطق العربية ومخارج حروفها، وحركات الأفواه بها، ومقارنتها باللغات الشرقية والغربية، ليرى تميزًا باهرًا في هذه اللغة.

فالشرقيون لا يكادون يفتحون أفواههم عند الكلام، والغربيون يبالغون في فتح الأفواه عند الكلام، أمَّا أهل العربية فإنَّهم وسط بين تلكم الحركتين، فسبحان من قدَّر واختار!

رابعًا: الشخص الذي نزل عليه الوحي:

هو: محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم، من قريش.

وقد وُلِد يوم الإثنين الثاني عشر من شهر ربيع الأول عام (٥٧١م).

وكان البيت الذي وُلِد فيه أشرف بيوت مكة وأفضلها، وإليه كانت سقاية الحجاج وإطعامهم، وقد وُلِد بعد موت أبيه، وكفله جده عبد المطلب، وماتت أمه وعمره ست سنوات، واشتغل برعي الغنم ثمَّ بالتجارة حتَّى وصل سن الأربعين، وفيها نزل عليه الوحي.

- وقد نشأ أميًا لا يقرأ ولا يكتب.
- ولم يسجد لصنمٍ قط.
- ولم يشرب خمرًا قط.
- ولم يقع في رذيلة طوال حياته قط.
- ولم يكذب قط.
- ولم يغدر قط.
- ولم يخن قط.

- وكان يسمَّى بالصادق الأمين لعدم وقوع كذب أو خيانة منه طوال حياته التي عاشها بينهم.

وعندما هدموا الكعبة وبنوها وأرادوا أن يضعوا الحجر الأسود مكانه اختلفوا فيه: أيُّ قبيلة تضعه؟ واتفقوا على أن يُحكِّموا أول داخل من خارج المسجد، فكان الداخل هو محمد ﷺ فارتضوه حكمًا، فوضع رداءه وجعل كل قبيلة تحمل بطرف منه، ووضع هو الحجر في الرداء، فحملوه إلى مكانه، ووضعه هو مكانه فرضوا بحكمه، وكان له شرف حمل الحجر ووضعه، ولم تمسه أيديهم.

- وقد حفظه الله عز وجل فلم تنكشف له عورة.

- وقد حبَّب الله إليه الخلوة، فكان يخلو في غار حراء حتَّى جاءه الوحي في الغار.

- ولَمَّا بلغ سن الأربعين تتابعت عليه مقدمات النبوة، فبقي ستة أشهر يرى الشيء في النوم ويراه في اليوم الثاني كما رآه.

- ثمَّ كانت بعض الأحجار تسلِّم عليه بالنبوة.

- وقد نزل عليه المَلَك في غار حراء فضمَّه إليه ثمَّ قال: اقرأ. ثلاث مرات. والنبي ﷺ يرد عليه: لست بقارئ. أي: ما أنا ممن يعرف القراءة، **فقال:** ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥ ﴾ [العلق:١-٥]. فكانت أول قرآن أنزله الله عز وجل عليه ﷺ.

ثم أُمر بالدعوة إلى الدين سرًا - أي: يكلم الناس أفرادًا، فإنْ قَبِل وأسلم فذاك، وإلا طلب منه أن يكتم عليه - وبقي على ذلك: ثلاث سنوات، وأسلم له في هذه الفترة قرابة الأربعين رجلًا، وذلك يدل على مدى الثقة في شخصه ﷺ.

ثم أُمر بعد ذلك بالدعوة جهرًا وقد بدأ بقرابته، ثمَّ أعلن بعد ذلك لعموم قومه.

وقد أثار ذلك المشركين فأخذوا في إيذائه، وإيذاء من أسلم، وبقي في مكة على هذا الحال عشر سنين، والناس يزيدون قليلًا قليلًا رغم البلاء والأذى الذي يواجهونه، ولم يرجع أحد من المسلمين عن دينه.

- ثمَّ أَذن لأتباعه بالهجرة إلى خارج الجزيرة إلى الحبشة، لوجود ملك نصراني عادل بها، فهاجر من المسلمين بعض الرجال ومعهم بعض النساء خفية من قريش، ثمَّ هاجر بعد ذلك قرابة مائة رجل وامرأة، وأرسلت قريش وفدًا إلى ملك الحبشة ليعيدهم إلى قومهم وذكروا له أنَّهم يطعنون في عيسى وأمه، فطلب النجاشي من المسلمين أن يخبروه عن عيسى وأمه، فقرءوا عليه سورة مريم فبكى النجاشي ملك الحبشة ثمَّ قال: (إنَّ هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة). ثمَّ أمَّنهم وأخرج الوفد الذي جاء لإعادتهم.

وأمَّا النبي ﷺ وبقية أصحابه فقد بقوا في مكة حتَّى قيَّض الله عز وجل له أهل المدينة فجاءوا إليه، وأسلموا وعاهدوه على أن ينصروه، ثمَّ أذن الله عز وجل له ولأتباعه بالهجرة إلى المدينة، فهاجر وهاجر أتباعه قبله ومعه وبعده سرًا عن قومهم.

وفي المدينة استقبله أهلها، وبدأ الإسلام يقوى، وتمَّ نزول الأحكام الشرعية بها، وبقي عليه الصلاة والسلام بعد ذلك عشر سنين في المدينة وهو يدعو إلى الدين ويقاتل من يقاتله أو يمنع الناس عن دينه حتَّى علا دينه وارتفعت رايته.

ثمَّ توفي وقام أصحابه بالدعوة، والجهاد في سبيل الله ونشر الدين حتَّى دخل الناس في دين الله أفواجًا، فوصلوا إلى حدود الصين شرقًا وإلى أسبانيا غربًا في مدة وجيزة.

وأما صفاته الظاهرة:

فقد كان جسمه رَبعة من القوم، ليس بالطويل ولا بالقصير، أبيض اللون، مشربًا بحمرة، أحسن الناس وجهًا كأنَّ وجهه القمر، ويده كأنَّها الحرير في ملمسها، رائحة جسده كأنَّها الطيب، وكان واسع العينين، وشعر رأسه بين النعومة والخشونة، عريض المنكبين.. إلى آخر تلك الأوصاف الجميلة كما ورد في وصف أصحابه له ﷺ.

وأخـــيرًا

أسأل الله عز وجل أن ينفع بهذا الكتاب كل من قرأه أو كتبه أو طبعه، كما أسأل الله عز وجل أن يساهم في إبلاغ هذا الدين إلى من لا يعرفه، وأن يظهر عظمة هذا الدين الذي أنزله خالق الكون عز وجل ليكون عقيدة وشريعة للبشرية جميعًا ويتحرر الناس من عبادة الناس إلى عبادة الله عز وجل وحده، ومِن تفرق الأديان إلى وحدة الدين المتفق مع وحدة الإنسانية فيعيش الناس أخوة متحابين يرحم بعضهم بعضًا ويساعد بعضهم بعضًا في ظل أخوة واحدة، وتحت راية واحدة، يعبدون ربًّا واحدًا، ويتبعون رسولًا واحدًا، ويحكمون كتابًا واحدًا.

وصلى الله على نبينا محمد وآله وسلم.

فهرس المراجع

١) القرآن الكريم.

٢) الله يتجلى في عصر العلم – نخبة من العلماء الأمريكيين – ترجمة دار الدمرداش – ط، دار القلم – بيروت.

٣) الإسلام الدين الفطري – مبشر الطرازي – دار الكتب العلمية.

٤) الإنسان لا يقوم وحده.

٥) إنَّه الحق (أصله ندوة مسجلة بين علماء شرعيين ومتخصصين في العلوم التجريبية) كتب تحت إشراف الشيخ عبد المجيد الزنداني.

٦)

٧) الإيمان والحياة – د. يوسف القرضاوي – الناشر: مكتبة وهبة.

٨) –تفسير البحر المحيط لأبي حيان، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٢٢هـ – ٢٠٠١م).

٩) تفسير التحرير والتنوير– الطاهر بن عاشور– نشر مؤسسة التاريخ–.

١٠) تفسير الطبري – محمد بن جرير الطبري – ط – الحلبي –.

١١) تفسير القاسمي – محمد جمال الدين القاسمي – ط – دار الفكر.

١٢) التفسير الكبير للرازي، المكتبة التوفيقية، القاهرة، تحقيق عماد زكي البارودي.

١٣) التفسير المنير – د.وهبة الزحيلي – ط – دار الفكر.

١٤) التوراة والإنجيل والقرآن والعلم – موريس بوكاي – ترجمة حسن خالد – ط – المكتب الإسلامي.

١٥) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن – للرماني، والخطابي، والجرجاني – تحقيق: محمد خلف الله ومحمد زغلول.

١٦) الحجاب – أبو الأعلى المودودي.

١٧) الخمر داء وليس دواء - د.شبيب بن علي الحاضري - ط-سفير.
١٨) رحلة الإعجاز في جسم الإنسان.
١٩) رحلة الإيمان في جسم الإنسان - د.حامد أحمد حامد - دار القلم.
٢٠) روح الدين الإسلامي - عفيف طبارة - مطبعة دار الكتب بيروت.
٢١) الرسول - سعيد حوي - مطبعة دار الإرشاد.
٢٢) سنن أبي داود - تحقيق عزت عبيد الدعاس – الطبعة الأولى.
٢٣) سنن ابن ماجه - ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي -.
٢٤) صحيح البخاري - ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي -.
٢٥) صحيح مسلم - ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي -.
٢٦) الطب في محراب الإيمان - د.خالص جلبي - مطبعة: دار الكتب العربية - بيروت - دمشق.
٢٧) الظاهرة القرآنية - مالك بن نبي - ط- دار القرآن الكريم.
٢٨) العقائد الإسلامية - السيد سابق - الناشر: دار الكتاب العربي.
٢٩) فطرية المعرفة - د.أحمد سعد حمدان - دار طيبة.
٣٠) قصص الأنبياء - عبد الوهاب النجار - مؤسسة الحلبي - (١٣٨٦هـ).
٣١) مستدرك الحاكم - دار الكتب العلمية.
٣٢) مسند أحمد - المكتب الإسلامي.
٣٣) المعجزة القرآنية. د. محمد حسن هيتو - مؤسسة الرسالة.
٣٤) المنهج الإيماني للدراسات الكونية - د. عبد الحليم عبد الرحمن - ط- الدار السعودية.
٣٥) يوم أن اعترفت أمريكا بالحقيقة - جيمس باترسون - بيتركيم - ترجمة - د. محمد بن سعود البشر – الطبعة الأولى.
٣٦) لسان العرب، دار الفكر.

فهرس المحتويات